Ibn Ḥazm, 'Ali ibn Aḥmad,

كنوز العرب

al-Radd 'alā Ibn al-Nighrīlah. ٣

الرد على ابن النغريلة اليهودي

ورسائل أخرى

لابن حزم الأندلسي

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

جامعة الخرطوم

١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م

الناشر

مكتبة دار العروبة

٩٢ شارع الجمهورية القاهرة

c1960.

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٢٩٥ ش رمسيس - القاهرة ت ٢٠٨٥١

تصـــدير

هذه مجموعة أخرى من رسائل ابن حزم أقدمها بعد أن قدمت مجموعة أولى من رسائله (بعنوان رسائل ابن حزم الأندلسى : ١٩٥٤) . وبقى من مجموع رسائله أربع أرجو أن أوفق لنشرها فى المستقبل . وقد كان ابن حزم مكثراً من التأليف . بلغت مؤلفاته فيما يقال أربعمائة مجلد ، وقد نشر من هذه الآثار عدد غير قليل ، ولا يزال قسم كبير منها مطوياً لم تنكشف عنه صدور المـكتبات ، وقد جمعت أسماء كتبه التى لم تصلنا ، وها أنا أثبتها فى هذا المـكان لألفت انتباه الباحثين إليها :

١ — رسالة فى الوعد والوعيد و بيان الحق فى ذلك من السنن والقرآن ، كتبها للأمير أبى الأحوص معن بن محمد التجيبى (انظر رسائل ابن حزم ، مخطوطة شهيد على ، الورقة : ٢٦٥) .

٢ — كتاب كشف الالتباس لما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس (تذكرة الذهبى ٣ : ١١٥٢ والنفح ١ : ٣٦٥)

٣ — كتاب الصادع والرادع فى الرد على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد (تذكرة الذهبى ٣ : ١١٥٢ والذخيرة ١/١ : ١٤٣ والنفح ١ : ٣٦٥) .

٤ — كتاب الجامع فى صحيح الأحاديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها (تذكرة الذهبى ٣ : ١٢٥٢ والذخيرة ١/١ ، ١٤٣ والنفح ١ : ٣٦٥)

٥ — كتاب شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (تذكرة الذهبي ٣ : ١١٥٢ والنفح ١ : ٣٦٥)

٦ — كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابين التوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما « لا » يحتمل التأويل (تذكرة الذهبي ٣ : ١١٤٧ والذخيرة ١/١ : ١٤٣ والجذوة : ٢٩١)

٧ — كتاب المجلى فى الفقه على مذهبه واجتهاده ، مجلد واحد (تذكرة الذهبي ٣ : ١١٤٧ وهو الذى شرحه فى المحلى) .

٨ — الايصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع . أورد فيه أقوال الصحابة فمن بعدهم والحجة لكل قول ، وهو كتاب كبير جداً (تذكرة الذهبي ٣ : ١١٤٧ والذخيرة ١/١ : ١٤٣ وقد أشار إليه ابن حزم فى الفصل ١ : ١١٤ ، ١٧٢ وفى الأحكام ١ : ٧٢ ، ٤ : ١٦١ ، ٤ : ٢٠٢)

٩ — كتاب الإمامة والسياسة فى قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب إلى الواجب منها (الذخيرة ١/١ : ١٤٣ والنفح ١ : ٣٦٥ باسم كتاب الإمامة والخلافة . . . ألخ وقد ذكر ابن حزم كتاب السياسة فى التقريب : ١٨١ وهو يدل على أن السياسة بمعنى التدبير ؛ وذكره ابن عباد الرندى فى الوسائل الصغرى : ٥١ ونقل منه شيئاً فى بعض أحوال النفس الإنسانية . وهذا يدل على أن كتاب « السياسة » مختلف فى موضوعه عن كتاب « الخلافة والإمامة » .

١٠ — كتاب فى أسماء الله تعالى (تذكرة الذهبي ٣ : ١١٤٧ والنفح ١ : ٣٦٥ قال الغزالى : وجدت فى أسماء الله تعالى كتاباً لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه) .

١١ — فهرست شيوخ ابن حزم ، (ذكره ابن خير فى فهرسته وقال إنه قرأه على شريح بن محمد) .

١٢ — الرد على ابن الإفليلى فى شعر المتنبى (الصلة ١ : ٢٧٤) فى ترجمة عبد الله بن أحمد النباهى قال : « وله ردّ على أبى محمد بن حزم فيما انتقده على ابن الإفليلى فى شرحه لشعر المتنبى » .

١٣ — نقض العلم الإلاهى للرازى (ذكره ابن حزم فى الفصل مرات ، انظر رسائل فلسفية للرازى نشر ب . كراوس ١٧٠ ـ ١٧٥) .

١٤ — ردّ على اسماعيل بن اسحاق (ترجمته فى تاريخ بغداد ٦ : ٢٨٤) فى كتابه الخمس (الأحكام ٣ : ١٠ ، قال : ولنا عليه فيه ردّ هتكنا عواره فيه وفضحناه بحول الله وقوته) .

١٥ — كتاب فيما خالف فيه المالكية الطائفة من الصحابة (رسائل ابن حزم الورقة : ١٨٠ قال : فقد ألفنا كتاباً ضخماً فيما خالفوا فيه الطائفة من الصحابة رضى الله عنهم بآرائهم دون تعلق بأحد من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، وانظر أيضاً الورقة : ١٩٢) .

١٦ — كتاب أن تارك الصلاة عمداً حتى يخرج وقتها لا قضاء عليه فيما قد خرج من وقته (رسائل ابن حزم ، الورقة : ١٩٢ قال : ولنا فى هذه المسألة كتاب مفرد مشهور) .

١٧ — ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس (الجذوة : ١٦٨)

١٨ — الفضائح (ياقوت : معجم البلدان (بربر) قال : « ولهم ـ أى البربر ـ من هذا فضائح ذكر بعضها إمام أهل المغرب أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى فى كتاب له سماه الفضائح . . . »)

١٩ — نكت الإسلام (تذكرة الذهبى ٣ : ١١٤٩ قال الفقيه ابن العربى

وقد جاءنى رجل بجزء لابن حزم سماه نكت الإسلام . . . إلخ ؛ ولابن العربى رد عليه فيه ، وقد ذكره ابن حزم نفسه فى المحلى ١ : ٥٧) .

٢٠ — كتاب فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعى جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد منهم (ذكره ابن حزم فى قسم الفرائض من المحلى ، وانظر تذكرة الذهبى ٣ : ١١٥٢) .

* * *

وبعد : فإنى أرجو أن أكون بتحقيق هذه الرسائل وكتابة مقدمة لها قد أسهمت فى خدمة آثار ابن حزم ، وفى خدمة القراء المتطلعين إليها ، ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أعاننى فى هذا العمل ، وبخاصة صديقى الباحث الدكتور عبد المجيد عابدين الذى أمدنى بملاحظاته القيمة فى بعض المسائل المتصلة بالألفاظ العبرية ، كما أشكر لصديقى الأستاذ اسماعيل عبيد صاحب مكتبة العروبة إسهامه فى نشر هذه الرسائل وحماسته لإخراجها على وجه يرضى القارئين .

إحسان عباس

جامعة الخرطوم فى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٠

مقدمة

تضم هذه المجموعة أربعاً من رسائل ابن حزم ، الثلاث الأول منها مأخوذة من مخطوطة شهيد على رقم ٢٧٠٤ وهى :

١ ـ رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى (الورقة ١٤٧ ـ ١٦٣) .

٢ ـ رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف (الورقة ١٧٢ ـ ١٩٥) .

٣ ـ رسالة التلخيص لوجود التخليص (الورقة ٢٣٥ ـ ٢٥٣) ولعلها هى التى تذكر فى المراجع باسم « كتاب التلخيص والتخليص فى المسائل النظرية » (انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ١١٥٢ والذخيرة ١/١ : ١٤٣ وزاد فى الذخيرة فى المسائل النظرية وفروعها التى لا نص عليها فى الكتاب ولا فى الحديث) .

أما الرسالة الرابعة فإنها مخطوطة المكتبة الأحمدية بتونس ، وتقع بعد كتاب التقريب لحد المنطق وتشغل الأوراق (٩٠ ـ ١٠٨) . وفى هذه المقدمة تعريف بواحدة بعد واحدة من هذه الرسائل :

— ١ —

رسالة فى الرد على ابن النغريلة

١ — من هو ابن النغريلة :

تختلف المصادر فى رسم اسمه على النحو الآتى :

(ا) ابن النغرالى فى الفصل (ومرة النغرال) وتصحف إلى الغزال فى طبقات صاعد .

(ب) ابن نغرالة فى التبيان وأعمال الأعلام (واللام مشددة) ، ونغرالة فى أصول الإحاطة ، ونغزالة فى البيان المغرب (ويكتبه الأستاذ غرسيه غومس بلام خفيفة) .

(حـ) ابن نغرله فى مغرب ابن سعيد .

(د) ابن النغريلى فى ذخيرة ابن بسام .

(هـ) ابن نغدالة (بالدال) عند دوزى .

(و) ابن نفريلة فى الأصل المخطوط من رسالة ابن حزم .

هذا الاسم إذا أطلق عنى أحد اثنين هما : صموئيل بن يوسف (اسماعيل أو أشموال عند ابن حزم فى الفصل) المكنى بأبى إبراهيم ، وابنه يوسف ابن اسماعيل المكنى بأبى الحسين . والأول وزر لصاحب غرناطة حبوس ثم لابنه باديس وخلفه ابنه فى خطته ، والثانى — يوسف — هو الذى ثارت به صنهاجة وقتلته . و بعض المصادر مثل الذخيرة والنفح والبيان المغرب ومغرب ابن سعيد يجعل المقتول هو اسماعيل ويجعل الوزير الأول أباه ويسميه يوسف ، ويذكر ابن سعيد أن للمقتول اسماعيل ابناً اسمه يوسف كان صغيراً حين قتل أبوه وصلب . وهذا كله وهم يصححه كتاب التبيان لأن مؤلفه هو حفيد باديس نفسه ، وقد شهد تلك الأحداث وعرفها عن كثب .

ويبدو أن الاختلاف فى رسم الاسم ليس منشؤه التصحيف فحسب ، وإنما هو من طبيعة النطق ، وربما كانت ألفه المتوسطة وسطاً بين الألف والياء ، وربما كانت نهايته بين الهاء والياء تعتمد تارة على نطقه باللهجة العامية الأندلسية وتارة على انتحال نطق فصيح له . وتكاد المصادر تجمع على كتابته بالراء إلا أن دوزى اختار الدال ، ولعله لمح شيئاً من الصلة بين الاسم وكلمة ناغيد (أو ناغيذ) ،

العبرية ، وهى لقب أحرزه اسماعيل وانتحله ابنه من بعده على غير استحقاق له ، قال ابن بسام : « وتسمى من خططه الشرعية بالناغير (الناغيد فى نسخة أخرى) معناه المدبر عندهم » . وها هى كلمة « الناغيد » تتصحف أيضاً فتكتب بالراء .

وقد وردت لفظة « الناغيد » (بالدال أو بالذال) فى أسفار العهد القديم بمعنى القيم على المعبد (الإخبار الأول ٢٦ : ٢٤) و بمعنى رئيس القصر (الإخبار الثانى ٢٨ : ٧ وأشعيا ٢٢ : ٢١) و بمعنى قائد الجيش أو رئيس فصيلة منه أو زعيم قبيلة (الأخبار الأول ٢٧ : ١٦ والثانى ١٩ : ١١) واختار ابن بسام لها كلمة «المدبر» ، ولا يبعد أن يكون هو اللفظ الاصطلاحى الذى استعمل فى الأندلس .

فإذا كان من صلة بين الاسم و بين اللقب فالأقرب أن الاسم هو « الناغيدلى » أو « الناغيدلة » ثم يقصر النطق به لكثرة تردده . فأما المقطع « لى » أو « له » الملحق به فأما أن يكون ذا صلة بلفظة « إيل » العبرية أو يكون صيغة تصغير لاتينية . وهذا كله تخمين أترك تحقيقه للعارفين بهذه الشئون اللغوية ، غير أن إجماع المصادر ــ تقريباً ــ على كتابته بالراء وتمسك أساتذة ثقات بهذا الرسم ــ مثل بروفنسال وغومس ــ يجعلنى أحتفظ به كذلك .

٢ ــ اسماعيل بن النغريلة :

لم يكن أندلسى الأصل بل كان أهله من الطارئين على الأندلس . وقد أخطأ ابن سعيد فى قوله إنه من بيت مشهور بغرناطة ، فهو غريب عن الأندلس وعن غرناطة معاً لأنه نشأ بقرطبة واضطرته فتنة البربر (٣٩٩ هـ) إلى الهجرة منها ، فسكن مالقة حيث افتتح له دكاناً . وكان قد درس التلمود بقرطبة على الكاهن حنوك ، كما درس الأدب العربى وغيره حتى أصبح يتقن الكتابة المنمقة بالعربية[1] . وتوصلت به الأحوال إلى أن أصبح كاتباً عند أبى العباس وزير

(١) دوزى : ٦٠٧ .

حبوس وكاتبه الأعلى ، فلما توفى أبو العباس خلفه ابنه على الكتابة ، وكان صغير السن ، فأصبحت شئون الديوان فى يد اسماعيل ، وأخذ هذا يتقرب إلى باديس طمعاً منه أن يحظى لديه إذا هو تولى الحكم بعد أبيه حبوس ، واتفق حدوث مؤامرة دبرها بعضهم لإزاحة باديس عن الإمارة وشارك إسماعيل فيها ولكنه إمعاناً منه فى طلب الحظوة كشف أمرها لباديس وجعله بحيث يسمع ما يقوله المتآمرون ؛ ولهذه اليد ولأسباب أخرى اتخذه باديس وزيراً ، ومن تلك الأسباب :

(ا) أنه ذمى غير أندلسى لا تشره نفسه إلى ولاية .

(ب) أن فى غرناطة جالية كبيرة من اليهود ، فهو أقدر من غيره على جباية الأموال .

(ح) أن إسماعيل كان حسن المداراة للناس ماهراً فى استخراج ما يريده منهم . وقد حاول دوزى أن يعزو الثقة فى اسماعيل إلى مهارته فى الكتابة وأن باديس لم يكن يطمئن إلى العرب ولا يجد كاتباً رفيع الأسلوب من البربر ، وليس هذا بأقوى الأسباب .

وعلى أى حال فإن اسماعيل أثبت فى السياسة كفاءة ممتازة ، وهى كفاءة تزداد شأناً كلما تذكرنا طغيان باديس وجبروته واتجاه الأمور وجهة الفوضى والمؤامرات ، حتى إن باديس لما فكر فى استئصال العناصر العربية فى غرناطة نصحه اسماعيل أن لا يفعل ودس نسواناً إلى معارف لهن من نساء زعماء المسلمين بغرناطة لينهاهم عن حضور الصلاة وأحبط تدبير باديس . وكشف باديس مؤامرة من صنهاجة ضده ووقعت يده على أزيد من مائتى اسم مشتركين فيها فشاور وزيره اليهودى فى أمرهم ، فأشار عليه بحرق الكتب التى ضبطها و بطى المسألة وقال : إن رأس العقل مداراة الناس .

وتجمع المصادر على إطراء إسماعيل وحسن سياسته حتى قال فيه ابن حيان :

« وكان هذا اللعين فى ذاته على ما زوى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً وذكاء ودماثة وركانة ودهاء ومكراً وملكاً لنفسه و بسطاً من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه »[١] وكان قليل الكلام دائم التفكير جمّاعة للكتب وكان من الناحية الأدبية يحسن الكتابة بالعربية والعبرية ، مزوداً بأنواع مختلفة من الثقافات كالرياضيات والنجوم والهندسة والمنطق والجدل وعلوم الدين . وقد ألف فى الرياضيات كتاباً اسمه « السجيح فى علوم الأوائل الرياضية » وقال القاضى صاعد فيه : « وكان عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها والذب عنها ما لم يكن عند أحد من أهل الأندلس »[٢] وله رسالة رد فيها على أبى مروان بن جناح اليهودى فى نحو اللغة العبرية[٣] كما نشر مقدمة للتلمود بالعبرية واثنين وعشرين مؤلفاً فى النحو ، وكان شاعراً بالعبرية يحل فى شعره معانى من المزامير والأمثال والجامعة ويكثر فيه من الإشارات والاقتباسات[٤] وقد وظف نساخاً ينسخون المشنا والتلمود ليقدم النسخ إلى من لا يستطيع شراءها من طلبة العلم ، وكان يُفْضِلُ على اليهود فى الأندلس وخارجها ولذا لقبه يهود غرناطة « الناغيد » اعترافاً بفضله[٥] ولما فقده اليهود حزنوا عليه كثيراً لأنهم فقدوا دعامة كبيرة من دعائم مجدهم .

وهذا السلطان الواسع الذى أحرزه اسماعيل مكن لليهود كثيراً فى الشئون الإدارية والمالية لأنه كان يختار الموظفين منهم ، فاكتسبوا الجاه فى أيامه واستطالوا على المسلمين[٦] ، ثم إن هذا الجاه الدنيوى هو الذى ساعد الجماعة اليهودية يومئذ على تثبيت اللغة اليهودية و بعث الثقافة اليهودية والظهور بذلك .

---

(١) الاحاطة ١ : ٤٤٦ .
(٢) طبقات الأمم : ١٠٠ .
(٣) بالنثيا : ٤٩٢ .
(٤) دوزى : ٦٠٩ .
(٥) المصدر نفسه : ٦١٠ .
(٦) الاحاطة : ٤٤٦ .

٣ — يوسف ابن النغريلة :

وخلفه على الوزارة ابنه يوسف وكان فتى جميل الوجه حاد الذهن مقروفاً ببعض الشئون[1] ، وكان أبوه قد حمله على مطالعة بعض الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية يعلمونه ويدارسونه ، وأعاقه بصنعة الكتابة ، وألحقه بخدمة بلكين بن باديس[2]. وكان لباديس وزيران هما : على وعبد الله ابنا القروى ، فتقرب إليهما يوسف بالأموال حتى اطمأنا إليه ونصحا لباديس بالاعتماد عليه ، فقدمه باديس على العمال والجبايات ، فنفق لديه بتدبير الأموال حتى انتزع له بالحيلة ما كان بيد ابنى القروى من أملاك . فاغتاظ ابنا القروى من ذلك وشاركهم شعورهم بعض رجال الدولة وحرضوا بلقين (بلكين) على قتله ، وكان بلكين رجلا لا يستطيع كتمان سر ، فأخذ يتحدث بقتله علناً ، فاحتال عليه اليهودى بأن دعاه للشرب عنده وتخلص منه بالسم ، وكانت هذه الحادثة مما أثار الناس على اليهودى حتى هموا بقتله لأن بلكين كان مرجواً لديهم . ولم يكف يوسف عن أساليبه فظل يتعقب ابنى القروى حتى نفاهما عما تبقى لهما من أملاك ، وازدهاه انتصاره وأبطره .

ومن الأسباب التى مكنت له فى الدولة :

(ا) كبر سن باديس وإسلامه الأمور كلها له واشتغال باديس بالشرب حتى كان لا يكاد يصحو .

(ب) اختلاف النساء فى القصر حول من يقدم للإمارة بعد باديس وتوصل يوسف إليهن بأسباب الخدمة .

(ج) عمله مع أناس قليلى التجارب من مثل ابنى القروى و بلكين وأشباههم

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ٢٦٩ . (٢) الإحاطة ١ : ٤٤٧ .

وجريه فيهم على سياسة التفرقة وتضريب بعضهم ببعض .

أما الأسباب التي أدت إلى مصرعه فيمكن إجمالها فيما يلي :

(ا) توسع شأن اليهود وتسلطهم على المسلمين فى حكومته وحكومة أبيه من قبله ونفور المسلمين من دفع الجبايات لهم ، خصوصاً وأن باديس لم يأذن - رسمياً - لليهود بمطالبة المسلمين ، ولكن يوسف وأعوانه كانوا يحتالون لذلك .

(ب) الصراع بينه و بين النايه وهو عبد للمعتضد بن عباد فرَّ إلى غرناطة ولقى حظوة عند باديس وكانت المنافسة بينه و بين اليهودى شديدة وأخذ باديس يصغى إليه فيما يقوله ضد يوسف بعض إصغاء .

(ج) كثرت مؤامرات النساء وتشابكت وكانت كلما انكشفت واحدة منها عصبت برأس اليهودى ، فرأى يوسف أن لا مخلص له إلا فى التآمر مع صاحب المرية - ابن صمادح - ليستولى على غرناطة و يتخلص من باديس . و إتماماً لهذه المؤامرة نصح يوسف لباديس أن يقصى أكابر صنهاجة عن غرناطة و يوليهم الولايات بعيداً عنها ، وانكشفت مؤامراته ونادى المنادى بذلك فى الأسواق فهبت صنهاجة لدفع ذلك .

(د) عدم تورعه عن نقد الأديان والتطاول عليها فى سخرية ، حتى كان اليهود أنفسهم غير راضين عنه ، بل هم يتشاءمون باسمه و يتظلمون من جور حكمه ، وتطاول إلى لقب « الناغيد » ونقل عنه أنه يقول إنه ينظم القرآن شعراً وموشحات وهكذا .

(ه) ثورة الأتقياء على هذا الوضع أى على وضع الثقة فى شخص غير مسلم ، ومن ذلك نجمت قصيدة الشيخ أبى إسحاق الألبيرى التى يحرض فيها صنهاجة على التخلص من اليهود والوزير اليهودى و يقول فيها :

وإنى احتللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسموها وأعمالها　　فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها　　وهم يخصمون وهم يقسمون
وهم يلبسون رفيع الكسا　　وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سركم　　وكيف يكون أمينا خئون

وكان لهذه القصيدة أثر فى تحريك النفوس وازدياد الغليان . فلما نادى المنادى « يا معشر من سمع بالمظفر قد غدره اليهودى ، وهذا ابن صمادح داخل فى البلدة » وتسامع الناس بذلك ، هبوا جميعاً . وهرب يوسف إلى داخل القصر واتبعته العامة حتى ظفروا به وقتلوه ، وقيل إنهم وجدوه مختبئاً فى مخزن للفحم وقد سوّد وجهه لئلا يعرف ، ثم قصدوا اليهود فأحالوا عليهم قتلا ونهبوا أموالهم ، ويقال إنهم قضوا على أربعة آلاف ونيِّف فى تلك المذبحة [١] .

٤ ــ ابن حزم والثقافة اليهودية :

لم يكن ابن حزم يعرف اللغة العبرية ، وشاهد ذلك أنه يقول فى الفصل : « ولقد أخبرنى بعض أهل البصر بالعبرانية » [٢] ولكنه فيما يبدو وجد نفسه وجهاً لوجه أمام بعض المجادلين من اليهود فى شئون العقائد ، فكان يناظرهم دون أن يطلع على التوراة [٣] وكثرت المناظرات وتعددت حتى قال ابن حيان : ولهذا الشيخ أبى محمد مع يهود ــ لعنهم الله ــ ومع غيرهم من أولى المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة [٤] ثم إنه رأى أن الاطلاع على نصوص كتبهم يقوى موقفه وينفى عنه تهمة الجهل بما يوردونه عليه من آراء ، فقرأ التوراة وهى الأسفار الخمسة الأولى . ويبدو أنه كان منها

---

(١) الذخيرة ١/٢/٢٧٢ .
(٢) الفصل ١ : ١٤٢ .
(٣) الفصل ١ : ٢١٣
(٤) الذخيرة ١/١ : ١٤٣

نسخ مترجمة ترجمات مختلفة ولم تكن هناك ترجمة واحدة معتمدة لقوله : « ورأيت فى نسخة أخرى منها » [١] وأورد نصاً مغايراً بعض المغايرة لنص آخر وجده فى إحدى النسخ . وقد وصف ابن حزم نسخة التوراة ـ وهى مجموعة الأسفار الخمسة بقوله : وإنما هى مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق فى كل صفحة منها من ثلاثة وعشرين سطراً إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب ، يكون فى السطر بضع عشرة كلمة » [٢] . ويظهر من النصوص التى أوردها فى هذه الرسالة ومن مقابلتها بالترجمة الحديثة الموجودة بين أيدينا مدى البعد بين الترجمتين فى اللفظ والمعنى .

وإذا تحدث ابن حزم عن أسفار التوراة استعمل أسماء معربة مثل سفر التكرار [٣] (التثنية) أو استعمل الأسماء العبرية ، فهو يقول : وأما الكتب التى يضيفونها إلى سليمان ـ عليه السلام ـ فهى ثلاثة واحدها يسمى شارهسير ثم (صوابه : شير هشيريم) معناه شعر الأشعار . . . والثانى يسمى : مثلا (هذه هى الصيغة السريانية أما العبرية مشلا بالشين) معناه الأمثال ، والثالث يسمى فوهلث (صوابه : قوهلث) معناه الجوامع [٤] ولا نشك فى أن التحريف فى الاسماء إنما هو من جهل النساخ وأن ابن حزم كان يعرف الوجه الصحيح منها .

واطلع ابن حزم أيضاً على الأسفار الأخرى ، وعلى كتب وشروح لليهود لا يسميها ويكتفى بأن يشير إليها بقوله : « وفى بعض كتبهم » أو « وفى بعض كتبهم المعظمة » [٥] كما يشير إلى سفرين من أسفار التلمود يسمى أحدهما شعر توما ويسمى الثانى سادر ناشيم . وقرأ أيضا تاريخ يوسيفوس (أو يوسف بن هارون الهارونى ـ كما يسميه ـ) [٦] وبالإضافة إلى هذا الاطلاع عرف شيئاً

---

(١) الفصل ١ : ١٢١

(٢) الفصل ١ : ١٨٧

(٣) الفصل : ١ : ١٩٨

(٤) الفصل ١ : ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(٥) الفصل ١:٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

(٦) الفصل ١ : ٩٩

من أحوال اليهود بالمجاورة والمشاهدة فكان يسأل بعض علمائهم ومقدميهم عما يتوقف فيه ، مجادلا فى أكثر الأحيان لا مستفهماً ، ونراه فى المرية يجلس فى دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى الذى كان مشهوراً بالفراسة [١] وقد جعل وكده منذ البدء إثبات التحريف والتناقض والتبديل على التوراة ، ولذلك درسها دراسة مستأنية ، وكان هو رائد ابن خلدون فى المنهج الذى اتبعه فى نقد الخبر التاريخى من هذه الناحية أعنى الناحية الزمنية والعددية .

٥ — بينه وبين صموئيل بن النغرالى (النغريلة)

وكان من أوائل من لقيه ابن حزم من يهود هو إسماعيل – أو أشموال – ابن يوسف الكاتب المعروف بابن النغرالى ووصفه بأنه أعلم اليهود وأجدلهم [٢] وأعتقد أن اللقاء بينهما لم يتم فى قرطبة وإنما كان بعد هجرة ابن حزم منها ، وقد ذكر ابن حزم نفسه أنه لقيه مرة عام ٤٠٤ هـ ، ونحن نعلم أن ابن حزم فارق قرطبة قبل ذلك بقليل وسكن مالقة وهى إحدى البلاد التى زارها ابن حزم ، وربما أقام فيها مدة من الزمن . وفى هذا اللقاء سأله ابن حزم عن قول التوراة « لا تنقطع من يهوذا المخصرة ولا من نسله قائد حتى يأتى المبعوث الذى هو رجاء الأمم » فقال ابن النغرالى : لم تزل رءوس الجواليت ينتسلون من ولد داوود وهم من بنى يهوذا وهى قيادة وملك ورياسة فقال ابن حزم : هذا خطأ لأن رأس الجالوت لا ينفذ أمره على أحد من اليهود ولا من غيرهم وإنما هى تسمية لا حقيقة لها ولا له قيادة ولا بيده مخصرة ... الخ [٣] ثم لم يذكر ابن حزم ماذا كان رد ابن النغرالى إليه .

وفى موضع آخر تساءل ابن حزم عن قول إبراهيم إن سارة أخته فقال ابن النغرالى إن نص اللفظة فى التوراة « أخت » وهى لفظة تقع فى العبرانية على الأخت وعلى

---

(١) طوق الحمامة : ١٩ (٢) الفصل ١ : ١٣٥ ، ١٥٢ (٣) الفصل ١ : ١٥٢ – ١٥٣

القريبة ، فقال ابن حزم : يمنع من صرفنا هذه اللفظة إلى القريبة هاهنا قوله : لكن ليست من أمي وإنما هي بنت أبي . فوجب أنه أراد الأخت بنت الأم ، قال : فخلط (أي ابن النغرالي) ولم يأت بشيء[١] .

وتاريخ اللقاء بين ابن حزم وابن النغرالي يدل على أن اهتمام ابن حزم بشئون الملل الأخرى بدأ في دور مبكر ، وما زال ينمو حتى تمثل على أتمه فيما حواه كتاب الفصل من ذلك .

٦ — على من يرد ابن حزم في هذه الرسالة ؟

ذكر ابن بسام اسماعيل بن النغريلي ونسب إليه ماينسبه آخرون إلى ابنه يوسف ، وتابعه على ذلك ابن سعيد في المغرب ويبدو أن النص مضطرب وأنه يجب أن نضع كلمة يوسف حيث وردت كلمة اسماعيل[٢] ، أما إذا انصرف الكلام على وجهه حسبما يذكره ابن بسام فإن اسماعيل كتب رداً على أبي محمد ابن حزم ، ولست أستبعد أن يكون إسماعيل قد اطلع على أجزاء من الفصل تتعلق بالتوراة وكتب رداً عليها ، ولكن هل هذا الرد هو الذي أثار ابن حزم لكتابة رسالته هذه ؟

يقول ابن حزم في هذه الرسالة : « ولعمري إن اعتراضه الذي اعترض به ليدل على ضيق باعه في العلم وقلة اتساعه في الفهم على ماعهدناه عليه قديماً » فقوله « عهدناه قديماً » يدل على سابق معرفة به ، ونحن لانعرف لابن حزم صلة بيوسف ـ الابن ـ وكل ما أشار إليه في الفصل هو صلته باسماعيل ولكن نستبعد أن يكون إسماعيل هو مؤلف كتاب في تناقض القرآن لأن المصادر كلها تجمع

---

(١) الفصل ١ : ١٣٥ (٢) الذخيرة ٢/٢ : ٢٦٩

على أنه كان بعيد النظر حسن المداراة لايتورط فيما يوغر عليه الصدور ، وهـذه صفات عرى منها ابنه يوسف ، و إليه يمكن أن ينصرف قول ابن بسام : « وجاهر بالـكلام فى الطعن على ملة الإسلام » و إليه يمكن أن ينصرف قول ابن سعيد : وأقسم أن ينظم جميع القرآن فى أشعار وموشحات يغنى بها[١] ثم إن ابن حزم قد شهد لاسماعيل بالعلم والقوة على الجدل . ومهما نقل إن هـذا شىء نسبى فلا نستطيع أن ننكر شهادة المصادر الأخرى له .

أغلب الظن ـ إذن ـ أن الذى كتب كتاباً فى تناقض كلام الله ـ بزعمه ـ هو يوسف وأن ابن حزم يرد عليه وأن قوله « عهدناه عليه قديماً » يشير حقاً إلى معرفة سابقة لا نعرفها . ويجب أن أقور أن ابن حزم لم يذكر ابن النغريلة نصاً فى هذه الرسالة و إنما أشار إلى أنه رجل من يهود يعمل فى ظل ملك ضعيف وأنه استشعر البطر وشمخت نفسه لـكثرة أمواله وأنه قليل العلم سىء الفهم ، وكل هذه الصفات مما يمكن أن تلصق بيوسف لا بأبيه إسماعيل .

و إذا كان الأمر كذلك فمن المرجح أن يوسف كتب كتابه فى فترة ارتفاعه إلى خطة الوزارة بين عامى ٤٥٦ ـ ٤٥٩ وهو حينئذ مرخى العنان مستبد الأشر ، وأن ابن حزم لم يظفر بكتابه و إنما ظفر برد لأحد العلماء عليه ، فى تاريخ سابق لمقتل ابن النغريلة ، وهذا يعين على نحو ما تاريخ هذه الرسالة وأنها صدرت قبل عام ٤٥٩ (أو فيه) إذ ليس فيها أدنى تلميح إلى مقتله . و إذن فالـكتاب الأصلى الذى كتبه ابن النغريلة والرد الذى اطلع عليه ابن حزم ورد ابن حزم نفسه مما أضاف إلى سخط الناس على ابن النغريلة ، وزاد فى تـكثيف سحب النقمة فوق رأسه بالإضافة إلى مافعلته قصيدة أبى إسحاق الألبيرى .

---

(١) المغرب ٢ : ١١٤

٧ — طريقة ابن حزم فى الرد :

تنقسم هذه الرسالة فى قسمين : الأول : المشكلات التى أثارها ابن النغريلة ورد ابن حزم على كل مشكلة منها ، وتقع فى ثمانية فصول ـ كما سماها ابن حزم ـ وهو لا يكتفى بالرد بل يشفعه بانتقاد إحدى المسائل التى وردت فى التوراة لافتاً ابن النغريلة إلى أن بيته من زجاج ؛ وتشغل هذه الفصول الفقرات ١ ـ ٣٣ ؛ وفى القسم الثانى ناقش ابن حزم بعض مايسميه « الطوام » التى وردت فى كتب يهود ، وهو الجانب الذى أفاض فيه كتاب الفصل . واعتذر فى ختام الرسالة عن إيراد شنع اليهود بمثل ما اعتذر به فى الفصل فذهب إلى أن الله تعالى قص علينا من كفرهم ، فاقتدى هو بكتاب الله فى ذلك .

وهذه الرسالة شاهد آخر يضاف إلى غيره من الشواهد التى تدل على كراهية ابن حزم لملوك الطوائف : « و بالله تعالى نعوذ من الخذلان ومن معارضة الله تعالى فى حكمه بإرادة إعزاز من أذله الله تعالى[1] » . وفاتحة الرسالة أيضاً تشير إلى تشاغل أهل الممالك عن إقامة دينهم ، وهذا ماعرض له ابن حزم بشىء من التفصيل فى رسالة التلخيص لوجوه التخليص .

— ٢ —

رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف

١ — ابن حزم والمالكية :

هكذا هو عنوان هذه الرسالة ، وهى فى الحق رسالة واحدة لا رسالتان ، وقد قال ابن حزم فى مطلعها : « كتب كتاباً خاطبنا فيه معنفاً » ولم يقل : كتابين . وقد كان صاحب هذه الرسالة مستتراً ثم ظهر ، فإذا هو يمثل فى موقفه

---

(١) الفقرة ٦٣ من الرسالة

من ابن حزم رأى فقهاء المالكية فى بعض المسائل ، ولذلك فإن ابن حزم يرد على جماعة لا على فرد ، و يقول إنه يورد نص ألفاظهم على ركا كتها وغثاثتها لئلا يظنوا بجهلهم أنها إن أوردت مصلحة فقد نسخت حقها ولم توف مرتبتها .

وقد كانت الخصومة بين ابن حزم وفقهاء المالكية عنيفة بالغة العنف لأن إبطال القياس والرأى والتقليد كان يعنى حرباً لا هوادة فيها على فقهاء المالكية بالأندلس يومئذ . ولذلك وقفوا لمناظرة ابن حزم فى المجالس العامة ، وأشار هو إلى بعض هذه المناظرات فى مواطن فى كتبه فمنها :

ا) مناظرة بينه و بين الليث بين حرفش (حر يش ؟) العبدى فى مجلس القاضى عبد الرحمن بن أحمد بن بشر وفى حفل عظيم من فقهاء المالكية ، وكانت المناظرة تدور حول كتمان العالم بعض الحديث و إذاعة بعض الآخر ، قال ابن حزم : وذلك أنى قلت له لقد نسبت إلى مالك رضى الله عنه ما لو صح عنه لكان أفسق الناس ، وذلك أنك تصفه بأنه أبدى إلى الناس المعلول والمتروك والمنسوخ من رواية وكتمهم المستعمل والسالم والناسخ حتى مات ولم يبده إلى أحد، وهذه صفة من يقصد إفساد الإسلام والتلبيس على أهله ، وقد أعاذه الله من ذلك ، بل كان عندنا أحد الأئمة الناصحين لهذه الملة ، ولكنه أصاب وأخطأ واجتهد ، فوفق وحرم ، كسائر العلماء ولا فرق ، أو كلاماً هذا معناه[1] . و يقول ابن حزم : إن أحداً من المالكية لم يجب إجابة معارضة بل صمتوا كلهم إلا قليلا منهم أجابونى بالتصديق لقولى .

ب) مناظرة بينه و بين كبير من المالكيين حول قول ابن عباس فى دية الأصابع : ألا اعتبرتم ذلك بالأسنان عقلها سواء و إن اختلفت منافعها . فالمالكية يرون هـذا من باب القياس وابن حزم يراه نصاً جلياً فى إبطاله . قال

---

(١) الاحكام ٢ : ١٢٢

ابن حزم لمناظره : إن القياس عند جميع القائلين به وأنت منهم ، إنما هو رد مالا نص فيه إلى مافيه نص ، وليس فى الأصابع ولا فى الأسنان إجماع بل الخلاف موجود فى كليهما ، وقد جاء عن عمر المفاضلة بين دية الأصابع و بين دية الأضراس وجاء عنه وعن غيره التسوية بين كل ذلك ، فبطل هاهنا رد المختلف فيه إلى المجمع عليه ، والنص فى الأصابع والأسنان سواء ، ثم من المحال الممتنع أن يكون عند ابن عباس نص ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التسوية بين الأصابع و بين الأضراس ثم يفتى بذلك قياساً[1] .

وليس هذان المثلان إلا شيئاً يسيراً من ذلك الصراع المذهبى بين ابن حزم والمالكية ، وهما نموذج لمناظرات أخرى عنيفة حامية . وقد ملأ ابن حزم كتبه الفقهية بردوده على فقهاء المالكية ، و يبدو من حديثه عنهم ـ بوجه عام ـ أنهم كانوا وقد قفوا عند حد المدونة والمستخرجة لا يتعدونهما إلى شىء ، حتى لقد سئل عبد الله بن ابراهيم الأصيلى : كيف صفة الفقيه عندكم بالأندلس ؟ فقال : يقرأ المدونة ور بما المستخرجة فإذا حفظ أفتى ، فقال له سائله وهو شرقى : أجمعت الأمة على أن من هذه صفته لا يحل له أن يفتى .

وروى ابن حزم أيضاً هذه القصة قال : حدثنى أبو مروان عبد الملك ابن أحمد المروانى قال : سمعت أحمد بن عبد الله الأشبيلى المعروف بابن المكوى ونحن مقبلون من جنازة من الربض بعدوة نهر قرطبة وقد سأله سائل فقال له : ما المقدار الذى إذا بلغه المرء حل له أن يفتى ؟ فقال له : إذا عرف موضع المسألة فى الكتاب الذى يقرأ حل له أن يفتى[2] .

ولم يحمل ابن حزم على تقليد المالكيين وحدهم بل على التقليد عند غيرهم من أهل المذاهب الأخرى حتى قال فى اتهامه لهم جميعاً : وأما أهل بلدنا فليسوا

---

(١) الاحكام ٧ : ٧٨ (٢) الاحكام ٥ : ١٢٩

ممن يعتنى بطلب دليل على مسائلهم . . . فيعرضون كلام الله تعالى وكلام الرسول على قول صاحبهم وهو مخلوق مذنب يخطىء و يصيب[(١)] .

وكان هذا التقليد هو الذى حال بين أولئك الفقهاء و بين الارتفاع إلى مستوى الأحداث ـ كما نقول اليوم ـ لأنهم كانوا يقفون عند رأى صاحبهم لا يتجاوزونه ، وقد حدث فى أيام الفتنة البربرية أن كان الناس فى فزع من هجوم البربر عليهم بقرطبة فسألوا فقهاءهم الجمع بين المغرب والعشاء لئلا يتعرض لهم متلصصة البربر فى المنعطفات والدروب المظلمة فما استطاعوا أن يفتوهم بذلك جموداً عند حد التقليد .

ومن سيئات ذلك التقليد ، أن كان أولئك الفقهاء ضعفاء فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من ضعيفه عاجزين عن القيام بأمر الجرح والتعديل وتصحيح النقل إجمالا . ومن المضحك فى هذا الباب ما يقوله شيخ من شيوخ المالكية مقدم فى مشاورة القضاة فى كتاب ألفه مكتوب كله بخطه ، وأقر بتأليفه وقرأه غير ابن حزم عليه « روينا بأسانيد صحاح إلى التوراة أن السماء والأرض بكتا على عمر بن عبد العزيز أربعين سنة »[(٢)] قال ابن حزم : هذا نص لفظه ، فلا أعجب من الشيخ المذكور فى أن يروى عن التوراة شيئاً من أخبار عمر ابن عبد العزيز .

ولم تنجح المناظرات فى رد ابن حزم عن الاتجاه الذى اختاره لنفسه فحاول المالكية ـ حسب قوله ـ إثارة العامة ضده فلما أخفقوا فى هذا أيضاً لجأوا إلى السلطان وكتبوا الكتب الكاذبة « فخيب الله سعيهم وأبطل بغيهم . . . فعادوا إلى المطالبة عند أمثالهم فكتبوا الكتب السخيفة إلى مثل ابن زياد بدانية وعبد الحق بصقلية » فلم ينفعهم ذلك كله ، فلجأوا إلى كتابة الرسائل إليه ـ كهذه الرسالة ـ

(١) الإحكام ٦ : ١١٧ ـ ١١٨ . (٢) الإحكام ٥ : ١٦٣

ولا ريب فى أن هذه الخصومة كانت من الأسباب التى جرت إلى أزمة شديدة وقع فيها ابن حزم ، بالإضافة إلى تكاتف الأشاعرة وغيرهم ضده ، وقسمت علماء بلده قسمين : قسم يريد إسكاته وقسم يدافع عنه ، وقد سمى هو فى المدافعين عنه جماعة من الفقهاء المشهورين . ولخص ابن حيان المؤرخ مشكلة ابن حزم خير تلخيص حين قال : « فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يزفه بتدريج بل يصك به معارضه صك الجندل ويُنْشِقُه متلقيه إنشاق الخردل فينفر عنه القلوب ويوقع بها الندوب حتى استهدف إلى فقهاء وقته فتمالأوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بترب بلده من بادية لبلة .. وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف »(١) .

انهزم ابن حزم ــ إذن ــ أمام المذهب المالكى لأن السياسة فى المغرب وقفت تسند ذلك المذهب ، وما حرق كتبه إلا شاهد قوى على ذلك . وبعد وفاة ابن حزم بسنوات وقعت الأندلس فى قبضة المرابطين فبلغ انتصار المذهب المالكى أقصاه ؛ لأن أمير المرابطين لم يكن يحظى عنده ألا من علم علم الفروع ــ أى فروع مذهب مالك ــ فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ هكذا قال المراكشى(٢) . وهذا هو عين ما كان ينعاه ابن حزم على فقهاء بلده ويلح من أجله على دعوتهم إلى الكتاب والسنة وهجر التقليد للأئمة .

---

(١) الذخيرة ١/١:١٤١ (٢) المعجب : ١١١

٢ — هذه الرسالة :

تحوى رسالة الفقهاء المالكية إلى ابن حزم نقاطاً ومسائل كثيرة ، وليس من همى أن أسرد كل ذلك ولكنى أختار أهم الاتهامات التى وجهوها إلى ابن حزم نفسه . ولا يخطىء الناظر فى هذه الرسالة أن يرى تلك الناحية التى عانى ابن حزم شيئاً كثيراً من أجلها ، أعنى علاقته بعلم المنطق ، فهو عند هؤلاء الفقهاء متهم بأنه يرد بالمنطق على الشرعى وله عناية بحد المنطق ، والشق الأول من التهمة باطل لأن ابن حزم اتخذ المنطق أساساً فى الأحكام الشرعية ليثبت به تلك الأحكام لا ليردها وأما الشق الثانى فيشير إلى كتاب التقريب « وما فيه من التعمق والعرض وترتيب الهيئات »(١) وقد كان رد ابن حزم على هذا واحداً حيثما هاجمه به أعداؤه وهو : هل عرف هؤلاء الناس حد المنطق أو لم يعرفوه فإن عرفوه فليبينوا ما فيه من المنكرات ، و إن لم يعرفوه فكيف يستحلون أن يذموا ما لم يعرفوه ؟ .

وقد يتفرع عن هذه التهمة المزدوجة أنه أوغل فى التصنيف والتمثيل والاشتقاق والتناتج وأنهم يقرون بقوته فى الحجاج واتساعه فى اللغة ولكنهم يرون طريقته مخالفة لما كان عليه الأئمة من قبل ، وكأنهم يلمحون من طرف خفى إلى أن اقتداره على المنطق هو المسئول عن ذلك أيضاً . وقد دفع ابن حزم هذا كله ، وحمد الله على مارزقه من سعة اطلاع وقوة حجة ولم يحمدهم على شهادتهم له بذلك لأنها لاتزيده شرفاً ولا تطغيه .

وأما اتهامهم له بأنه ضعيف الرواية عار من الشيوخ فهو متصل ـ فيما يبدو ـ بكونه لم يرحل فى طلب العلم . ولم ينف ابن حزم هذه التهمة ، و إنما رد عليهم

---

(١) انظر الفقرة : ١١ من الرسالة .

بتهمة مقابلة ، فهم ليسوا من أهل الرواية وكل ما يعرفونه هو المدونة ، وأكثرهم لا يقيم الهجاء ، ولا يعرف ما حديث مرسل من مسند ، وهم أيضا عارون من الشيوخ ، ما كان لهم شيخ قط إلا عبد الملك بن سليمان الخولانى ، وكانوا يجالسونه ثم يخرجون من عنده كما دخلوا .

وأقوى ما واجهوه به قولهم : « إن أسماء الرجال والتواريخ تختلف فى الآفاق ، والأسانيد فمنها قوى ومنها ضعيف » وقد شرح ابن حزم موقفه من الأحاديث المتعارضة باختصار فى هذه الرسالة ، وملخص ما قاله فى الإحكام حول هذه المسألة (١) .

(ا) كل خبر لم يأت إلا مرسلا ، أو لم يروه إلا مجهول أو مجرح ثابت الجرحة فهو باطل بلا شك .

(ب) من اختلف فيه فعدله قوم وجرحه آخرون استثبتنا أحدهما فإن ثبتت عدالته قطع على صحة خبره و إن ثبتت جرحته قطعنا على بطلان خبره و إن تعادلا توقفنا ، ور بما اهتدى غيرنا إلى الصواب فيه .

(ج) لا يكون خطأ فى خبر ثقة إلا باعترافه أو شهادة عدل على أنه وهم فيه أو إثبات خطأ بالمشاهدة .

(د) كل خبرين صحيحين متعارضين لم يأت نص بالناسخ منهما فالزائد على الحكم المتقدم من معهود الأصل هو الناسخ . « فإن وجد لنا يوماً غير هذا فنحن تائبون إلى الله تعالى منه ، وهى وهلة نستغفر الله عز وجل منها و إنا لنرجو أن لا يوجد لنا ذلك بمن الله تعالى ولطفه » .

ولا يزال هذا المنهاج من الناحية النظرية سديداً جيداً ، أما عند التطبيق العملى فإنه يسمح باختلاف كثير .

---

(١) الاحكام ١ : ١٣٦ ـ ١٣٨

وقد كشفت هذه الرسالة عن عدة أمور هامة ، منها : مدى اطلاع ابن حزم على الفقه المالكى : « فلعمرى ما لشيوخهم ديوان مشهور ومؤلف فى نص مذهبهم إلا وقد رأيناه ولله الحمد كثيرا ككتاب ابن الجهم وكتاب الأبهرى الكبير والأبهرى الصغير والقزوينى وابن القصار وعبد الوهاب والأصيلى » . ومنها نظرته الموضوعية الناقدة بعد اطلاعه على ما ألفه أهل كل مذهب : « فألف أصحاب الحديث تواليف جمة وألف الحنفيون تواليف جمة وألف المالكيون تواليف والشافعيون تواليف فلم يكن عندنا تأليف طبقة من هذه أولى أن يلتفت إليه من تأليف غيرها بل جمعناها ــ ولله الحمد ــ وعرضناها على القرآن وما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وحدد ابن حزم فى هذه الرسالة مظانّ الحديث المعتمدة عنده وهى : تصنيف البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى وابن أيمن وابن أصبغ وعبد الرزاق وحماد ووكيع ومصنف ابن أبى شيبة أو مسنده وحديث سفيان بن عيينة وحديث شعبة . ويقول ابن حزم إنه أضرب عن الحديث المستور من الرواة صيانة لأقدار الأئمة عن تعريضهم لمن لا يعبأ به الله شيئا . وذكر أنه كان يقتنى كل هذه الدواوين وقد رواها وضبطها وصححها .

وثمة شىء آخر كشفت عنه هذه الرسالة وهو شيوع آراء منسوبة لابن حزم لم يقل هو بها (ف : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠) وكان هذا مما يوسع شقة الاختلاف بينه وبين أهل المذاهب الأخرى .

ــ ٣ ــ

رسالة التلخيص لوجوه التخليص

هذه رسالة من أجود ما كتبه ابن حزم وأكثره هدوءاً وأعلقه بأسباب النفوس الباحثة عن طريق النجاة ، ترفرف عليها مسحة الأخوة وتشملها سعة

الأفق ورحابة الصدر ، وفيها يظهر شموخ ابن حزم فى اتساع النظرة الدينية ، فهى خلاصة للاستقصاء فى البحث والقدرة على الوضوح والوعى والدقة وفهم أحوال الدين والدنيا ، كتبها رداً على أسئلة جاءته من بعض أصدقائه « لا يستغنى عنها من له أقل اهتمام لدينه » أجادوا فيها السؤال وجود هو فيها الجواب ، فضم الأسئلة المتشابهة بعضها إلى ببعض فى نطاق واحد واستشهد على آرائه بالأحاديث متخففاً من إسنادها فى الأكثر ، رجاء الاختصار ، وكلها أحاديث صحيحة لا يشك أحد فى صحتها ولا يتردد فى قبولها إلا حديثين (ف : ٨) .

والأسئلة فى مجموعها ثمانية وهى :

١ — ما أفضل ما يعمله المرء ليحصل به على عفو ر به وما أنفع ما يشتغل به من كثرت ذنو به فى تكفير الصغائر والكبائر .

٢ — ما العمل الذى إذا قطع به الإنسان باقى عمره رجا الفوز وما السيرة التى يختارها ابن حزم .

٣ — ما القدر الذى يطلبه المرء من العلوم ؟

٤ — أى الأمور فى النوافل أفضل ؟ الصلاة أم الصيام أم الصدقة ؟

٥ — هل حديث التنزل صحيح وهل الإجابة مضمونة فى تلك الساعة ؟

٦ — ما رأى ابن حزم فى الفتنة الأندلسية وانقسام البلاد إلى إمارات .

٧ — كيف تكون السلامة فى المطعم والملبس والمأكل للذين يسكنون الأندلس فى ظل تلك الفتنة ؟

٨ — هل تتفاضل الكبائر ؟

وإذا استثنينا السؤال الخامس ـ وهو يدور حول مشكلة محددة ـ وجدنا الأسئلة الأخرى جميعاً بالغة الأهمية .

وفى الجواب عن السؤال الأول وضح ابن حزم رأيه فى ماهية « الـكبيرة » وما الذى يخفف من أثقال الذنوب وأن لله مواهب خمساً قد أتحفنا بها ، لا يهلك على الله بعدها إلا هالك وهى :

١ — أن الله يغفر الصغائر باجتناب الـكبائر .

٢ — أن التوبة الخالصة قبل الموت تسقط الـكبائر نفسها .

٣ — إذا ارتـكب المرء الـكبائر وزنت حسناته بسيئاته فإن رجحت حسناته غفر الله له .

٤ — أن السيئة بمثلها والحسنة بعشرة أمثالها .

٥ — أن هناك شفاعة ذخرها الله للمؤمنين يخرجهم بها بعد أن ينالوا شطراً من العذاب .

وكان من حق ابن حزم هنا أن يجيب على السؤال الثامن وهو : هل تتفاضل الـكبائر لأنه متصل بالموضوع الأول فى أجوبته . وإنا لنرى مبلغ الأمل الذى بثه ابن حزم فى النفوس عن طريق فهمه الواسع لروح الدين ، وهو يجيب على السؤال الأول .

فأما الجواب عن العمل الذى يختاره والسيرة التى يفضلها فقد كان جواباً بارعاً فى دقته وشموله ومنه ومن أجوبة أخرى فى هذه الرسالة تتضح لنا الروح الاجتماعية التى أدركها ابن حزم من طبيعة الدين ، فأفضل الأعمال ثلاثة متدرجة ، وكلها تضع الفرد موضع المسئولية الاجتماعية : أولها وأهمها : عمل عالم يعلم الناس دينهم ؛ وثانيها : الحاكم العادل الذى يشارك رعيته فى كل عمل خير عملوه فى ظل عدله وأمن سلطانه ؛ وثالثها : مجاهد فى سبيل الله ، وهكذا تتدرج مراتب العمل عند ابن حزم من أوسع حدوده الاجتماعية إلى أصغر المراتب الفردية حتى يتم من

ذلك تسع مراتب متفاضلة متدرجة لا تحرم الإنسان أملا ، وتليها جميعاً مرتبة واحدة مؤكدة الهلاك وهى حال الكافر فحسب . ومرة أخرى يتبين لنا أخذ ابن حزم بالرجاء وفهمه الدقيق لطبيعة موقف الفرد فى الجماعة أو بعيداً عنها .

وهذا الفهم للنواحى الاجتماعية هو خير ما يميز هذه الرسالة ، ومن خلال هذه الأجوبة كتب ابن حزم صفحة هامة فى التاريخ الاجتماعى الاقتصادى للأندلس بعيد الفتنة البربرية ، ونحن مدينون له بمعرفة أن الأندلس لم تخمس ولم تقسم عند الفتح ، لكن نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت ، ووقعت فى البلاد غلبة إثر غلبة ، دخلها أولا الأفارقة فحازوا ما حازوه ثم الشاميون أصحاب بلج فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ثم كانت الفتنة البربرية فأخذ البربر يستولون على ما بأيدى السكان ويشنون الغارات على المواشى وثمار الزيتون .

ويرى ابن حزم أن كل مدبر مدينة أو حصن فى الأندلس فهو محارب لله تعالى ساع فى الفساد لأنه يسمح بالغارة على الرعية ويبيح للجند قطع الطريق ويضرب المكوس والجزية على رقاب المسلمين ويسلط اليهود عليهم ليجمعوها منهم ، وتسمى هذه الجزية « القطيع » وتؤدى بالعنف ظلماً وعدواناً لدفع رواتب الجند ، فيعامل الجند بهذه الدراهم والدنانير التجار والصناع فتصبح فى حرمتها كالحيات والعقارب والأفاعى بعد أن كانت حلالا طيباً مستخرجاً من وادى لاردة ، ولا سلامة إلا بالاقرار بحرمتها والاستغفار من ذلك إذ كان التورع عن استعمالها أمراً غير عملى .

ثم يكون القطيع أيضاً من الغنم والبقر والدواب وعلى الأسواق وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين ، وهذه الدواب تباع للذبح وللنسل . فإذا امتنع المرء عن أكل اللحم لم يمتنع عن شراء الدواب للنسل والحرث ، وهى نار كلها لأنها بدل

من المثمّن ، ثم ينصرف ثمنها فى أنواع التجارات .

ثم إن مرتبات الجند تتحصل أيضاً من الجزية على الصابون والملح والدقيق والزيت والجبن ، وهى جزية غير مشروعة يدفعها المسلمون وتجرى فى التعامل « وقد علمتم ضيق الأمر فى كل ما يأتى من البلاد التى غلب عليها البربر من الزيت والملح و إن كل ذلك غصب من أهله ، وكذلك الكتان أكثره من سهم صنهاجة الآخذين النصف والثلث ممن نزلوا عليه من أهل القرى ، ولا سلامة من أكل الحرام والتعامل به فى كل ذلك ، ولكن ليفعل المرء ماهو ممكن وهو أن يجتنب ما يعرف أنه غصب معرفة يقين ، ثم يعذر فيما جهله » .

وتستعلن ثورة ابن حزم على هذا الوضع السىء وعلى الحكام الذين يمكنون للذميين من المسلمين ، و يسلمون الحصون للروم دون قتال وعلى تساهلهم فى شئون المسلمين والاهتمام بمصالح أنفسهم دون مصالح الرعية ، ومع ذلك لا نراه ينصح بالخروج عن طاعتهم ، وهو نفسه فى حيرة من الأمر ، لأنه يعتقد أن اجتماع كل من ينكر بقلبه يؤلف قوة لا تغلب فكيف لا يتم هذا ؟ والمسألة أصعب من أن يدعو فيها إلى إصلاح شامل بالقوة ولذلك تراه ينصح بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و بالتقية لمن عجز عن ذلك ، ولكنه شديد الإنكار على من يعين أولئك الظلمة أو يزين لهم أفعالهم ، فإذا اضطر المرء للدخول على بعضهم لقضاء الحقوق فليفعل ، وليعظ إن وجد للوعظ مجالا .

أما العلوم وما يجب طلبه منها فقد وضحه ابن حزم فى رسالة فى مراتب العلوم بإسهاب وأورد شيئاً مما قاله هنالك فى هذه الرسالة بوجه الإيجاز ، وخلاصة رأيه أن طلب علم القراءات والنحو واللغة فرض كفاية . وأن طلب العلم إجمالا لابد أن يكون لوجه الله تعالى غير مخلوط بشىء من طلب الجاه والذكر فى هذه الدنيا ، والعلم أضعف السبل إلى كسب المال ، وغيره من الطرق أقدر على كسب الدنيا لمن أرادها .

وعرّج ابن حزم فى آخر الرسالة على ذكر التوبة فقسمها أربعة أقسام :

١ — التوبة من ذنوب بين العبد وربه كالزنا ، وشرب الخمر ، وهذه تتم بالاستغفار والاقلاع والندم .

٢ — التوبة من تعطيل الفرائض عمداً وتتم بالندم والإكثار من النوافل وفعل الخير . ولا قضاء لمافات عند ابن حزم فى صوم أو صلاة ، أما الزكاة والكفارات فليؤد ما فاته منها .

٣ — التوبة لمن امتحن بمظالم العباد وضرب أبشارهم وقذف أعراضهم وإخافتهم ظلماً وتتم بالخروج عن المال المأخوذ ظلماً ورده إلى أصحابه أو إلى ورثتهم أو إلى إمام المسلمين إن كان لهم إمام عدل .

٤ — توبة من امتحن بقتل النفس . وهو أصعب الذنوب وتتم بأن يمكن ولى المقتول من دم القاتل ، أو ليلزم الجهاد وليتعرض للشهادة جهده .

— ٤ —

كتاب فى الرد على الكندى

جاء هذا الكتاب تالياً لكتاب التقريب من نسخة المكتبة الأحمدية بتونس حيث كتب على الورقة الأولى « وفيه الرد على محمد بن زكريا الرازى المتطبب فى كتابه المسمى بكتاب العلم الإلهى . . . . بكتاب التوحيد من تأليفه قدس الله روحه ونور ضريحه » ويبدو أن كلمة « بكتاب التوحيد » تصحيح أضافه الناسخ على هامش الورقة الأولى بعد أن وضع علامة « م » فوق « بكتاب العلم الإلهى » .

ويستطيع المرء من النظرة الأولى أن يحكم بأن هذا الكتاب لاصلة له بكتاب العلم الإلهى للرازى ولا هو ردّ على محمد بن زكريا ، فليس للرازى فيه

أى ذكر وليست محتوياته ردا على كتاب العلم الإلهى وإنما هو فى أكثره ردّ على الكندى مؤلف كتاب التوحيد ثم يلى ذلك فصول تترتب على النحو الآتى :

(ا) تعريف ببعض المصطلحات (ف ٦٢ ـ ٧٦)

(ب) مناظرة بين المؤلف وأحد الدهرية (ف ٧٧)

(جـ) فصل فى أمور شتى (ف ٧٨ ـ ٨١)

(د) جملة المختلفين من أهل الملة الإسلامية (ف ٨٢)

(هـ) رسالة اتفاق العدل بالقدر (ف ٨٣)

(و) فقرتان فى الروح (ف ٨٤ ـ ٨٥)

ولما تبينت أن القسم الأول منه رد على الكندى رجعت إلى رسائل الكندى فوجدت أن كتاب التوحيد المذكور هنا ليس إلا رسالة الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى ، ولا خلاف فى التسمية لأن اسم هذه الرسالة حسبما يذكر ابن أبى أصيبعة هو « كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد » وهى رسالة نشرت مرتين ، مرة بتحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (١٩٤٨) ومرة بتحقيق الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مع عدد من رسائل الكندى (١٩٥٠) . ومن المقارنة بين ما نقله مؤلف هذا الكتاب و بين رسائل الكندى وجدت النص متفقاً إلا أن مؤلف الرد كان يلخص العبارة أحياناً أو يعتمد الحذف وينتقى عبارات خاصة من رسالة الكندى ، وقد اخترت أن أقارن هذا الرد بالرسالة التى نشرها الدكتور أبو ريدة لأنه حافظ فى هوامشها على الأصل ، وهذا جدول بما أظهرته المقارنة :

ف ١ : رسالة الكندى إلى المعتصم فى الفلسفة الأولى : ٩٧

٢ : المصدر نفسه : ١٠١

٤ : المصدر نفسه : ١٠٤

٥ : المصدر نفسه : ١٠٦ ـ ١٠٧
٧ : » » : ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
٨ : » » : ١١١
١٠: » » : ١١١
١٣: » » : ١١٢
١٤: » » : ١١٢
١٧: » » : ١١٢ ـ ١١٣، ١١٤
٣٠: » » : ١٤٣ ـ ١٤٤

٥٧: يشير إلى قول الكندى ١٥٩ ـ ١٦٠ والواحد الحق إذن لا ذو هيولى ولا ذو صورة ولا ذو كمية ولا ذو كيفية ولا ذو إضافة ولا موصوف بشىء من باقى المقولات ولا ذو جنس ولا ذو فصل ولا ذو شخص ولا ذو خاصة . . . . . ألخ .

٦٩،٧٨: رسائل الكندى : ٢١٧ ـ ٢١٨

غير أن الفقرة ٤٧ من هذا الكتاب وهى نقل لبعض كلام الكندى ليس لها ما يوازيها فى المجموعة المنشورة من رسائله . فإذا كان المؤلف ينقل من رسالة الفلسفة الأولى فهذا دليل على أن الرسالة ناقصة وذلك شىء قد نبه عليه الدكتور أبو ريدة بقوله : « ومن أسف أن هذا هو كل ما عندنا من كتاب الكندى فى الفلسة الأولى ، ويظهر أن له بقية لأن المؤلف يقول فى آخر الفن الرابع إنه سيكمل الكلام بما يتلوه تلواً طبيعياً »[1] هذا وإن مؤلف الكتاب يشير إلى ردّ الكندى على الدهرية والمنانية ، فلعلّ ثمن رسالته فى التوحيد إنما شملت هذا الموضوع نفسه ، وقد ذكر ابن أبى أصيبعة للكندى الرسائل التالية مما يحسن أن يكون متصلا بكتاب التوحيد :

(١) رسائل الكندى . ٩٦

(١) رسالة فى الرد على المنانية

(٢) رسالة فى الرد على الثنوية

(٣) رسالة فى نقض مسائل الملحدين

وقد يكون الكندى عالج الردّ على المنانية والثنوية والملحدين فى غير موضع واحد من رسائله فمرة وصل الكلام فيه بكتاب التوحيد ومرة أفرد له رسائل مستقلة .

ولعلَّ أول شيء استوقفنى حين قرأت هذا الكتاب هو :

هل الكتاب من تأليف ابن حزم ؟ ذلك لأن الذى نسبه لابن حزم ظن أنه كتاب فى الرد على العلم الالاهى للرازى ، ولابن حزم كتاب يرد به على الرازى فى العلم الالاهى ذكره كثيراً فى كتاب الفصل وأشار إلى بعض مايحتويه . ولكن هذا كتاب آخر فى الرد على الكندى تليه رسائل وفصول لا تجمعها رابطة واحدة ، وليس فيه إشارة واحدة إلى ابن حزم نفسه إذ ابن حزم يصدر أقواله دائما بمثل : قال على ، أو قال أبو محمد . ولم يرد مثل هذا مرة واحدة فى الكتاب بل جاء فيه حيناً : قال محمد ، وحيناً قال الموحد . و إذا حسبنا أن أن « قال محمد » خطأ صوابه : قال (أبو) محمد ، وأن لفظة « أبو » قد سقطت سهواً من الناسخ لم نجد عبارة « قال الموحد » مما يستعمله ابن حزم فى كتبه ، ولم يشر أحد ــ فيما أعلم ــ إلى أن لابن حزم كتاباً فى الرد على الكندى أو رسالة فى اتفاق العدل والقدر ، ولم يشر ابن حزم نفسه إلى شيء من ذلك ، ومن عادته أن يسمى بعض كتبه فى مادة واحدة ، وقد كان من الممكن أن يشير إلى هذا الكتاب فى كتاب الفصل مثلا حيث عالج مسألة أسماء الله تعالى وصفاته وتحدث عن الدهرية وعن القدر ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث . ومن هنا نشأت الحيرة وثار التساؤل : من هو مؤلف هذا الكتاب ؟

وفى محاولتى الإجابة على هذا السؤال طرحت على نفسى سؤالا آخر وهو : هل أطلع ابن حزم على فلسفة الكندى ؟ و بعد البحث وجدت ما يؤيد وجود صلة بين بعض الأفكار عند كل منهما إلا أن ابن حزم لم يذكر الكندى - فيما أعلم - إلا فى نقل واحد فى كتاب الجمهرة [(١)] ؛ وهذه هى أهم مجالات الاتفاق بينهما :

١ - المصطلح المنطقى الذى استعمله ابن حزم فى كتاب التقريب شديد الشبه بالمصطلح المنطقى لدى الكندى .

٢ - يستعمل ابن حزم فى انكار الخلاء والملاء فى كتاب الفصل وكتاب التقريب نفس البرهان الذى يورده الكندى .

٣ - يرى ابن حزم أن ليس فى العالم جزء لا يتجزأ [(٢)] أصلا وللكندى رسالة فى بطلان قول من زعم أن جزءاً لا يتجزأ . فهما متفقان فى الفكرة ولكن لا ندرى إلى أى حد يتفقان فى طريقة البرهان لأن رسالة الكندى لم تصلنا .

٤ - ذهب ابن حزم إلى القول بأن الواحد ليس عدداً و برهانه على ذلك أن خاصية العدد أن يوجد عدد آخر مساو له وآخر ليس مساوياً له ، والمساواة هى أن تكون أبعاضه كلها مساوية له و بعضها غير مساو له [(٣)] وهذا مشبه لقول الكندى : « وإن كان الواحد كمية فخاصة الكمية تلحقه وتلزمه أعنى أنه مساو ولا مساو » و يستنتج الكندى أن الواحد إذن ليس عدداً و يقول : الواحد ليس بعدد بالطبع بل باشتباه الاسم [(٤)] ، و بنحو من هذا القول قال ابن

---

(١) الجمهرة : ١٠٩

(٢) الفصل ٥ : ٩٢

(٣) الأصول والفروع : ٨٥

(٤) رسائل الكندى : ١٤٦

حزم إذ يذهب إلى أن تسميته بالعدد أمر مجازى .

٥ ـ قال الـكندى : « وقد ينبغى ألا يطلب فى إدراك كل مطلوب الوجود البرهانى لأنه ليس كل مطلوب عقلى موجوداً بالبرهان لأنه ليس لـكل شىء برهان » و بمثل هذا يقول ابن حزم : « والمشاهدات التى لا يجوز أن يطلب عليها برهان ، إذ لو طلب على كل برهان آخر لاقتضى ذلك وجود أشياء لا نهاية لها وهذا محال »[١] . وكرر هذا الرأى فى كتاب التقريب .

٦ ـ تحديد البارى عز وجل عند كل منهما يكاد يتفق نصاً ، فيقول الـكندى : « ولا هو عنصر ولا جنس ولا نوع ولا شخص ولا فصل ولا خاصة ولا عرض عام ولا حركة ولا نفس ولا عقل ولا كل ولا جزء . . . ولا هو زمان ولا مكان ولا جوهر ولا عرض »[٢] . ويقول ابن حزم « والبارى عز وجل ليس فى مكان ولا هو جرم ولا جوهر ولا عرض ولا عدد ولا جنس ولا نوع ولا شخص ولا متحرك ولا ساكن فليس فى زمان و إنما هو حق فى ذاته موجود بمعنى أنه معلوم »[٣] .

٧ ـ استعمل ابن حزم رأى الـكندى فى أن الشىء لا يمكن أن يكون علة ذاته قال الـكندى : « فنقول إنه ليس ممكناً أن يكون الشىء علة كون ذاته . . لأنه لا يخلو من أن يكون أيساً وذاته ليس أو يكون ليساً وذاته أيس »[٤] وقد وضع ابن حزم بدل لفظى « أيس وليس » كلمتى موجود ومعدوم فقال : إما أن يكون أحدث ذاته وهو موجود وهى معدومة أو أحدث ذاته وهو معدوم وذاته موجودة أو أحدثها وكلاهما موجود أوأحدثها وكلاهما معدوم »[٥] .

---

(١) الأصول والفروع : ٦٤ ـ ٦٥
(٢) رسائل الـكندى : ١٦٠، ١٦١
(٣) الأصول والفروع : ٩٩
(٤) رسائل الـكندى : ١٢٣
(٥) الأصول والفروع : ٧٠

فإذا استأنسنا بصور التشابه بين آراء الكندى وابن حزم لم نستبعد أن يكون ابن حزم قد اطلع على رسائل الكندى فأخذ من أفكاره ما وافق مبادئه وأنكر عليه ما أنكره فى هذا الكتاب .

ومن المرجحات التى تقوى نسبة الكتاب إليه أن الفكرة الأساسية فى كتابه توافق الرأى الأساسى لابن حزم فى مسألة أسماء الله تعالى ، ومدار الردّ على الكندى أنه لايجوز لنا أن نسمى الله « علة » لسببين عقلى ونقلى . أما العقلى فهو أن العلة تفترض المعلول ولا تنفك عنه كما أن المعلول يفترض العلة ولا ينفك عنها . فالعلاقة بين العلة والمعلول علاقة إضافة . وقد أخطأ الكندى حين نفى الإضافة أولا عن الله ثم عاد يسميه علة « فالمعلول نوع لعلته والعلة أصل لمعلولها » ولا يمكن من هذا التأليف أن يوجد التضامن القائم بينهما ، إذن فان التضامن من محرك غيرهما ليس مثلهما لا محالة ، والله هو مبدع العلل وليس له مثل ، وليس هو لشىء علة ، إذ العلة فى العقول الصحيحة هى السبب المطبوع لكون المسبب لا محالة ، فالأول جل وعز لا سبب لأنه هو محدث الأسباب .

وأما السبب النقلى فلم يقف عنده المؤلف فى هذا الكتاب ولكنه ملموح من كلامه وهو أن لفظ العلة لايسمى به الله لأنه لايجوز لنا أن نطلق عليه اسماً غير وارد نصاً فى الأسماء التسعة والتسعين،وهذا ما وقف عنده ابن حزم فى كتاب الفصل فى مواطن متفرقة وكرره دون ملل فقال مثلا : « فمن وصف الله تعالى بصفة يوصف بها شىء من خلقه أو سماه باسم يسمى به شىء من خلقه استدلالا على ذلك بما وجد فى خلقه فقد شبهه تعالى بخلقه وألحد فى أسمائه وافترى الكذب ، ولا يجوز أن يسمى الله تعالى ولا أن يخبر عنه إلا بما سمّى به نفسه أو أخبر به عن نفسه فى كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أو صحّ به إجماع جميع أهل الإسلام المتيقن ولا مزيد[1] » .

(١) الفصل ٢ : ١٣٩ وانظر أيضاً ١ : ٣٩ ، ٢ : ١٦١

فالفكرة الأساسية فى هذا الرد متفقة تمام الاتفاق ورأى ابن حزم فى أسماء الله تعالى وصفاته كما أن هذه العبارة التى وردت فى الردّ وهى « من المقلوب قياس أمور خالقنا على قياس أنفسنا » إنما هى لب المفهوم العام الذى بنى عليه ابن حزم فكرته فى التنزيه وما تفرع عنه من مسائل ويكاد يقولها نصاً فى بعض المواطن من كتبه .

كذلك وصف قول داود القياسى « إن الله لم يزل متكلماً » بأنه مذهب مدخول يتفق وقول ابن حزم فى الفصل : « ومن قال إن شيئاً غير الله تعالى لم يزل مع الله عز وجل فقد جعل لله عز وجل شريكاً »(١) غير أنه حين قال : « ولكنا نقول إنه لم يزل متكلماً منذ خلق القلم ولا يزال إلى يوم القيامة » فذلك رأى لم يجىء فى كتاب الفصل .

وليس فى المناظرة التى دارت بين المؤلف وأحد الدهرية مما يستبعد نسبته إلى ابن حزم لأنها تشبه طريقته فى الجدل وهو يحدثنا أنه كان يناظر الدهرين .

وكل ما تقدم محاولة لتوضيح الأسباب التى تقوى نسبة هذا الكتاب إلى ابن حزم .

ومع ذلك فهنالك أمور أخرى ماتزال تبعد نسبة هذا الكتاب عنه ومنها أنه لم يذكر الكندى فى كتبه الأخرى ولم يشر إلى رد له عليه ، ولم يرد أى ذكر لهذا الكتاب عند أحد ممن ترجم لابن حزم ، وهذه وإن كانت أسباباً لاتقطع بشىء إلا أنها تقوى الجانب الذى ينفى نسبة الكتاب إليه . وهناك مسألة تحتاج شيئاً من التأمل وهى أن هذا الكتاب – فيما يبدو – جهد رجلين لا رجل واحد ، فقد جاء فيه « أخشى أن يكون هذا الكندى الشقى كان زنديقاً ، فإن كانت هذه بصيرته وإياها قصد فما أرى فى جهنم أسفل درجة منه ، فإن لم يكن قصدها

---

(١) الفصل ٣ : ٩

« والشيخ » دبرها على لسانه فهو معه فى أسفل السافلين فإذا لم تكن كلمة « والشيخ » محرفة ، فهاهنا شخص يلخص آراء الكندى و يرد عليها وشخص يعلق على ذلك تعليقاً آخر. فإذا كانت محرفة ووضعنا مكانها مثلا كلمة «الشيطان» صح أن الكتاب من جهد رجل واحد .

ومما قد يضعف نسبة الكتاب إلى ابن حزم عبارات وردت فيه استبعد صدورها عنه مثل :

١ ـ « فالعلم معرفه العلل والرسوخ فيه بقدر الرسوخ فيها » ـ فهذا لايقوله ابن حزم أبداً لأن العلم عنده يبطل العلل جملة أحياناً ، فقد أنكر هو العلل فى أحكام الشرائع .

٢ ـ « ونحن لانتمكن من صفة العلة التى من جهتها أخطأت الجهمية لأنه من الكلام فى الصفات العلى التى لم يبح لنا نبينا صلى الله عليه وسلم الكلام فيها ولا يتجاوزها علم القلوب » وهذا لايقوله ابن حزم لأنه يناقش أصحاب النحل فى أدق شبهاتهم دون تحرج كما يشهد بذلك كتاب الفصل .

٣ ـ « فالإمكان هى الإرادة هى الملك هى العرش وهو الغاية القصوى والنهاية العظمى والفصل الأكبر » ـ وهذا قول يشبه التفسير الباطنى ولا أرى له بابن حزم نسباً .

هذا وقد أكثر ابن حزم الحديث عن الجوهر والعرض فى كتبه فلم يقل إن الجوهر ينقسم قسمين روحانى وجسمانى والعرض ينقسم قسمين كذلك وتكلم عن المرجئة والخوارج والجهمية وليس ما فى كتبه مشابهاً لما جاء هنا ؛ وأشد من هذا وأبين كلامه عن « الروح » فالكلام عنها فى هذا الكتاب منقطع الصلة بكلامه عنها فى كتاب الفصل ، وأحسب الفصل الذى عقده المؤلف للكلام عن الروح فى هذا الكتاب شاذاً إذا قارناه بما جاء فى الفصل كذلك فإن فى هذا

الـكتاب حديثاً فذاً مدهشاً عن « الثنائية الـكونية » يستحق أن يكرر ، وابن حزم شغوف بترديد أفـكاره وتـكريرها ، فلو كان هذا من آرائه لبسطه وفصله فى مواضع أخرى .

وهذه كلها حجج تناهض ماقدمته من براهين على نسبة الـكتاب لابن حزم : فأيها يرجح الدارس ؟

على الرغم من قوة الأدلة فى الرأى الأول أرانى أرجح أن هذا الـكتاب ليس من مؤلفات ابن حزم . أما الاتفاق فى الآراء بين ابن حزم والـكندى فلا يثبت أن ابن حزم أخذ فلسفة الـكندى بطريق مباشر وإنما هو أخذ بعض الآراء الأرسطوطاليسية ، فالتقى فيها مع الـكندى نفسه وهناك جانب مانزال نجهله عن ابن حزم وتوضيحه يفيدنا فى هذا المقام وهو : أى الـكتب الفلسفية قرأ ؟ لقد حدثنا ابن تيمية أنه أخذ فى المنطق آراء بشر بن متى المنطقى و بسطها وحدثنا هو كيف قرأ كتاب العلم الإلاهى للرازى ورد عليه ، وقال لنا إنه لقى ثابت بن محمد الجرجانى أحد المشارقة الذين هاجروا إلى الأندلس ، ووصفه بالإلحاد مرة وقال فيه إنه أعلم من شاهدناه بهذا ــ أى التمـكن من علوم الأوائل ــ وسأله عن الجوهر الذى ليس بجسم ولا عرض .

وقرأ الفلسفة على أستاذه محمد بن الحسن المذحجى ووصفه ابن حزم أيضاً بأنه من أهل التمـكين فى علوم الأوائل[1] وأن كلامه فى هذه الأمور كلام من يقتدى به ، وقال الذهبى : أخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجى وأمعن فيه فبقى فيه قسط من نحلة الحـكماء[2] فصلته بالمذحجى فى الدراسات المنطقية

---

(١) الأصول والفروع : ٨

(٢) تذكرة الحفاظ ٣ : ١١٤٧

والفلسفية صلة قوية ولـكن لاندرى على وجه التحقيق ماهو الاتجاه الفلسفى الذى كان المذحجى آخذاً فيه .

هل هذا الـكتاب من تأليف المذحجى نفسه واطلع عليه ابن حزم وزاد فيه بعض تعليقات من لدنه ؟ هل هو مذكرات متفرقة كتبها ابن حزم فى دور مبكر أثناء طلبه الفلسفة ؟ هل هو من تأليف أحد الظاهرية الذين تابعوا ابن حزم فى مسألة الصفات والأسماء ؟ كل هذه فروض يصعب ترجيح أحدها ولـكن إن صح أن هذا الـكتاب من تأليف « محمد » المذحجى فإنه يكشف لنا عن أثر هذا الأستاذ فى ابن حزم تلميذه فى الفـكر الفلسفى والمصطلح وفى الناحية الـكلامية .

— ١ —

ردّ ابن حزم على ابن النغريلة اليهودي

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال أبو محمد على بن أحمد بن حزم رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وسلم تسليماً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

١ ـ اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم ، و بعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، و بجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم ، عن حياطة ملتهم التى بها عزّوا فى عاجلتهم و بها يرجون الفوز فى آجلتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا ، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء والحمية الملة الغراء ، ثم هم بعد مترددون بما يؤول إليه إهمال هذه الحال من فساد سياستهم والقدح فى رياستهم فللأسباب أسباب وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب .

وقد قال على بن العباس :

لا تحقرنّ سُبَيْبـاً　　كم جرَّ أمراً سُبَيْبُ

وقال أبو نصر بن نباتة :

فلا تحقرن عدواً رماك　　وإن كان فى ساعديه قصر

---

١٦ ـ لاتحقرن ... البيت : فى ديوان ابن الرومى : ١٨٣ (اختيار كامل كيلانى) // أمراً : نفعاً ، فى الديوان .

١٧ ـ أبو نصر بن نباتة : ترجمته فى اليتيمة ٢ : ١٤٣ (ط . دمشق) .

فإن السيوف تجذّ الرقاب   وتعجز عما تنال الإبر

لاسيما إن كان العدو من عصابة لا تحسن إلا الخبث مع مهانة الظاهر فيأنس المغتر إلى الضعف البادى ، وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر ، كاليهود الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة و إنما شأنهم الغش والتخابث والسرقة على التطاول والخضوع مع شدة العداوة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ــ و بعد فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للاسلام وأهله وذُوِّبَتْ كبده ببغضه الرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التى استمرت لعنة الله على الموقسمين بها . واستقر غضبه عز وجل [على] المنتمين إليها أطلق الأشَرُ لسانه ، وأرخى البطر عنانه ، واستشمخت لكثرة الأموال لديه ، نفسه المهينة ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة ، فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولا ، ثم بملكٍ ضعفةٍ ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عَوْداً ؛ فلما اتصل بى أمر هذا اللعين لم أزل باحثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرنى الله عز وجل عليه من نصر دينه بلسانى وفهمى ، والذب عن ملته ببيانى وعلمى ، إذ قد عدمها ، المشكى إلى الله عز وجل ووجود الأعوان والأنصار على توفية هذا الخسيس الزنديق المستبطن

---

١ ــ فلا تحقرن .... البيتان فى اليتيمة ٢ : ١٥٧ .

١ ــ اليتيمة : فإن الحسام يجز .

٤ ــ الحيل : كذا ولعله : الحول .

٧ ــ تقلى : تعلى .

١١ ــ توافر : نوافر .

١٣ ــ اغتراراً : اعتزازاً // بملك ضعفة : بملك ضعفه .

١٤ ــ مجانة : محانة

فى مذهب الدهرية فى باطنه ، المتكفن بتابوت اليهودية فى ظاهره ، حقَّه الواجب عليه من سفك الدماء واستيفاء ماله وسَبْيِ نسائه وولده ، لتقدُّمه طَوْرَهُ وخلعه الصَّغَار عن عنقه ، و براءته من الذمة الحاقنة دمه ، المانعة من ماله وأهله ، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل . فأظفرنى القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين ، فانتسخت الفصول التى ذكرها ذلك الراد عن هـذا الرذل الجاهل ، و بادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة بحول الله تعالى وقوته ؛ ولعمرى إن اعتراضه الذى اعترض به ليدل على ضيق باعه فى العلم ، وقلة اتساعه فى الفهم على ماعهدناه عليه [١٤٨ ط] قديماً ، فإننا ندريه عارياً إلا من المخرقة ، سليماً إلا من الكذب ، صفراً إلا من البهت ؛ وهذه عقو بة الله تعالى المعجلة لمن سلك مسلك هذا الزنديق اللعين مقدمةً ، أما ما أعد الله له ولأمثاله من الخلود فى نار جهنم [فهو] المقرُّ لعيون أولياء الله عز وجل فيه وفى ضرَبائه ، و بالله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٣ ـ الفصل الأول : فكان أول ما أعترض به هـذا الزنديق المستسر باليهودية ، على القرآن بزعمه أن ذكر [قول] لله عز وجل : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ (النساء : ٧٨) قال هذا المائق الجاهل : فأنكر فى هـذه الآية تقسيم القائلين بأن ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة فمن عند محمد ، وأخبر أن كل ذلك من عند الله ؛ قال : ثم قال فى آخر هذه الآية : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (النساء : ٧٩) قال هذا الزنديق الجاهل : فعاد مصوِّباً لقولهم ومضاداً لما قدّم فى أول الآية .

٤ ـ قال أبو محمد بن حزم : لو كان لهذا الجاهل الوقاح أقلّ بسطة أو أدنى

---

٣ ـ الحاقنة : الخافتة .

حظ من التمييز لم يعترض بهـذا الاعتراض الساقط الضعيف ، والآية المذكورة مكتفية بظاهرها عن تكلف تأويل ، مستغنية ببادى ألفاظها عن تطلب وجه لتأليفها ، ولـكن جهله أعمى بصيرته وطمس إدراكه . وبيان ذلك أن الـكفار كانوا يقولون : إن الحسنات الواصلة إليهم هى من عند الله عز وجل وأن السيئات المصيبة لهم فى دنياهم هى من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك ، وبين وجه ورود حسنات الدنيا وسيئاتها على كل من فيها بأن الحسنات السارة هى من من عند الله تعالى بفضله على الناس ، وأن كل سيئة يصيب الله تعالى بها إنساناً فى دنياه فمن [١٤٩ و] قبل نفس المصاب بها بما يجنى على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى الذى لايقوم به أحد . وكل ذلك من عند الله تعالى جملة ، فأحد الوجهين وهو : الحسنات فضل من الله تعالى مجرد لم يستحقه أحد على الله تعالى إلا حتى يفضِّل به عز وجل من أحسن إليه من عباده والوجه الثانى وهو السيئات تأديب من الله تعالى أوجبه على المصاب بهـا تقصيره عما يلزمه من واجبات ربه تعالى .

٥ ــ ولا يستوحشنَّ مستوحش فيقول : كيف يكون النبى صلى الله عليه وسلم المخاطب بهذا الخطاب مُقَصِّرًا فى أداء واجب ربه تعالى ؟ فليعلم أن التقصير ليس يكون معصية فى كل وقت وإنما يكون النبى عليه السلام منزهاً عن تعمد المعصية صغيرها وكبيرها . وأما تأدية شكر الله تعالى وجميع حقوقه على عباده فهذا مالا يستوفيه مَلَكٌ ولا نبى فـكيف مَنْ دونهما ، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم لا يدخل الجنة بعمله » فقيل له : ولا أنت يارسول الله ؟ فقال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » ، أو كما قال عليه السلام .

---

٥ ــ لهم : إليهم .

١٠ ــ فأحد الوجهين : إلا لوأحد الوجهين .

١٤ ــ يستوحشن : يستوحش .

١٩ ــ ٢٠ : إن أحدكم .... ليس أحد يدخل ، الفائق ٢ : ٢٣٦ .

٦ ـ فإنما أنكر الله تعالى على الكفار فى الآية المتلوّة آنفاً قولهم للنبى عليه السلام : إن ما أصابهم من سيئة فهى منك يا محمد ، وأخبر عز وجل أنها من عند أنفسهم ، وأن كل ذلك من عند الله تعالى ؛ فلم يفرّق المجنون بين ما أوجبه الله تعالى من أنّ كلّ من أصابته سيئة فمن نفسه ، وبين ما ذكر الله تعالى من قول الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن ما أصابهم من سيئة فمنك يا محمد . فأى ظلم يكون أعظم مِنْ ظلم مَنْ جهل أن يفرِّق بين معنيي هذين اللفظين ؟

٧ ـ وإنما كان الكفار يتطيرون بمحمد صلى الله عليه وسلم عندما يَرِدُ عليهم من نكبة تعرض لهم بكفرهم وخلافهم له عليه [١٤٩ ظ] السلام ، كما تطيَّر إخوانهم قبلهم بموسى صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى حاكياً عنهم قولهم : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر ، وَسُكْرَ عُجْبِ الصغير إذا كبر ، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع ، والسفليّ إذا أمر وشط ، والكلب إذا دُلِّلَ ونشط ، فإن لهذه المعانى مسالك خفية فى إفساد الأخلاق التى تقرب من الاعتدال . وكيف بخلق سوء متكرر فى الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهانة ؟

ولله در القائل :

(إذا أنت أكرمت الكريم ملكته) وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

---

٩ ـ تعرض لهم : تعرضهم .
١٣ ـ إذ : إذا .
١٩ و ٢٠ ـ إذا أنت أكرمت ... التبيان : ديوان المتنبى .

وهذا الذى قلنا هو المفهوم من نص الآية دون تزيُّدٍ ولا انتقاصٍ ولا تبديلِ لفظٍ ، والحمد لله رب العالمين كثيراً .

٨ ـ ولكن لو تذكر هذا المائق الجاهل مايقرأونه فى كفرهم المبدّل وإفكهم المحرَّف بأخرق تحريف وأنتن معازٍ ـ حاشا ماخذلهم الله تعالى فى تركه على وجهه ليبديَ فضائحهم ، فأبقوه تخبيثاً من الله تعالى لهم ليكون حجة عليهم ، من ذكر عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ـ فى كتابهم الذى يسمونه : «التوراة» إذ يقولون فيه فى السفر الرابع عن موسى صلى الله عليه أنه قال مخاطباً لله عز وجل : « يارب كما حلفتَ قائلا : الرب وديع ذو حن عظيم يعفو عن الذنب والسيئة وليس ينسى شيئاً من المآثم ، الذى يعاقب بذنب الوالد الولد فى الدرجة الثانية والرابعة » . ويقرأون فيه أيضاً فى أول السفر الأول : « إن قاين ابن آدم عاقبه الله فى السابع من ولده » ثم يقرأون فى الكتاب المذكور نفسه فى السفر [١٥٠ و] الخامس منه : « إن الله تبارك وتعالى قال لموسى : لاتقتل الآباء لأجل الأبناء ، ولا الأبناء لأجل الآباء ، ألا كل واحد يُقْتَلْ بذنبه » ـ فلو تفكر هذا الجاهل المائق وعظيم التناقض لشغله عظيم مصابه عن أن يظن بقول الله تعالى الذى هو الحق الواضح الواحد غير المختلف : ﴿ قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وهذا قد بيَّنَّاه كما مَرَّ آنفاً أنه لامجاز للتناقض فيه أصلا ، وإنما التناقض المحض

---

٧ ـ ٩ : عدد ١٤ : ١٧ ـ ١٨ « فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لايبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع » .

١٠ ـ ١١ : ان قاين ولد آدم ...الخ : ليس هذا كذلك فى (ع) التكوين ٤ : ٢٤ وفيه : لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه.وقد أخبرنى الدكتور عبد المجيد عابدين بأن النص العبرى يعنى سبعة أضعاف حيثما ورد فى أسفار العهد القديم .

ما نسبوا إلى موسى عليه السلام من أنه قَدّر بربه أنه يغفر الذنب لفاعله ، ويعاقب بذلك الذنب من كان من ولد المذنب فى الدرجة الرابعة ، ثم يقول فى مكان آخر : أن لاتقتل الأبناء لأجل الآباء ولا الآباء لأجل الأبناء ، هذا مع إقرارهم بأنه ليس فى التوراة ذِكْرُ عذابٍ ولاجزاء بعد الموت أصلا ، وإنما فيها الجزاء بالثواب والعقاب فى الدنيا فقط ، فهذا هو التناقض المجرد الذى لاخفاء به ، وبالله تعالى التوفيق .

٩ ــ الفصل الثانى : وكان مما اعترض به أيضاً أن ذكر الله تعالى : ﴿ أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها﴾ ،[النازعات : ٢٧ — ٣٢] قال : فذكر فى هذه الآية (أن) دَحْوَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها كان بعد رفع سمك السماء وبعد بنائها وتسويتها وإحكام ليلها ونهارها ، ثم قال فى آية أخرى : ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم ﴾ [البقرة : ٢٩] قال: فذكر (فى) هذه الآية ضدَّ ما فى الأولى ، وذلك أن هذه التسوية للسماء كانت بعد خلق مافى الأرض .

١٠ ــ قال أبو محمد : والقول فى هذا كالقول [١٥٠ ظ] فى التى قبلها ولا فرق وهو : أن بظاهر هاتين الآيتين يُكْتَفَى عن تطلب تأويل أو تكلف مخرج . وهو : أنه تعالى ذكر فى الآية التى تلونا أولا أنه عز وجل بنى السماء ورفع سمكها وأحكم الدور الذى به يظهر الليل والنهار ، وأنه بعد ذلك أخرج ماء الأرض ومرعاها وأرسى الجبال فيها . وذكر تعالى فى الآية الأخرى أن تسويته تعالى السموات سبعاً وتفريقه بين تلك الطوائف السبع التى هى مدار الكواكب المتحيرة والقمر والشمس كان بعد خلقه كل مافى الأرض . فلم يفرق هذا الجاهل المائق بين قوله تعالى : إنه سوى السماء ورفع سمكها وبين قوله تعالى : إنه سوّاهنّ

سبع سموات . فهل بعد هذا العمى عمى ، و بعد هذا الجهل جهل ؟

١١ ـ و إنما أخبر تعالى أن تسوية السماء جملة واختراعها كان قبل دحو الأرض وأن دحوه الأرض كان قبل أن تقسم السماء على طرائق الكواكب السبع ، فلاح أن الآيتين متفقتان يصدق بعضهما بعضاً . ولكن ليذكر هذا الجاهل على ما يفتتحون به كذبهم المفترى وبهتانهم المختلق الذى يسمونه « التوراة » إذ يفترون أن الله تعالى خلق إنساناً مثله ، ولم يكن انفرد عنه تعالى إلا بشيئين: علم الشر والخير، ودوام الخلود والحياة ، وأن آدم صلوات الله وسلامه عليه أكل من الشجرة التى فيها علم الخير والشر ، فلما خالفه عظم ذلك عليه ؛ قال: هذا آدم أكل من الشجرة التى بها يكون علم الخير والشر فساوانا فى ذلك ، فإن أكل من شجرة الحياة حصل على الخلد فكان مثلنا لا فضل لنا عليه ، فجعل يخرجه من الجنة وفى يده سيف يذود به عن شجرة الحياة . حتى لقد انسخف جماعة من نوكاهم إلى أن قالوا : إن الخالق لآدم كان إنساناً من نوع الإنس الذى نحن منه ، حصل على [١٥١ و] أكل شجرة الحياة فزاد بهاؤه وحصل له الخلد . فلو أن هذا الخسيس الجاهل تبرأ إلى الله تعالى من المظاهرة لهذا الوضع وهذا الاعتقاد الساقط لكان أحظى له. ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يجعل له الخزى والمهانة ، و يؤجل له الخلود بين أطباق النيران المعدة له ولأمثاله ولأشباهه والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

١٢ ـ الفصل الثالث : وكان مما اعترض به أيضاً أنْ ذَكَرَ قَوْلَهُ عز وجل

---

١١ ، ١٢ ـ لقد انسخف : إذا انسخف // نوكاهم : نوكائهم

١٣ ـ فزاد : فدار

١٣ ـ فلو أن : قالوا إن

٦ ـ ١١ ـ انظر سفر التكوين ٢ : ٩ ، ٣ : ٢٢

١٨ : الثالث : السادس

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ إلى منتهى قوله فى الآية نفسها ﴿ وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ [فصلت : ١٠] قال : فذكر فى هذه الآية خلق الأرض فى يومين وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، فهذه ستة أيام ، ثم ذكر قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ [فصلت : ١١] إلى منتهى قوله تعالى ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ [فصلت : ١٢] . ثم ذكر قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ [ق : ٣٨] .

١٣ ــ قال أبو محمد : والقول فى هذه الآية كالقول فى التى مضى فيها الكلام ولا فرق ، وهى أنها تكتفى بظاهرها عن تكلف تأويل لها ، وأنه لا يُظَنُّ فى شىء من هذا كلِّه اختلافاً إلا عديمُ العقل سليبُ التمييز مطموسُ عين القلب ظليم الجهل ، لأنه تعالى إنما ذكر خَلْقَ الجميع من السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، فسَّر لنا تعالى تلك الأيام الستة ، فمنها يومان خلق فيهما الأرض ومنها أربعة أيام قدر فى الأرض أقواتها ، وأنه تعالى قضى السموات سبعاً فى يومين ، وقد صح بما تَلَوْنَا قبل أن تسويته تعالى السموات سبعاً كان بعد خلقه لما فى الأرض جميعاً ، فاليومان اللذان خلق الله تعالى فيهما السموات سبعاً هما اليومان الآخران من الأربعة [١٥١ ظ] الأيام التى قدر فيها أقوات الأرض لأن التقدير هو غير الخلق ، لأن الخلق هو الاختراع والإبداع وإخراج الشىء من ليس إلى أيس بمعنى من لاشىء إلى أنه يكون شيئاً موجوداً . وأما التقدير فهو الترتيب وإحكام الأشياء الموجودات بعد إيجادها ، وهذه معان لايعلمها إلا من أعز الله تعالى نفسه من ذوى الهمم الرفيعة ، المترفعة عن مهانة الإساءة ودناءة المعايش ، القاصدة إلى طلب المعانى الفاضلة والحقائق المؤدية إلى

---

١٢ ــ فيهما : فيها

٢١ ــ القاصدة : غير منقوطة فى ص // الفاضلة : الفاصلة

معرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم، والدخول فى ظل الإسلام والملة الحنيفية المصحبة من الله تعالى السعدَ فى الدنيا والنصرةَ والعزةَ ، المتكفل لها فى الآخرة بالفوز بالجنة والقبول والرضوان والريحان ، والحمد لله رب العالمين الذى جعلنا من أهلها ، و إياه تعالى نسأل أن يميتنا عليها حتى نلقاه وهو راض عنا، آمين. وأما من لم يقطع دهره إلا بالسرقة ولا أفنى عمره إلا بالخيانة والغش فبعيد عن إدراك هذه المعانى وفهمها .

١٤ ـ وليت شعرى أين كان هذا الخسيس المائق إذ اعترض بهذا الاعتراض على هذه الأنوار الساطعة والحقائق الظاهرة عن التفكر فيما يقرأونه فى هذيانهم المخترع وزورهم المفتعل الذى يسمونه « التوراة » إذ يقولون : إن الله تعالى خلق الخلق فى ستة أيام ، استراح فى اليوم السابع ؟ وهل تكون الراحة إلا لتعب ونصب قد خارت قواه وضعفت طبيعته؟ فمثل هذا وشبهه من دينه الخسيس الذى يستسِرُّ به لو تهمّم بالفكرة فيه ثم بادر إلى التوبة منه والدخول فى دين الله تعالى الذى لادين له سواه ، الذى به بدا الملك على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله رب العالمين [١٥٢ و] .

١٥ ـ الفصل الرابع : ثم ذكر الخسيس الجاهل قول الله تعالى ﴿ هذا يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٥] ثم قال فى آية أخرى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ [النحل : ١١١] قال : وهذا تناقض عظيم .

١٦ ـ قال أبو محمد : قد قال بعض العلماء المتقدمين : إن المنع من النطق المذكور فى الآية إنما هو فى بعض مواقف يوم القيامة ، وأن الجدال المذكور فى

---

٩ ـ ١٠ إذ يقولون إن الله تعالى خلق ... الخ ؛ انظر التكوين ٢ : ١

١٢ ـ يستسر . يتسر

الآية الأخرى هى موقف آخر مما يتلو ذلك اليوم نفسه . وهذا قول صحيح يبينه قول الله تعالى قبل الآية المذكورة ، إذ يقول عز وجل : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولا يغنى من اللهب * إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالات صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [٢٩ ـ ٣٦] فيه بعذر . هكذا نص الآيات متتابعات ، لافصل بينها فيصح أن اليوم الذى لا ينطقون فيه بعذر إنما هو يوم إدخالهم النار ، وهو أول اليوم التالى ليوم القيامة الذى هو يوم الحساب ، وهو أيضاً يوم جدالِ كلِّ نفسٍ عن نفسها ؛ وهذا بيان لا إشكال فيه أصلا .

١٧ ـ وها هنا وجه آخر وهو اتباع ظاهر الآيتين دون تكلف تأويل إلا أن يأتى بالتأويل نص آخر أو إجماع من جميع الأمة كلها مابين الأشبونة والقندهار والشحر وأرمينية والمولتان . فنقول وبالله نستعين : إن هاتين الآيتين بيِّنتان لا اختلاف بينهما أصلا ، وإن النطق المنفى عنهم فى الآية الأولى والمعذرة التى لم يؤذن لهم فيها إنما ذلك فيما عصوا فيه خالقهم تعالى ، كما قال عز وجل فى آية أخرى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ [يس : ٣٥] فلا عذر لكافر ولا لعاصٍ أصلاً ولا كلام لهم . وأما الجدال الذى ذكر الله تعالى حينئذ عن نفسها فإنما هو فى طلب الناس مظالمهم [١٥٢ ظ] بعضهم من بعض، فإن الله تعالى لا يضيع شيئاً من ذلك ، على ماصح عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن يوم القيامة يقص الشاة الجماء من الشاة القرناء . وبيان هذا الذى قلنا أن المعذرة إنما هى إلى الله تعالى، ولا عذر يوم القيامة لمن كفر

---

٤ ـ جمالات : هذه هى قراءة أبى عمرو

٦ ـ بينها : بينهما

٨ ـ وهو أيضاً . وهو الذى أيضاً

١٠ ـ ١١ : فى إعجام الأعلام الواردة هنا اضطراب فى ص

١٣ ـ كما : عما

بالله تعالى أو بنبيّ من أنبيائه ، وخالف الإسلام . وهذا هو الذى يكون يوم القيامة ولا يعذر عليه أحد . وإنما هو مصدر جادل يجادل جدالا ، وجادل هو فعل من فاعلين لاينكر أحد هذا من أهل اللغة ، فالله تعالى لايجادِل ، و إنما يجادل الناس بعضهم بعضاً ، فكل أحد حينئذ يجادل من ظلمه ليقتص منه وهذا مالا يَعْرَى منه مؤمن ولا كافر ، فاستبان (معنى) الآيتين بظاهرهما دون تكلف تأويل ، و بطل ماظنه هذا الجاهل ،والحمد لله رب العالمين .

١٨ ـ قال أبو محمد :ليس فى حماقاتهم المبدّلة التى يسمونها « التوراة » ذكر أجر ولا ثواب لمحسن بعد الموت ولا عقاب لمسىء فى الدنيا أصلاً ولا فى الكتب التى ينسبونها إلى أنبيائهم من هذا قليل ولا كثير . فلو نظر هذا المجنون فيما ينسبونه إلى سليمان عليه السلام فى تصويبه دعاء امرأة دعت له فقالت : ولا زالت أرواح أعدائك يدور بها الفلك ، وهذا إبطال الثواب والعقاب إلا على معنى التناسخ ومضا (د) لما ذكروه عن غيره من الأنبياء إن هنالك ناراً ونعيماً ؛ ومثل ماينسبونه إليه أيضاً عليه السلام من أنه قال مرة : « إن العالم لا أول له » وأنه قال مرة أخرى : « أنا كنت مع الله تعالى حين خلق الأرض والسماء » . فلو أن هذا الجاهل الشقى اشتغل بمثل هذا وشبهه من كذبهم وافترائهم لكان أولى به من تكلف مالا يحسن ولا يدرى ، مما قد فضحه الله فيه عاجلا ، ويخزيه [١٥٣و] آجلاً والحمد لله رب العالمين .

١٩ ـ الفصل الخامس : ثم ذكر هذا الزنديق الجاهل قول الله تعالى ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : ٣٩] قال : ثم قال فى آية أخرى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ [الأعراف : ٦] قال : وهذا تناقض .

---

٨ : التى : الذى .
١٦ : فضحه : نصحه .

٢٠ ـ قال أبو محمد : لو فهم هذا المائق الجاهل أدنى فهم لم يجعل هـذا تعارضاً أما قوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ فإن (ما) بعد هذه الآية متصلا بها قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تـكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام * فبأى آلاء ربكما تـكذبان * هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها و بين حميم آن * فبأى آلاء ربكما تـكذبان ﴾ [الرحمن ٤٠ ـ ٤٥] فصح بهذا النص أن هذا إنما هو فى حين إيرادهم جهنم التى هى إن شاء الله دار هـذا الخسيس ذى الظهارة اليهودية والبطانة الدهرية ولا (ريب) فى أنه إذا أخذ بناصيته وقدميه ليهوى بها فى النار ، نار جهنم ، فإنه لا يسأل عن دينه يومئذ . وأما قوله تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ ، فإنما ذلك فى أول وقوفهم يوم البعث وحين المسألة والحساب . فارتفع التناقض الذى لا مدخل له فى شىء من القرآن ولا فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم .

٢١ ـ ولـكن هذا الوقاح المجنون لو تدبر ما فى كذبهم المفترى الذى يسمونه « التوراة » فى السفر الثانى منه أن الله تعالى قال لموسى بن عمران : إنى أرى هذه الأمة قاسية الرقاب دعنى لأعقب غضبى عليهم لأهلـكهم وأقدمك على أمة عظيمة . ثم ذكروا أن موسى عليه السلام دعا ربه تعالى وقال فى دعائه : تذكر إبراهيم وإسرائيل وإسحق عبيدك الذين حلفت لهم بذلك وقلت لهم سأكثر ذريتـكم حتى تـكونوا كنجوم السماء وأورثهم جميع الأرض التى وعدتهم بها ويملـكونها أبداً فحنّ [١٥٣ ظ] السيد ولم يتم ما أراده إنزاله بأمته من المـكروه .

---

١٧ ـ ٢٠ : اذكر ابرهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر من نسلـكم كنجوم السماء وأعطى نسلـكم كل هذه الأرض التى تـكلمت عنها فيملـكونها إلى الأبد ؛ فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه : (خروج ٣٢ : ١٣ ـ ١٤) .

٢٢ ـ قال أبو محمد : هذا نص هذا الفصل عندهم . وهذه صفة لا يوصف بها الإنسان ضعيف النفس ، وفيه البداء ، وأنه تعالى لم يتم ما أراد أن يفعل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٢٣ — وفى السفر المذكور إثْرَ هـذا أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : «من أذنب عندى سأمحوه من مصحفى ، فاذهب أنت وهذه الأمة التى عهدت إليك فيها ، وسيتقدمك ملك» . ثم بعد شىء يسير ذكر أن الله تعالى قال لموسى : «اذهب واصعد من هـذا الموضع أنت وأمتك التى خرجت من أرض مصر إلى الأرض التى وعدتُ بها مقسماً لإبراهيم وإسحق ويعقوب لأورثها نسلهم وأبعث بين يديك ملـكاً لإخراج الـكنعانيين والأموريين والبرزيين والحيثين واليبوسيين ، وتدخل فى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، لست أنزل معكم لأنكم أمة قاسية الرقاب لئلا تهلك بالطريق . فلما سمع العامة هـذا الوعيد الشديد عجَّت تبكى ولم تأخذ زينتها . فقال لموسى بن عمران : قل لبنى إسرائيل أنتم أمة قد قَسَتْ رقابكم ، سأنزل عليكم مرة أهلـككم فضعوا زينتكم لأعلم ما أفعله بكم . ذكروا جواب موسى عليه السلام لله تعالى على هذا الـكلام فقال : وكان يكلم السيدُ موسى عليه السلام فماً لفم ، كما يكلِّمُ المرء صديقه ، فقال موسى بن عمران للسيد : أتأمرنى أن أقود

---

٩ ـ اليبوسيين : اليوشيين .

١٠ ـ تفيض : تفى .

١١ ـ عجت تبكى : عجب تيه .

١٢ ـ قست : قسمت .

١٥ ـ فاًلفم كما : فما يفهم ما

٤ ـ ١٥ : وقال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذى أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التى حلفت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها ؛ وأنا أرسل أمامك ملاكا وأطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبنا وعسلا فإنى لا أصعد فى وسطك لأنك شعب صلب الرقبة لئلا أفنيك فى الطريق . =

هذه الأمة ولا تأمرنى ما أنت باعثه معى . فقال له السيد : سيقدمك وجهى وأروح عندك . فقال موسى عليه السلام : إن لم تتقدمنا أنت فلا ترحلنا مع من هذا الموضع ، وكيف أعرف أنا وهذه الأمة أنك عنّا راضٍ إذا لم تنطلق معنا ونتشرف بذلك على جميع من سكن الأرض من الأجناس ؟ فقال له : سأفعل ما قلت لأنى عنك راض :

٢٤ ــ قال أبو محمد : ففى هذا الفصل من السخف [١٥٤ و] غير قليل ، وبيان لا يحتمل تأويلاً ، لأن فيه البداء ، وأنه تعالى عما يقولون علواً كبيراً ، قال إنه لا يمضى معهم لكن يبعث معهم ملكاً يبصِّرهم بأمر الله تعالى ، فلم يزل به موسى حتى رجع عن ماقال عز وجل وقال : سأمضى معكم ، ولم يقنع موسى بمسير المَلَك معهم إلا بمسير البارى عز وجل معهم . وفى هذا تحقيق النقلة على البارى فى الأماكن ، وليست هذه صفة الله تعالى وإنما هى صفات المخلوقين ؛ وفيه التكليم فمًا لفم وتحقيق التجسيم والتناقض على البارى تعالى فى كلامه وفعله ، دون تأويل . ولا مخرج لهم من هذا .

٢٥ ــ فلو فكر هذا الوقاح الزنديق فى مثل هذا وشبهه لزجره عن التعرض لما لا سبيل له إليه وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل . ولو أن هذا الزنديق المائق

= فلما سمع الشعب هذا الكلام السوء ناحوا ولم يضع أحد زينته عليه . وكان الرب قد قال لموسى : قل لبنى إسرائيل أنتم شعب صلب الرقبة إن صعدت لحظة واحدة فى وسطكم أفنيتكم ولكن الآن اخلع زينتك عنك فأعلم ماذا أصنع بك . . . . ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه . . . وقال موسى للرب : انظر ، انت قائل لى أصعد هذا الشعب وأنت لم تعرفنى من ترسل معى وأنت قد قلت عرفتك باسمك . . . . فقال وجهى يسير فأريحك فقال له إن لم يسر وجهك فلا تصدنا من ههنا فإنه بماذا يعلم أنى وجدت نعمة فى عينيك أنا وشعبك . أليس بمسيرك معنا . فنمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . فقال الرب لموسى : هذا الأمر أيضاً الذى تكلمت عنه أفعله لأنك وجدت نعمة فى عينى وعرفتك باسمك (خروج ٣٣ ــ ١ ــ ١٧).

٧ ــ تأويلا . تأويل .

١٤ ــ لزجره : جرجره .

كان له أقلّ تحصيل ، لما أقدم على المظاهرة بهذا الدين الخسيس طرفة عين ولـكنه لم يقره الشيطان من كل ما استبان له من هذا البهتان إلا انسلاخه من جميع الأديان وبالله تعالى نعوذ من الخذلان .

٢٦ ـ الفصل السادس : ثم ذكر هذا الزنديق الجاهل قول الله تعالى مخاطباً لنبيه عليه السلام : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك الـكتاب فاسأل الذين يقرءون الـكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك ﴾ ، [يونس : ٩٤] قال هذا المجنون : فهذا محمد كان فى شك مما ادّعاه .

٢٧ ـ قال أبو محمد : كان يلزم هذا الخسيس أن لا يتكلم فى لغة لا يحسنها ، ولـكن أبى الله تعالى إلا أن يكشف سوءته ويبدى عورته . وليعلم أنّ (إنْ) فى هـذه الآية ليست التى بمعنى الشرط ، لأن من المحال العظيم الذى لا يتمثل فى فهم من له مسكة أن يكون إنسان يدعو إلى دين يقاتل عليه وينازع فيه أهل الأرض ويدين به أهل البلاد العظيمة ثم يقول لهم : إنى فى شك مما أقاتلـكم عليه أيها المخالفون [١٥٤ ظ] ولستُ على يقين مما ادعوكم إليه وأحققه لـكم أيها التابعون ، إلى مثل هذا السخف الذى لا يتصور إلا فى مثل دماغ هذا المجنون الجاهل . وإنما معنى « إن » هاهنا الجحد فهى هنا بمعنى « ما » وهـذا المعنى هو أحد موضوعاتها فى اللغة العربية ، كما قال تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم

---

١ : المظاهرة : الظاهرة .

٥ ، ٦ : فإن كنت فى شك . . . الآية : انظر الأقوال فى تفسيرها . فى تفسير الطبرى ١١ : ١١٥ ـ ١١٦ وليس فيه أن « إن » هنا نافية بمعنى « ما » . وقال أبو حيان فى البحر ٥ : ١٩١ : الظاهر أن إن شرطية، وروى عن الحسن والحسين بن الفضل أن « إن » نافية ؛ وبهذا يأخذ ابن حزم .

٨ : الخسيس : الخسيف . ولعلها أيضاً : السخيف .

١١ : فيه : فى

١٦ : آمراً : أمر

أن يقول : ﴿ إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون ﴾ ، [الأعراف : ١٨٨] بمعنى : ما أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون ، كما ذكر الله عز وجل عن الأنبياء أنهم قالوا : ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ ، [ابراهيم : ١١] وكما قال تعالى مخبراً عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام فقلن : ﴿ إن هـذا إلا ملك كريم ﴾ ، [يوسف : ١٦] بمعنى : ما هـذا إلا ملك كريم ، وكما قال تعالى : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ ، [الأنبياء : ١٧] أى ما كنا فاعلين . فعلى هذا المعنى خاطب نبيه عليه السلام : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، ثم قال تعالى فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك بمعنى ولا أعداؤك الذين يقاتلونك من الذين أوتوا الكتاب من قبلك ما هم أيضاً فى شك مما أنزلنا إليك بل هم موقنون بصحة قولك وأنك نبىّ حق ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا شك عندهم فى أن الذى جاءك الحق . ومثل هذا أيضاً قوله تعالى : ﴿ و إن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ ، [ابراهيم : ٤٦] تهويناً له ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ ، [الزخرف : ٨١] بمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أول الجاحدين لا يكون له ولد . فوضح جهل هذا المعترض وضعف تمييزه ، والحمد لله رب العالمين .

٢٨ ـ ولو أن هـذا الجاهل الأنوك تدبّر ما فى باطلهم المبتدع وهُجْرَهم الموضوع الذى يسمونه « توراة » إذ يقول : إن موسى عليه السلام راجع ربه إذ أراد إرساله وقال : من أنا [١٥٥ و] حتى أمضى إلى فرعون ، أرسل من تريد

---

٢ ـ ما : إن

١٣ ـ تهويناً : هويناً

١٨ ـ ارساله : رساله

١٨ ـ حتى أمضى : حتى أنه يمضى

١٨ ـ فقال موسى لله : من أنا حتى أذهب ، إلى فرعون ، وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر

ترسل . وأغضب ربه تعالى بذلك، وأن يعقوب عليه السلام صارع ربه ليلة بتمامها وهو لا يعرف من هو،فلما انسلخ الصباح عرف أنه الله ، تعالى الله عن هذا الحمق من الكفر علواً كبيراً ، قالوا : فلما عرفه أمسكه فقال له ربه : أطلقني . فقال له يعقوب : لا أطلقك حتى تبارك عليّ . فقال له ربه : كيف لا أبارك عليك وأنت كنت قوياً على الله فكيف على الناس ! ثم مسّ مأبضه ، فعرج يعقوب من وقته فكذلك لا يأكل بنو إسرائيل من عروق الفخذ لأن الله تعالى مَسَّه . ولا يجرؤ منهم أحد فيقول : إن المصارع ليعقوب كان ملكاً ، فإن لفظ اسم المصارع له فى توراتهم « إلوهيم » وهذا هو اسم الله تعالى وحدُه بالعبرانية ــ فلو أن هذا الجاهل تفكر فى مثل هذا وشبهه لعلم أن الحق بأيدى غيرهم وأنهم فى باطل وغرور وعلى ضلال وزور والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله تعالى .

٢٩ ــ الفصل السابع : ثم ذكر هذا المائق الجاهل قوله تعالى فى وصف العسل : إن فيه شفاء للناس ، فقال : وكيف هذا وهو يؤذى المحمومين وأصحاب الصفراء المحترقة ؟

٣٠ ــ قال أبو محمد : لو كان مع هذا الجاهل الأنوك أقل معرفة بطبائع الإنسان أو فهم مخارج اللغة العربية لم يأت بهذا البرسام . أما اللغة فإن الله تعالى لم يقل : العسل شفاء لكل علة ، وإنما قال تعالى : فيه شفاء للناس ؛ وهذا لا ينكره إلا رقيع سليب العقل والحياء أو موسوس ، لأن منافع العسل وشفاءه فى إسخان المبرودين وتقطيع البلغم وتقوية الأعضاء حتى صار لا يطبخ أكثر الأشربة إلا به ولا يعجن جميع اللعوقات إلا به ، وما وصف جالينوس وبقراط ،

---

١ ــ وأن يعقوب صارع ربه ... الخ : انظر أيضاً الفصل ١ : ١٤١

٥ ــ مأبضه : ماء بضه

٦ ــ يجرؤ : يجره

٩ ــ وعلى : على

وهما عميدا أهل الطب ، طبخ شیء من الأشربة إلا به جملة ، وما ذكرا قط [١٥٥ ظ] أن يطبخ شراب بسكر .

٣١ ــ وكيف ينكر هـذا الأنوك أن يكون العسل شفاء محضاً ، وهي أغلب أموره ، فكيف أن يكون به شفاء ، وهم يصفون عن نبي من أنبيائهم أنه شفى أَكلَةً فى عضو إنسان بتين مدقوق وجعله عليه ؟ فإذا كان فى التين شفاء من بعض العلل فكيف ينكر هذا الخسيس أن يكون فى العسل أشفية كثيرة ؟ وقد وجدنا فى اختلاطهم الذى يسمونه « توراة » عن الله تعالى فى عدة مواضع أنه إذا بلغ الغاية فى مدح أرض القدس التى وعدهم بها قال : إلا أنها أرض تنبع عسلا ولبناً ، ووعدهم فيها بأكل عسل الصخور . أفترى إذ ليس فى العسل شفاء أصلاً ، إنما وعدهم تعالى بما فيه الداء والبلاء لا بما فيه الشفاء ، هذا مع إنكار العيان ، وجحد الضرورات فى منافع العسل .

٣٢ ــ الفصل الثامن : ثم ذكر هـذا الزنديق الجاهل قول الله تعالى : ﴿ ونَزَّلْنَا من السماءِ ماءً مباركاً ﴾ ، [قٓ : ٩] وقال : كيف يكون مباركاً وهو يهدم البناء، و يهلك كثيراً من الحيوان ؟

٣٣ ــ قال أبو محمد : من لم يكن مقدار فهمه وعقله إلا هذا المقدار، لقد عجل الله له العقوبة فى الدنيا والحمد لله رب العالمين . وليت شعرى أما درى هذا الجاهل أنه لولا شرب الماء لم يكن فى الأرض حيوان أصلاً لا إنسان ولا ما سواه ، وأن عناصر جميع المياه الظاهرة على وجه الأرض والمختزنة فى أعماقها إنما هى من مواد القطر النازل من السماء ؟ أما رأى هـذا الأنوك أن الأمطار إذا كثرت غزرت العيون وفهقت الأنهار وطفحت البرك وامتلأت الآبار وسالت السيول وتفجرت

---

١ ــ ذكرا : ذكر
٧ ــ وقد وجدنا : وما وجدناهم

فى الأرض ينابيع ؟ حتى إذا قلّت الأمطار وضعفت العيون ونقصت الأنهار وخفّت البرك والآبار وانقطعت السيول وغارت الينابيع ، خشنت الصدور وفسد الهواء ؟ أما رأى [١٥٦ و] أنه لا نماء لشىء من النبات كله منزرعه وصحراويّه وجميع الشجر بساتينها وشَعْرَائها إلا بالماء النازل من السماء ؟ أما قرأ فى هـذيانهم الذى يسمونه « توراة » امتنان الله تعالى فى صفة الأرض المقدسة بأنها لا تُسْقَى من النيل ، كما تسقى مصر لـكن من ماء السماء ؟ أتراه إنما منَّ عليهم بضد البرَكة لا بالبركة ؟ إن هـذا لعجب . أما علم أن الأمطار ترطِّبُ الأجسام وَتَذْهَبُ بقحلها وأن بالماء الذى عنصرُهُ ماء السماء تُزَالُ الأوضار وتطيب ا. وأح ولولاه ما عمر العالم ! فحسبكم أيها الناس بمقدار هذا الخسيس وجهله وهو عميد اليهود وعالمهم وكبيرهم، وهذا مبلغه من الجهل والسخف،ونستعيذ بالله من الجهل والضلالة والحمد لله رب العالمين .

٣٤ ـ قال أبو محمد : هاهنا انتهى كل ما ظن المائق أنه اعترض به ، قد بان كله زوره وجهله واغتراره ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم نحن إن شاء الله تعالى ذا كرون بحول الله تعالى وقوته قليلاً من كثير من قبائحهم يديرونها وينسبونها إلى البارى تعالى فى كتبهم التى طالعناها ووقفنا عليها ، وتضاعف بذلك شُكْرُنا الله تعالى على عظيم ما منحنا من نعمة الإسلام والملة التى ابتعث بها محمداً صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً وعلى آله الطيبين والحمد لله على ماأولانا من فضل الإسلام وشرف الإيمان.

٣٥ ـ اعلموا أيها الناس ، علّمنا الله وإيّاكم ما يقربنا منه ويزلف حَظوتنا لديه أن اليهود أبهتُ الأمم وأشدُّهم استسهالاً للـكذب ، فما لقيت منهم أحـداً

---

٣ ـ منزرعه : مزرعه

٨ ـ بقحلها : غير منقوطة فى ص

١٩ ـ حظوتنا : خطوتنا

قط مجانباً للكذب القبيح على كثرة من لقينا منهم ، إلا رجلاً واحداً فى طول أعمارنا ، فطال تعجبى من ذلك إلى أن ظفرت بسرّهم من ذلك فى هذا الباب ، وهو أنهم يعتقدون بسخفهم وضعف [١٥٦ ظ] عقولهم أن الملائكة الذين يحصون أعمال العباد لا يفقهون العربية ولا يحسنون من اللغات شيئاً إلا العبرانية ، فلا يكتب عليهم كل ما كذبوا فيه بغير العبرانية فحسبكم بهذا المقدار من الجهل العظيم ، والحمق التام !

٣٦ ـ فمن طوامّهم أن علماءهم يقولون : إن الله عز وجل إنما ستر عن يعقوب أمر يوسف وكونه فى مصر ثلاثة عشر عاماً كاملاً ، لأن أولاد يعقوب لعنوا كل من ينقل إلى أبيهم أن يوسف حى . قالوا : فدخل الله تحت هذه اللعنة إذا أطلع يعقوب على حياة يوسف ، تعالى الله عن إفك هؤلاء المجانين وكفرهم . واغوثاه من عظيم هذا الحمق ! أفيكون فى البقر والحمير أو الكلاب أضلّ من قومٍ هذا مقدار عقولهم ، أن يجيزوا أن تكون لعنة مخلوف تلحق الخالق ؟ اللهم فإنا نحمدك على توفيقك إيانا للإسلام وهدايتك إليه ، ونسألك الثبات عليه إلى (أن) نلقاك مسلمين ، برحمتك آمين . ثم العجب أنهم قالوا فى إخوة يوسف أنهم كانوا المخبرين ليعقوب بحياة يوسف ، فهكذا فى نصّ الكتاب المسمّى عندهم « التوراة » ، فما نرى اللعنة إلا قد لحقتهم .

٣٧ ـ ثم نجدهم لا يستحيون من أن ينسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام أنهم زنوا ، وأنهم من نسل الزنا ، فإن فى السفر الأول من كتابهم ذلك المسمّى « توراة » : أن يهوذا زنى بامرأة ولده ورشاها على ذلك جدياً الغنم ، ورهنها بالوفاء بذلك عصاه وزناره وخاتمه . وقد وقفت بعضهم على هذا فقال لى : كان ذلك مباحاً عندهم . فقلت له : إنك تقول الباطل ، إذ أن فى توراتهم أن يهوذا الذى

---

١ ـ إلا رجلا : لعلها ، ولا رجلا

٢١ ـ يهوذا : يهوديا

جامعها أمر بها أن تحرق إذا ظهر حملها . فإن كان ذلك ، فلم أمر بحرقها ؟ ثم لايستحيون أن يقولوا : إن من ذلك الزنا حملت بفارص ابن يهوذا الذى من نسله كان داوود وسليمان عليهما السلام ، وكثير من الأنبياء كعاموص وشعيا وغيرهم .

٣٨ — ومن عجائبهم [١٥٧ و] أنهم يقولون : إن كل نكاح كان على غير حكم التوراة فهو زنا والمتولد منه ولد زنا ، حتى إنهم يبيحون لمن تهوَّدَ من سائر الأديان أن يتزوج أخته (من) أبيه . ثم لايستحيون أن يقولوا إن موسى وهرون أخاه تولدا من نكاح عمران بن قاهث بن لاوى عمته أخت أبيه يوخابد بنت لاوى . وأن سارة أم اسحق كانت أخت إبراهيم أبيه (من) والده تارح ، وأن سليمان كان ابن امرأة زنى بها داوود ، وولدت منه ابناً من الزنا وتزوجها أو زنى المحمى حتى لم يطلقها . و يقولون: إن الجمع بين الأختين زنا ، وأن وطء الإماء بملك اليمين زنا ، والمتولد من هذه النكاحات زنا ، هم يقرُّون أن جميع ولد يعقوب عليه السلام كانوا من أختين نكحهما معاً ، وهما ليّا وراحيل ابنتا لابان ، فولدت له ليا ستة ذكور ، وولدت له راحيلُ يوسف و بنيامين ، وأن الأربعة الباقين من ولد يعقوب ولدوا له من زلفاء و بلها ، أَمَتَىْ راحيل وليا ، وطئهما بملك اليمين لا بزواج أصلاً ، لأن فى توراتهم أن لابان أخذ عليه العهد عند كوم الشهادة أن لا يتزوج على ابنته ، فكلهم من أبناء هذه الولادات . وهاتان مقدمتان تنتج أن جميع بنى إسرائيل وجميع اليهود أولاد زنا . فإن قالوا : كان ذلك حلالاً قبل أن يحرم ،

---

٢ ـ بفارص : بفارض

٨ ـ يوخابد : يوخابل ، وفى (ع) . يوكابد : عدد ٢٦ : ٥٨

٥ — ١٤ : انظر قصة يهوذا ، وتامار فى التكوين ٣٨ ، وراجع الفصل ١ ـ ١٤٥ .

١٥ ـ بلها : يلها // أمتى : ابنى

١٦ ـ كوم : كرم ، وهى التى سميت بالكلدانية سهودفا وبالعبرانية جاعيد ومعناها رجمة الشهادة (التكوين : ٣١)

أقرّوا بالنسخ ، وإن قالوا : إن ذلك خاص لبنى إسرائيل مذ أنزلت التوراة . لزمهم ترك قولهم : إن كل مولود فى الأمم بخلاف حكم التوراة فهو ولد زنا ، وعلى كل حال يلزمهم أن أولاد سليمان عليه السلام كانوا أولاد زنا بَحْتٍ، لأنهم مقرون أنهم كانوا من أبناء العمونيات والموآبيات وسائر الأجناس ، ورءوس الجواليت إلى اليوم من أبناء من ذكرنا ، تعالى وتنزه أنبياؤه عليهم السلام عن هذه المخازى ؛ وإسحق أبوهم ، وهرون وموسى وداوود وسليمان و يوسف على قول [١٥٧ ظ] هؤلاء الكفرة ، لعنهم الله ، ولدوا لغير رشدة ، لعن الله قائل هذا معتقداً له ومصدقاً له .

٣٩ — ومن عجائبهم أنهم يقرّون فى كتابهم المسمى بالتوراة أن السحرة فعلوا بالرقى المصرى مثلما فعل موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم من قلب العصا حيّة ، ومن قلب ماء النيل ، ومن استجلاب الضفادع ، حاشا البعوض فلم يقدروا عليه .

٤٠ ـ قال أبو محمد : لو صح هذا ، وأعوذ بالله ، لما كان بين موسى عليه السلام والسحرة فرق إلا قوة العلم والتمهّر فى الصناعة فقط ، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من أن يكون آدمى يقدر بصناعته على خرق عادة ، أو قلب عين ، وننكر أن الله تعالى يولى ذلك أحداً غير الأنبياء صلى الله عليهم وسلم تسليماً كثيراً ، الذين جعل الله تعالى ظهور المعجزات عليهم شاهداً لصدقهم .

٤١ ـ ومن عجائبهم قولهم فى نقل أحبارهم الذى هو عندهم بمنزلة ما قال

---

١١ ـ استجلاب : استحلاب

٩ ـ ١٢ : فى قصة موسى وقلب العصا حية وقلب ماء النيل . . . . الخ انظر سفر الخروج ٨ : ١٨ ـ ١٩٠ « وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا ، وكان البعوض على الناس وعلى البهائم ، فقال العرافون لفرعون هذا إصبع الله » . وراجع الفصل ١ : ١٥٤

الأنبياء : إن فرعون كان بنى فى المفاز صنماً يقال له باعل صفون ، وجعله طلسماً باستجلاب بعض قوى الأجرام العلوية ، ليحيّر به كلّ هارب من أرض مصر ، وأن ذلك الطلسم حيَّر موسى وهارون وجميع بنى إسرائيل حتى تاهوا أربعين سنة فى فحص التيه إلى أن ماتوا ملوكهم فى المفاز ، أولهم عن آخرهم ، حاشا يوشع ابن نون الافراهيمى ، وكالب بن يوفنا اليهوذانى . فتباً وسحقاً لكل عقل يزعم صاحبه أن صناعة آدمية وحيلة سحرية غلبت قوة الله تعالى ، وأعجزت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات تائهاً فى المفاز حائراً فى القفار .

٤٢ ــ ومن تكاذيبهم قولهم فى الكتاب الذى يسمونه « التوراة » : إن الله تعالى قال لهم : سترثون الأرض المقدسة وتسكنونها فى الأبد . ونحن نقول : معاذ الله أن يقول الله تعالى الكذب ، وقد ظهر كذب هذا الوعد ، فما سكنوه فى [١٥٨ و] الأبد وما عمروه إلا مدة يسيرة من آباد الأبد ، ثم أخلوه وأخرجوا عنه وورثه الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤٣ ــ ومن عجائبهم قولهم فيه : إن الله عز وجل قال لموسى : إذا أراد بنو إسرائيل الخروج عن مصر أن يأخذ أهل كل بيت من بنى اسرائيل خروفاً أو جدياً ويذبحونها مع الليل ويأخذون من دمائها ويمسون بها أبوابهم وعتب بيوتهم ، ثم قال : قلت سأمسح بأرض مصر هذه الليلة ، وأهلك كل بكر ولد بأرض مصر من أبكار الآدميين وبكور نتاج ، المواشى وأحكم فى مصر أنا السيد وعند ذلك يكون الدماء . الدم لكم فى البيوت التى تكونون فيها ، فإذا نظرت

---

١ ــ باعل صفون : ياغن صفون ، والتصويب من الفصل ١ : ٢١٨

٤ ــ ماتوا : كذا فى ص .

٥ ــ يوفنا اليهوذانى : يوقنا اليهودانى ؛ وفى (ع) يفنة القنزى ، وهو يهوذانى لأنه من سبط يهوذا .

١٧ ــ وبكور : ويكون

إلى ذلك تجاوزكم ولا يصل إليكم ضرّ . ثم قال بعد أسطار حاكياً عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل : اذهبوا وليذبح أهل كل بيت منكم الضأن ، وعيِّدوا واصبغوا فى دمائها رانا ، ورشوا به أبوابكم وأعتابكم ولا يخرج أحد عن باب بيته إلى الصبح ، فإن السيد سيمسخ ويهلك المصريين ، فإذا نظر إلى الدم على العتب وفى الإبواب لم يجاوز الباب ، ولا يأذن للقاتل بالدخول إلى بيوتكم وقتلكم .

٤٤ ــ قال أبو محمد : فيكون أسخف من عقول (من) ينسبون إلى الله تعالى مثل هذا الكلام الفاسد ؟ أو ترى الله عز وجل لا يعرف أبوابهم حتى يجعل عليها علامات ؟ ! إن هذا لعجب . لو عقل هذا المجنون لشغله هذا السخام الذى فى دينه الذى يباهى به ، عن التعرض للحقائق يروم إبطالها ، فكان كما قال الله عز وجل : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ [الصف : ٨] .

٤٥ ــ ومن عجائبهم أنهم يلتزمون أكل الفطير فى مرور الوقت المذكور فى كل عام ولا يلتزمون أكل الخروف ، على ما ذكرنا ، وهم يقرّون فى كتابهم أنهم مأمورون بذلك كله . فإن قالوا : إنما أمرنا بذلك ما دمنا [١٥٨ظ] فى أرض

---

٥ ــ للقاتل : للقبائل ؛ وفى (ع) : المهلك

١ ــ ٥ : تأخذونه من الخرفان أو من المواعز . . . . ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها . . . . فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم . وأضع أحكاماً بكل آلهة المصريين . أنا الرب . ويكون لكم علامة الدم على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر . . . . فدعا موسى جميع شيوخ بنى إسرائيل وقال لهم: اسحبوا وخذوا لكم غنما بحسب عشائركم واذبحوا الفصح. وخذوا باقة زوفا واغمسوها فى الدم الذى فى الطست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست . وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين ، فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب . (خروج ١٢ : ٥ ــ ٢٣) .

القدس . قيل لهم : اتركوا أيضاً استعمال أكل الفطير حتى تكونوا فى أرض القدس فلا فرق فى كتابكم بين الأمر بالفطير والخروف .

٤٦ ــ ومن عجائبهم فى الكتاب المسمّي عندهم « التوراة » أن موسى عليه السلام مجّد الله تعالى يوم أغرق فرعون فقال فى تمجيده : ذلك قولى ومديحى للسيد الذى صار لى مسلماً ، هذا إلاهى أمجده و إله آبائى أعظمه ، السيد قاتل كالرجل القادر . أفيسوغ لذى عقل أن ينسب نبى الله تعالى أنه شبه قوة ربه عز وجل بقوة الرجل القادر ؟ وهل فى الافتراء أعظم من هذا لو عقلوا ؟

٤٧ ــ ومن عجائبهم قولهم فى السفر الثانى من كتابهم: ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون رجلاً من المشايخ ، ونظروا إلى إله إسرائيل وتحت رجله كلبنة زمرد فيروزى . وفى بعض الفصول إن موسى عليه السلام قال ، أو يعقوب : رأيت الله مواجهة وسلمت نفسى . مع قولهم إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: من رأى وجهى من الآدميين مات ، ولست تقدر ترانى ، لكن سترى مؤخرى . فهل فى التناقض أعظم من هذا : مرة يقول من رأى وجهى مات ، ومرة يقول رأيته مواجهة وسلمت نفسى . وكل ما ذكرنا ففى كتابهم الذى يسمونه « توراة » لا فى نقل ضعيف ولا غيره .

---

٤ ــ ٧ : « الرب قوتى ونشيدى وقد صار خلاصى ، هذا إلهى فأمجده إله أبى فأرفعه ، الرب رجل الحرب ، الرب اسمه (خروج ١٥ : ٢ــ٣) انظر أيضاً كتاب الفصل ١ : ١٦٠ حيث ورد : السيد أمجده كالرجل القادر .

٩ ــ وسبعون : وسيقوى

٩ ــ ١١ : ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ بنى إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف (خروج ٢٤ : ٩) وانظر الفصل ١ : ١٦٠

١١ ــ رأيت الله مواجهة ... الخ . انظر ١ : ١٤١

٤٨ ـ ومن عجائبهم قولهم فى السفر الثانى إن هرون (أخا) موسى بإقرارهم قال لبنى اسرائيل فى مغيب موسى : اقلعوا أقراط الذهب عن آذان نسائكم ومواليكم وأولادكم و بناتكم ، ايتونى بها . ففعلت العامة ما أمر به وأتوا بالأقراط إلى هارون ، فلما أقبضها أفرغها وجعل لهم منها عجلا ، فلما بصر به هرون بنى مذبحاً بين يديه وصرخ مسمعاً : غداً عيد السيد . ثم ذكر بعد فصول بأن موسى عليه السلام وجد بنى إسرائيل عراة بين يدى العجل [١٥٩ و] يتغنون و يرقصون ، وكان عرّاهم هرون بجهالة قلبه .

٤٩ ـ هذه نصوص كتابهم . أفيسوغ فى عقل من له أدنى مسكة أن يكون نبى يعمل عجلا للعبادة من دون الله تعالى و يأمر قومه يعبدوا له ، و يرقص هو وهم تعظيماً للعجل على أنه إلاههم الذى من مصر ؟ و إذا جاز أن يكون عجلاً وثناً و يعبدوه ، جاز لنبيّ آخر أن يزنى ، فكيف يصدق فى شيء من كلامه ، وما الذى جعل سائر كلامه أولى بالقبول من كلامه وأمره فى العجل ؟ وما الذى جعل سائر عمله أصح من زناه وفتحه بيوت الأوثان وتقريب القرابين لها ؟ ولعل سائر ما أمر به وما عمل مفتعل كل ذلك من جنس عمل العجل والزنا . والذى لا شك فيه عندى أن من بدل توراتهم وأدخل فيها مثل هذا ، إنما قصد إلى إبطال النبوة جملة ، و بالله تعالى التوفيق .

---

١ ـ إن هارون أخا موسى بإقرارهم . . . إلخ : « فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب الى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا ... فلما نظر هرون بنى مذبحاً أمامه ونادى هرون وقال : غدا عيد للرب . . . . . ولما رأى موسى الشعب أنه معرى لأن هرون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه . . . . إلخ (خروج ٣٢ : ٢ ـ ٥ ، ٣٢ : ٢٥) وراجع الفصل ١ : ١٦١ ´، وقوله : بجهالة قبله فى الفصل ١ : ١٦٢ .

٣ ـ ومواليكم : وأموالكم

٥ ـ وصرخ : وبرح // السيد : السعيد

٥٠ ـ ومن عجائبهم قولهم فى السفر الرابع : إن بنى إسرائيل إذ طلبوا أكل اللحم وضجوا من أكل المنّ ، أن الله تعالى قال لموسى : تقدسوا غداً تأكلون اللحمان ، فأنا أسمعكم قائلين من ذا الذى يعطينا . قد كنا بخير . يعطيكم السيد اللحمان فتأكلون ، ليس يوماً واحداً ولا اثنين ولا خمسة ولا عشرة إلا حتى تكمل أيام الشهر ، حتى يخرج على مناخركم وتصيبكم التخم . فقال له موسى : هؤلاء هم ستمائة (ألف) رجل وأنت تقول : أنا أعطيكم اللحوم طعماً شهراً ، أترى تكثر ذبائح الغنم والبقر فيقتاتون بها ، أو تجمع حيتان البحر معاً لتشبعهم ؟ (فقال السيد) : ماذا يهم السيد ؟ أترى السيد عاجزاً ؟ فالآن ترى إن تم قوله . ثم ذكروا أن الله تعالى أنزل السمانى حول العسكر فأكلوا حتى تخموا ومات كثير منهم بالتخمة ، فسمى ذلك الموضع قبور الشهوات .

٥١ ـ قال أبو محمد : فلو تدبر هذا اللعين الجاهل كذبهم فى هـذا الفصل ، لردعه عن أن يظن بقول الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ فإن كنت [٥٩ : ظ] فى شك مما أنزلنا إليك ﴾ ، وليعلم أن الشك المجرد قد نسبوه إلى موسى عليه السلام فى هـذا الفصل ، فإنه لم يثق بقول ربه ولا صدق قدرته على إطعام بنى إسرائيل اللحم شهراً كاملاً ، وهذا مع مافيه من الشك المكشوف الذى لايجوز أن يخرج له تأويل يبعده عن الشك ، ففيه من السخف

---

٢ ـ تقدسوا غداً تأكلون اللحمان . . . إلخ : وللشعب تقول تقدسوا للغد فتأكلوا لحماً لأنكم قد بكيتم فى أذنى الرب قائلين من يطعمنا لحماً . إنه كان لنا خير فى مصر . فيعطيكم الرب لحماً فتأكلون تأكلون لا يوماً واحداً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً ، بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم ويصير لكم كراهة ...... فقال موسى : ستمائة ألف ماش هو الشعب الذى أنا فى وسطه وأنت قد قلت أعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمان . أيذبح لهم غنم وبقر ليكفيهم أم يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم . فقال الرب لموسى : هل تقصر يد الرب . الآن ترى أيوافيك كلامى أم لا . (عدد ١١ : ١٨ — ٢٣) .

٥ ـ له : لهم

١٠ ـ الشهوات : الشهداء وفى (ع) قبروت هتأوة أى قبور الشهوة (عدد ١١ : ٣٤)

غير قليل ، لأن من رأى شق البحر ، و إنزال المن المشبع لهم ، فواجب عليه أن لا يستعظم إشباعهم بلحم ينزله عليهم . ولـكن الـكذب والتوليد لا يكون إلا هكذا ليفضح الله تعالى به أهله . والحمد لله على ما من به علينا من طهارة الإسلام ، ووضوع حجته ، وله الشكر على ما كفانا من دنس الـكفر ، وتناقض عمراه .

٥٢ ــ و بعد هذا الفصل أيضاً فى السفر الرابع ماذكره من قول الله تعالى لموسى عليه السلام إذ ضج بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة ، قالوا : فقال السيد لموسى بن عمران : « حتى متى تتناولنى هذه الأمة التى لا يؤمنون بى على ما آتيتهم من العجائب التى فعلت أمامهم ، سأضربهم بالوبأ حتى أمسخهم ، وأجعلك مقدماً على أمة عظيمة أشد قوة من هذه » ، وأن موسى لم يزل يرغب إلى الله عز وجل حتى قال : قد غفرت لك كما سألتنى . ففى هذا الفصل من إطلاق الـكذب فى الحلف على الله عز وجل مالا يجوز أن ينسب مثله إليه تعالى .

٥٣ ــ وقد ذكرنا فى كتابنا الموسوم « بالفصل فى الملل والنحل » الفصل الذى فى توراتهم فى ذكر أنسابهم ، و بينا عظيم الـكذب فيه : وهو أنهم ذكروا أن سبعة نفر من بنى إسرائيل من ولد قاهث ابن لاوى نسلوا ثمانية آلاف ذكر قبل موتهم فى التيه ، وأولئك السبعة أحياء قائمون وهم حينئذ أكثر ما كانوا . وقد قال بعضهم : إن هذا من المعجزات . فأجبناه بأن المعجزات إنما تـكون [١٦٠ و] للأنبياء عليهم السلام ، وأما لـكفّارٍ عاصين فلا . هذا سوى ما فى

---

١ ــ وانزال المن : وإنزال البحر المن

٦ ــ فقال السيد لموسى بن عمران : وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم . إنى أضربهم بالوبأ وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم (عدد ١٤ : ١١ ــ ١٢) وانظر أيضاً (عدد ١٤ : ٢٠)

١٢ ــ راجع الفصل ١ : ١٦٥ وما بعدها فى مناقشة ابن حزم للأعداد التى تذكر عن بنى إسرائيل فى العهد القديم .

١٥ ــ قائمون : نائمون // أكثر : أكفر

١٧ ــ للـكفار : الـكفار

توراتهم من شرائعهم التي يلتزمونها الآن كالقرابين ، وكمن مسَّ نجساً فإنه ينجس إلى الليل . ومن حضر على مقبرة ينجس إلى الليل حتى يغتسل كله بالماء . وأما الصلوات التي يصلونها الآن فمن وضع أحبارهم ، فيكفيهم أنهم على غير شريعة موسى عليه السلام ولا على شريعة نبي من الأنبياء .

٥٤ ـ ومن طرائفهم قولهم في كتاب لهم : يُعْرَفُ (بشعر توما) أن تكسير ما بين جبهة خالقهم إلا أنفه كذا وكذا ذراعاً . وقالو في كتاب لهم من « التلمود » ـ وهو فقههم ـ يسمى « سادر ناشيم » ومعناه حيض النساء : أن في رأس خالقهم تاجاً من كذا وكذا قنطاراً من الذهب ، وأن صديقون المَلَك هو يُجْلس التاج على رأس خالقهم ، وأن في إصبع خالقهم خاتماً تضيء من فصّه الشمس والكواكب .

٥٥ ـ ومن طوامّهم قولهم عن رجل من أحبارهم الذين يريدون ، أن من شتم أحداً منهم يقتل ، ومن شتم أحد الأنبياء لا يقتل . فذكر عن لعين منهم يدعونه إسماعيل أنه قال لهم ، وكلامه عندهم والوحي سيّان ، فقال : كنت أمشي ذات يوم في خراب بيت المقدس ، فوجدت الله تعالى في تلك الخرب يبكي ويئن كما تئن الحمامة ، وهو يقول : ويلي هدمت بيتي ، ويلي على ما فرقت من بني وبناتي ، قامتي منكسة حتى أبني بيتي وأرد بناتي وبني . قال هذا الكلب لعنه الله : ثم قبض الله على ثيابي وقال لي : لا أتركك حتى تباركَ علي . فباركت عليه وتركني .

---

٦ ـ تعني أن تكسير ما بين جبهة خالقهم . . . الخ : انظر الفصل ١ : ٢٢١

٧ ـ سادر ناشيم . كذا ذكره ابن حزم في الفصل ١ : ٢٢ وقال إن معناه : أحكام الحيض ، ولعل صوابه فيما يرجح الدكتور عابدين هو سادرهناشيم وهذا التركيب معناه أحكام النساء ، لا أحكام الحيض فحسب .

٨ ـ صديقون : صندلفوت في الفصل ١ : ٢٢١

١٠ ـ ١١ كل ما جاء في هذه الفقرة أورده ابن حزم في الفصل ١ : ٢٢١ — ٢٢٢

١٧ ـ ويئن كما تئن : وينهن كما تنين .

٥٦ ـ قال أبو محمد : أشهد الله تعالى خالقى و باعثى بعد الموت والملائكةَ والأنبياء والمرسلين والناس أجمعين والجن والشياطين أنى كافر بربٍّ يكون بين الخرب و يطلب البركة من كلب من كلاب اليهود . فلعن الله تعالى عقولاً جاز فيها مثل هذا .

٥٧ ـ ومن عجائبهم قولهم فى السفر الخامس من توراتهم أن [١٦٠ ظ] موسى عليه السلام قال لهم : إن الله تبارك وتعالى يقول لكم : إنى لم أدخلكم البلاد لصلاحكم ولا لقوام (قلوبكم) ، ولكن لكفر من كان فيها . ثم يقولون فى عيدهم الذى يكون فى عشر تخلو من أكتوبر ، ومن تشرين الأول ، ساخطين على الله تعالى غِضاباً عليه تعالى إذ قصَّر بهم ولم يؤدِّهم حقهم الذى يجب لهم عليه ـ فيقولون لعنهم الله : إن الميططرون ـ ومعناه الرب الصغير تحقيراً لربهم تعالى وتهاوناً به ـ يقوم هذا اليوم قائماً و ينتف شعره و يقول : و يلى إذ أخربت بيتى وأيتمت بنىَّ ، قامتى منكسة لا أرفعها حتى أبنى بيتى . فهم كما ترى يلعنون ربهم و يصغرونه و يقولون ذلك بأعلى أصواتهم فى أكبر أعيادهم وأعظم مجامعهم . فكيف يجتمع هذا الحق العظيم الذى يحبونه لأنفسهم ، لعنهم الله ، و يرونه واجباً على خالقهم ، مع ما ذكرنا آنفاً من قوله لهم فى توراتهم : « لم أدخلكم البلاد

---

٦ ـ إنى لم أدخلكم . . . إلخ : ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب لطردهم الرب إلهك من أمامك (تثنية ٩ : ٥)

٧ ـ ثم يقولون فى عيدهم .... إلخ انظر فى ذلك كتاب الفصل ٢٢٣

١٠ ـ الميططرون : هكذا أوردت هذه اللفظة أيضاً فى الفصل ١ : ٣٢٣ . ويعتقد الدكتور عابدين أن الوجه الصحيح من اللفظة هو . ميططيون وهو لفظ يونانى ومعناه : مصاحب الرب أو الذى يجىء بعده فى المرتبة . وربما كان هذا الاصطلاح مستفاداً مما أشار إليه النص العبرى الوارد فى سفر دانيال ١١ : ٣٨ ومعناه « رب الحرس » ، والحرس هى الأرواح التى تلازم الرب وكانت تعبد، وربما جعل كل روح منها « رباً صغيراً » .

لصلاحكم ولا لقوام قلوبكم » ؟ فهل التناقض والفساد والتبديل الظاهر إلا هذا كله لو عقلوا ؟

٥٨ ـ وفى السفر الخامس أيضاً أن موسى عليه السلام قال لهم : إن السيد إلاهكم الذى هو نارٌ آكلة . وفى موضع آخر من كتبهم أن الله تعالى هو الحمىّ المحرقة ؛ وفى الذى يسمونه « الزبور » : احذر ربك الذى قوته كقوة الجريش . فهـذا وشبهه هو الحمق والتناقض وتوليد زنديق سخر منهم وأفسد دينهم . وهم يحققون على سليمان عليه السلام أنه بنى بيوت الأوثان لنسائه وقرّبَ لها القرابين ، وهو عندهم نبى . وقد مضى الكلام فى بطلان كل كلام وعمل يظهر ممن هذه صفته ، وأنه ليس مأموناً ولا صادقاً ، لعنهم الله فإنهم كذبوا على أنبياء الله وافتروا .

٥٩ ـ ويقرّون فى السفر الرابع من توراتهم أن الله تعالى أمرهم أن يضربوا القرن ضرباً خفيفاً ، حتى إذا لقوا العدو [١٦١ و] فليضربوا القرن بشدة ليسمعه فيبصرهم ، وفى هذا من السخف والكفر غير قليل ، ولكن حق لمن غضب الله عليه وتبرأ منه وألحقه لعنته وألحفه سخطه أن يكون مقدار علمهم وعقولهم التصديق

---

٥ ـ الجريش ؛ غير منقوطة فى ص ، والتصويب من الفصل ١ : ٣٠٦

٣ ـ ٥ : « فاعلم اليوم أن الرب إلا هلك هو العابر أمامك ، نار آكلة (تثنية ٩ : ٣) أما قوله : الحمى المحرقة فلم أهتد إليه ، ولم يرد لفظ « الحمى » فى أسفار العهد القديم إلا فى موضعين (تثنية ٢٨ : ٢٢ ولاويين ٢٦ : ١٦) وهى لا توصف هنالك بالإحراق ، فلعل فى النص تحريفاً أو هو منقول من بعض الشروح . أما لفظة « الجريش » فتعنى « النافذ » وصفاً للرجل . والنص الذى يشير إليه ابن حزم فى المزمور : ٧٧ وليس فيه المعنى الذى أورده ابن حزم .

١١ ـ ١٤ : ويقرءون فى السفر الرابع ... الخ : وإذا ذهبتم إلى حرب فى أرضكم على عدو يضر بكم تهتفون بالأسواق فتذكرون أمام الرب إلهكم وتخلصون من أعدائكم (عدد ١٠ : ٩) .

لـكل ما أوردنا ، والحمد لله رب العالمين على مننه علينا بالإسلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم .

٦٠ ــ وهم معترفون بأن التوراة طول أيامهم فى دولتهم لم تكن عند أحد إلا عند الكاهن وحده ، و بقوا على ذلك نحو ألف ومائتى عام ، وما كان هكذا لايتداوله إلا واحـــد فواحد ، فمضمون عليه التبديل والتغيير والتحريف والزيادة والنقصان ، لاسيا وأكثر ملوكهم وجميع عامتهم فى أكثر الأزمان كانوا يعبدون الأوثان و يبرأون من دينهم و يقتلون الأنبياء ، فقد وجب باليقين هلاك التوراة الصحيحة وتبديلها مع هذه الأحوال بلا شك . وهم مقرّون بأن يهوآحاز بن يوشيا الملك الداوودى المالك لجميع بنى إسرائيل بعد انقطاع ملوك سائر الأسباط ، بَشَرَ من التوراة أسماء الله تعالى وألحق فيها أسماء الأوثان . وهم مقرّون أيضاً أن أخاه الوالى بعده وهو الياقيم بن يوشيا أحرق التوراة بالجملة وقطع أثرها ، وهو فى حال ملـكه قبل غلبة بخت نصر عليهم . وهم مقرّون بأن عزرا الذى كتبها لهم من حفظه بعد انقطاع أثرها ، إنما كان ورّاقاً ولم يكن نبياً ، إلا أن طائفة منهم قالت فيه إنه ابن الله ، قد بادت هـذه الطائفة وانقطعت . فأى داخلة أعظم من هـذه الدواخل التى دخلت على توراتهم ؟ وأما القرآن ، فإنه لا يختلف مليٌّ ولا ذِمىّ أنه لم يزل من حين نزوله إلى يومنا هـذا مبثوثاً عند الأحمر والأسود لم ينفرد به أحد دون أحد ، بل أبيح نسخه لـكل من مضى وجاء ، فنقله نقل كوافّ لا يحصرها عدد ، كنقل أن [١٦١ ظ] (فى) الدنيا بلداً يقال له الهند ،

---

٨ ــ يهوآحاز بن : يهوبا جارى . وفى الفصل ١ : ١٩٣ يهوخار

٨ ــ يهوآحاز بن يوشيا الملك الداوودى : انظر الملوك الثانى ٢٣ : ٣١ ، وأخبار الأيام الثانى ٣٦ ؛ وانظر الفصل ١ : ١٩٣

١٦ ــ مثبوتاً ، كذا فى ص، ولعله مبثوثاً

وسائر ما لا يجوز للشك فيه مساغ ولا مدخل ، والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً .

٦١ ــ قال أبو محمد : إن أملى لقوىّ وإن رجائى مستحكم فى أن يكون الله تعالى يساط على من قرّب اليهود وأدناهم وجعلهم بطانة وخاصة ، ما ساط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ [المائدة : ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾ [آل عمران : ١١٨] ، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ [الممتحنة : ١] ، وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة : ٥٧] ، وقوله تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ [البقرة : ٦١] ؛ وقوله تعالى : ﴿لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ [المائدة : ٦٢] . فمن سمع هذا كله ، ثم أدناهم وخالطهم بنفسه من ملوك الإسلام فإنه إن شاء الله تعالى قمين أن يُحيقَ الله عز وجل به ما أحاق بهم من الذلة والمسكنة والهوان والصغار والخزى فى الدنيا سوى العذاب المؤلم فى الآخرة .

٦٢ ــ وإن من فعل ذلك لحرىّ أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توراتهم فى السفر الخامس إذ يقول لهم تعالى : ستأتيكم وسيأتى عليكم هذه اللعنة التى أصف لكم فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدادينكم وتلعن أجدادكم وبقاياكم

---

١٩ ــ قمين : من

٢١ ــ لحرى : يجرى

٢١ ــ راجع هذا النص فى تثنية : ٢٨ : ١٥ ــ ٥٨

ويكون نسلكم ملعوناً ، وتكون اللعنة على الداخل منكم [١٦٢ و] والخارج ، فيبعث الله عليكم الجوع والحاجة والنصب فى كلّ ما عملته أيديكم حتى يهلككم ويقل عددكم لتخليكم منه . ثم يلقى الوبأ على أنفسكم ليقطع آثاركم من الأرض التى أورثكموها ويبعث الرب عليكم الجدب ويهلككم بالسّموم والثلوج ويحيل آثاركم ويطلبكم حتى يندركم ويجعل سماءه فوقكم نحاساً وأرضكم التى تسكنونها حديداً ، فتمطر عليكم الغبار من السماء، وينزل عليكم الدماء حتى تهلكوا عن آخركم ويُظْفِرَ الرب بكم أعداءكم فتدخلون إليهم على طريق واحدة وتنهزمون على سبعة ، ويفرقكم فى آخر أجناس الأمم ، فتكون جيفكم طعم السباع وطيور السماء ولا يكون لهم عنكم رافع ، ويبتليكم الرب بما ابتلى به المصريين فى أدبارهم من الحكة والأكال الذى لا دواء له ويبتليكم الرب بالبلية والغم حتى تماسكوا بالحيطان القليلة كتماسك العميان ، ولا تقوموا على إقامة سبلكم فتكونوا فى هضيمة طول دهر وفى سخرة لا يكون لكم منفذ . ويتزوج أحدكم امرأة فتخالفه إلى غيره ، ويبنى أحدكم بيتاً ويسكنه غيره ؛ ويغترس كرماً ويقطفه غيره ، ويذبح بين قدمى أحدكم ثوره ولا يطعم منه ، وينزع من أحدكم حماره معاينة ولا يردّ إليه ، وتعطى مواشيكم الأباعد ، ولا تجدون ناصراً على ردّها وَتَغْلِبُ على أولادكم وبناتكم ، ولا يكون فيكم قوة للدفع عنهم ، وتأكل حبوبكم أجناس تجهلونها وفواكه أرضكم ، وتكونون مع ذلك فى هضيمة أبداً وفى جزع منهم ، فيبتليكم الرب بأجناس الأمراض وأضرّها التى لا دواء لها من أقدامكم إلى رءوسكم ، ويذهب بالملك الذى تقدمونه على أنفسكم إلى قوم لم تعرفوهم ولا آباؤكم ، لتجدوا عندهم أصنامهم

---

٩ ــ المصريين : المصرتدين // والأكال : الأكال

١٨ ــ وأضرها : وضرها

١٨ ــ ويذهب : فتذهب

١٩ ــ لتجدوا : لتجد ولعلها لتتخذوا

المصنوعة من الخشب والرخام ، وتـكونون مثلاً لمن سمع بكم من جميع الأجناس التى أندَركم فيها ، فتزرعون كثيراً وترفعون قليلاً ، لأن الجراد [١٦٢ ظ] يأتى عليه ، وتعمرون كرومكم وتحفرونها ولا تقطفون منها شيئاً ، لأن الدود يأتى عليها . ويكثر زيتونـكم ولا تدَّهنون لأنها لا تعقد . ويولد لـكم الأولاد والبنات ولا تنتفعون بهم لأنهم يساقون فى السبى . ويأتى على جميع فواكه بلدكم القحوط والجدب فلا تنتفعون بها . ومن كان بين ظهرانيكم من (أهل) القرى يلعنونـكم ولا يشفقون عليـكم فتتواضعون ويكون الأرذال يشتمونـكم وتـكونون لهم ساقة فيأتى عليـكم جميع هذه اللعنات وتتبعكم حتى تَخْزَوْا ، إذ لم تسمعوا للرب إلاهكم ، ولم تحفظوا رسالاته التى عوهدت إليـكم ، وتـكون فيـكم العجائب والمسوخ فى ذريتـكم فى الأبد ، إذ لم تقفوا عند أمر الرب إلاهكم بطيب أنفسكم ، فتخدمون أعداءكم الذين يبعث الرب عليكم فى الجوع والعطش والعرى والحاجة ، وتحملون على رقابكم أغلال الحديد وتجرُّونها ؛ ويأتى الرب عليكم بجيش من مكان بعيد فى سرعة العقبان من الذين لا يكرمون شيخاً ولا يرحمون صغيراً ، فيأكلون نتاجكم وما أنبتت أرضكم ، ولا يدعون لـكم سمناً ولا خمراً ولا زبيباً ولا ثوراً ولا شاة حتى يأتوا عليكم ويخرجوكم من جميع مدائنكم التى يورثكم الرب إلاهكم وتضيق عليـكم حتى تأكلوا وسخ أجوافـكم ولحوم أولادكم وبناتكم الذين يولدون لـكم فى زمان حصاركم ، فمن كان منكم مترفاً أو متملكاً يمنع أخاه وامرأته لحوم بنيه شحاً عليها إذ لا يجد ما يقتات به سواه من شدة الحصار من أعدائكم

---

٣ ـ تقطفون : تقطعون
٤ ـ تدهنون : تذهبون
٧ ـ وتكونون : وتكون
١٠ ـ بطيب أنفسكم : بطلب أنفسكم // الذين : الذى
١٦ ـ ولحوم : وتحوم
١٨ ـ لحوم : تحوم

لكم . ومن كانت فيكم رخصة البنان التى لا تقوى على المشى من رخوصتها تحسد زوجها على أكل لحوم أولادها ، والسَّلَي الذى يخرج من فرجها ، إذ لا تجد مطعماً سواه .

٦٣ ـ قال أبو محمد : هذه بشارة من الله تعالى لهم ، ومنحته التى خصهم بها بإقرارهم ألسنتهم ، وفى كتابهم [١٦٣ و] الذى يقروأنه ، فليتق الله تعالى امرؤ آتاه الله نعمة من نعمه ، ومنحه عزه ، وليجتنب هؤلاء الأنجاس الأنتان الأقذار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلة والقلة والمهانة والسخط والخساسة والوسخ ما لم يحق بأمة من الأمم قط . وليعلم أن هذه الكُسَى التى كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب ، وأسرع تعلقاً من الجذام ، وبالله تعالى نعوذ من الخذلان ، ومن معارضة الله تعالى فى حكمه بإرادة إعزاز من أذله الله تعالى ، ورفعة من حطه الله ، وأكرام من أهانه الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٦٤ ـ قال أبو محمد : قد أوردنا فى هذا الكتاب من شنعهم أشياء تقشعر منها الجلود ، ولولا أن الله تعالى نَصَّ علينا من كفرهم ما نَصَّ كقوله تعالى عنهم : إنهم قالوا عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وأن الله فقير ونحن أغنياء ، لما استجزنا ذكر ما يقولون لشنعته وفظاعته . ولكننا اقتدينا بكتاب الله عز وجل فى بيان كفرهم ، والتحذير منهم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

---

٢ ـ تجد : بجد

٩ ـ اياها : اياه .

١٣ ـ ولولا أن الله تعالى نص... الخ : مثل هذا العذر فى رواية مايقوله اليهود قد ردده ابن حزم أيضاً فى الفصل ١ : ٢٢٣ قال : ولولا ما وصفه الله تعالى فى كفرهم وقولهم : يد الله مغلولة ، والله فقير ونحن أغنياء ، ما انطلق لنا لسان بشىء مما أوردنا ولكن سهل علينا حكاية كفرهم ماذكره الله تعالى لنا من ذلك .

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

وصلى الله على محمد عبده ورسوله

وعلى آله وصحبه أجمعين

وسلم تسليماً كثيراً

يا رب العالمين

- ٣ -

رسالتان لم أجاب فيهما عن رسالتين سُئل فيهما سؤال تعنيف

[١٧٢ و] رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف

بسم الله الرحمن الرحيم عونك يا الله .

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم رحمه الله : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً ، ورضى الله عن الصحابة .

أما بعد ، فإن بعض من تكلمّ بما وقر فى نفسه بغير حجة وانطلق به لسانه بغير برهان ، كتب كتاباً خاطبنا فيه مُعنّفاً على ما لم يفهمه ومتعرضاً لما لا يحسنه، واستتر عنا مدة ، ثم ظهر إلينا ، فلزمنا أن نبين له موضع الخطأ من كلامه ، ونوقفه على مخالفته للحق ، تأديةً للنصحية التى افترضها تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « الدين النصحية . قيل: لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين عامة » .

ونحن نورد نصَّ ألفاظهم ، على ركاكتها وغثاثتها ، لئلا يظنوا بجهلهم أنها إن أوردت مُصَلَّحةً قد نُسِخَتْ حَقَّها ولم تُوفَّ مرتبتها ، ونبين ، بعون الله ، عظيمَ ما فيهما من الفساد والهجنة ، وما توفيقنا إلا بالله العلى العظيم .

١ ــ بدأ هؤلاء القوم كتابهم بعد أن قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم: « أما بعد ــ رعاك الله وكلأك ــ فإن خصمك يحتج أنه لا يلزمه الخروج عما قيده الشيوخ الثقات عنهم وتضمنَّ ذلك كتب جمة هى معلومة مشهورة مسموعة رواية رواها

الثقات عنهم وهم فى جملتهم عدد كثير إلى قولٍ واحدٍ يَطْلُبُ التعليلَ والاحتجاجَ و يردُّ بالمنطق على الشرعى » .

فالجواب ــ و بالله التوفيق ــ أن خصمنا يحتج أنه لا يلزمه الخروج عما قيده الثقات إلى آخر الفصل ــ كلام يشاركهم فيه كلُّ فرقة من فرق الإسلام ، فليسوا أولى بهذه القصة من أصحاب أبى حنيفة ولا من أصحاب الشافعى ، ولا من أصحاب أحمد بن حنبل [١٧٢ ظ] رحمة الله على جميعهم ، فكل لهم ثقات على الجملة وثقات عندهم ، إن لم يكونوا أكثر من شيوخ المالكيين لم يكونوا أقلَّ منهم ، قد رووا أقوالهم وقيدوها عن الثقات كذلك ، وهم أيضاً فى جملتهم عدد كبير . وتضمنت تلك الأمور كتب الثقات عنهم ، ليس جهل هؤلاء بها حجة على أولئك ، كما أن أولئك أيضاً لا يعرفون كتب المالكيين ، وأكثرهم لم يسمع قط بأسمائها . فأى فرق بين هذه الدعاوى لو نصحوا أنفسهم ؟

وأما قولهم فى الخروج عما هذه صفته إلى قول واحد ، فمعاذ الله أن ندعوا أحداً إلى قول أحدٍ غيرِ قولِ الله عز وجل وقول رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول الكاره والراضى منهم والمسلمُ والراغمُ ، أنه الحق الذى لا حقَّ فى الأرض سواه .

وأما قولهم : إنا نرى التعليل والاحتجاج ، فقد مزجوا الكذب بالصدق والباطل بالحق ، وأعوذ بالله أن نرى التعليل ، بل قد رمونا هاهنا برأيهم ، وهم الداعون إلى التعليل لا نحن ، وكتب حذاقهم فى إثبات العلل والقول بالتعليل مملوءة ، كما أن كتبنا وكتبَ أصحابنا مملوءة من إبطال العلل والمنع من التعليل . فلو اتقى الله تعالى هؤلاء القوم لم يتكلموا فيما لا يحسِنُونه وقد سمعوا قول الله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

---

٤ ــ الفصل : الفعل .

وأما قولهم إننا نرد بالمنطق على الشرعى ، فكذب وجهل ومكابرة ، ونحن الداعون إلى الشرع ، لأننا إنما ندعو الناس إلى كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وإلى بيان رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذى أمره الله تعالى بالبيان عنه ، وإلى إجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، فكيف يردّ على الشرعىِّ من هـذه صفته ؟ إنما يردّ على الشرعىِّ من يُدْعَى إلى كلام الله تعالى وكلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الصحابة رضى الله عنهم ، فيعارض [١٧٣ و] ذلك برأيه ويعرض عن ذلك إلى قياسه ، إن كان عند نفسه ممن يفهم ، أو إلى تقليده إن كان مقصراً معترفاً بتقصيره . فلينظروا هم ونحن فى هاتين الصفتين : مَنِ الجاهل لكل صفة منهما ؟ ثم لينظر كل واحد منا الجزاء من الملىّ بالمجازاة ، من الذى لا إله إلا هو .

٢ ـ ثم قالوا : « والشرع إنما هو مسموع متبع معمول به » .

فالجواب: إن هذا حق صحيح، ولكن يلزمهم تبيين من هو الشرعُ منه مسموع ومن هو المتبع فى الشرع ، وشرعُ من هو المعمول به . فإن قالوا : إنه لا يُسمع الشرع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، ولا يتبع فى الشرع أحد سواه عليه السلام ، ولا يجوز العمل إلا بشرعه ، صدقوا وهو قولنا ، ولله الحمد ، ووافقونا وانقطع الخلاف . فإن قالوا غير هذا لزمهم ما لا يخفى على أحد من أهل الإسلام . فإن قالوا : هو مسموع من العلماء وهم المتَّبَعُون فيه . قيل لهم : هل اتفق العلماء أو اختلفوا ؟ فإن قالوا : اتفقوا . كذبوا كذباً لا يخفى على ذى عقل ، ولا يرضى بالكذب إلا خسيس لا دين له ولا مروءة . وإن قالوا : بل اختلفوا ، قيل لهم : فلا تموِّهوا بإجمال ذكر العلماء من أهل الأمصار .

---

٨ ـ إن : وإن

٩ ـ منهما : منها

٣ — ثم قالوا : « فمن الشرع ما قد عمل به ، ثم ترك لحديثٍ واردٍ نسخه ، أو لِوَهَنٍ فى طريقه فلم يصح ، أو لم يقع الإجماع على استعماله من أجل ذلك ».

الجواب — وبالله التوفيق — إن قولهم : فمن الشرع ما قد عمل به ، ثم ترك لحديثٍ واردٍ نسخه ، فينبغى لمن تعاطى هذا أن يورد ذلك الحديث الذى نسخ ذلك الشرع فإن أورده لزم الانقياد له ، وإن عجز عن ذلك فليتق الله على نفسه ، ولا يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول عليه بظنه مالا يعلم صحَّتَهُ ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾ [يونس : ٣٦] ، وقد صحَّ أن من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فليتبوأ مقعده من النار ، ومن [١٧٣ ظ] ترك شرعاً صحيحاً لدعواه الكاذبة أنَّ ها هنا حديثاً قد نسخه ، ولا يدرى صحة ذلك ولا يعرفه ، فقد أتى أكبر الكبائر ، ونعوذ بالله من الخذلان .

أما قولهم : لوهن فى طريقه فلم يصحَّ ، فهذا علمٌ ما يُدْرَى منهم أحدٌ يَدْرى فيه كلمةً فما فوقها ، ومن تكلم فيما لا يدرى فقد تعرَّضَ لسخط الله ، إذ يقول : ﴿ وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم ﴾ [النور : ١٥] .

ثم أطرف شىء قولهم : « أو لم يقع الإجماع على استعماله » ؛ نسأل هذا الجاهل الذى أتى بهذه الطامة عن كل ما يدينون ما خالف فيه مالكاً سائرُ العلماء ، وربما بعضُ أصحابه : هل وقع الإجماع على استعماله أم لا ؟ فإن قالوا : وقع الإجماع على استعماله ، كابروا أسمجَ مكابرةٍ ، وناقضوا بادعائهم الإجماع على ما فيه الاختلاف بإقرارهم . وإن قالوا : لم يقع الإجماع على استعماله ، قيل لهم :

---

٤ — يورد : بورود

١٨ — استعماله : استعمال .

فكيف تعيبون القولَ بما لم يقع الإجماع على استعماله ؟ ولو أن مَنْ هـذا مبلغه من العلم سكتَ ، لكان أولى به وأسلم ، والحمد لله على منِّه .

٤ ــ ثم قالوا : « وليس يُشَكُّ أن المتقدمين من الصحابة والتابعين والسلف الماضين قد بحثوا عنه ووقفوا منه على حقيقة أوجبت تركه أو استعماله، فسكتوا عن ذلك للمعرفة الثابتة التى وردتهم ، و إنهم فى غير الثقة والقبول غير متهمين » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إنه جرَى أيضاً فى هذا الفصل أيضاً من البرد والغثاثة على مثل ماجرى عليه قبل هذا . و يقال لهم : هل اتفقوا ــ أعنى الصحابة والتابعين والسلف الماضين ــ على كل شىء من مسائل الدين حتى لم يختلفوا، أو اختلفوا ؟ فإن هم قالوا : لم يختلفوا فى كل مسألة ، ظهر كذبهم على جميعهم وصاروا من نصاب من يُرْجَمُ لعظم ماتقحمَّ [١٧٤ و] فيه . و إن قالوا : اختلفوا فى كثيرٍ من المسائل . فقل لهم : صدقتم ، فأما ما اجتمعوا عليه فنحن الذين اتبعوا إجماعهم ، ولله الحمد كثيراً ، و إنما خالف إجماعهم من دعا إلى تقليد إنسان بعينه ، كما فعل هؤلاء فى تقليدهم مالكاً دون غيره ، ولم يكن قط فى الصحابة ، ولا فى التابعين ، ولا فى القرن الثالث واحد فما فوقه فعَلَ هذا الفعل ، ولا أباحه لفاعلٍ ، فهم المخالفون حقاً للإجماع حقاً فى هذا ، وفى مسائل أُخَر قد أوضحناها فى كتبنا .

وأما ما اختلف فيه الصحابة ، رضى الله عنهم ، فليس قولُ بعضهم أولى من قول بعض ، ولا يحل تحكيم إنسان ممن دونهم فى الاختيار فى قولهم ،

---

٥ ــ للمعرفة : المعرفة // الثابتة : الباقية // وردتهم : زودتهم

٦ ــ جرى : جزا

٩ ــ فان هم : فإنهم

١٥ ــ وفى مسائل : فى مسائل .

ولا يجوز فى ذلك إلا ما أمر الله تعالى به ، إذ يقول: ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : ٥٩] ، فمن ردّ الاختلاف إلى اختيار مالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، أو إنسان بعينه ، فقد خالف القرآن والإجماع المتقدم من الصحابة والتابعين ، وهو الإجماع الصحيح .

وأما قولهم : إن الصحابة والتابعين بحثوا عنه ووقفوا على حقيقة أوجبت تركه ، فهذه صفة معدومة فيما لم يصح نسخه ، ولا سبيل إلى وجوبها إلا فيما يتقن نسخه كالقبلة إلى بيت المقدس ، وما أشبه ذلك . وأما ما اختلفوا ، فحاشا لله أن يكون إجماعاً فيما قد صح فيه الخلاف .

وأما الطامة فقولهم : « فسكتوا عنه للمعرفة الثابتة التى وردتهم » ، فهذه عظيمة نعوذ بالله من أن يُظَنَّ مثلها بالصحابة ، رضى الله عنهم ، من أن سكتوا عن تبليغ ناسخ صحَّ عندهم عن النبى صلى الله عليه وسلم . ومن فعل هذا فقد وجبت عليه اللعنة وحقَّت ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا و بينوا [١٧٤ ظ] فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠] ، فكيف يحلّ لمن يدرى ما الإسلام أن يظن أن الصحابة والتابعين اتفقوا على السكوت عن ذكر حديث ناسخ لعمل شرعى صحَّ عن النبى صلى الله عليه وسلم ؟ هذا مالا يظنه بهم إلا الروافض الملعونون ، ونعوذ بالله من الخذلان .

وأما قولهم: « و إنهم فى غير الثقة والقبول غير متهمين » ، صحيح ، وهو قولنا لا قولهم ؛ لأنا نحن الذين ندين الله تعالى بكل ما أسنده لنا الثقة عن الثقة حتى

---

٣ ـ مالك : مالكاً

يبلغ إليهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا ما صحّ نسخه وعلم ناسخه ، أو ثبت تخصيصه و نقل ما خصه ؛ ونحن الذين قبلنا منهم حقاً ، و إنما ترك توقيفهم ورفض القبول منهم واتهمه من اطَّرح جميع أقوالهم ، ولم يلتفت إليها ، ولا اشتغل بها إلا قول مالك وحده ، وحكّمَ عليهم رأىَ مالكٍ واختياره ، فهذا هو المتهم لهم حقاً، لا من لم يخالف إجماعهم ولا حكمّ فى اختلافهم أحـداً غيرَ رسول الله صلى عليه وسلم ، فلأىّ أقوالهم حَـكَمَ النبىُّ صلى الله عليه وسـلم قال به ، والحمـد لله رب العالمين .

٥ ــ ثم قالوا : « فوجب لهذا الطالب المجتهد الاقتداء بهم وسلوكُ طريقتهم والأخذ بسيرتهم إذ عنهم أخذ دينه ، وهم الناقلون إليه شريعتهُ نَقْلَ كافّةٍ عن كل كافة ، ونقل واحـد عن كافة ، ونقل كافة عن واحـد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكرم » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إن قولهم : وجب لهذا الطالب المجتهد الاقتداء بهم ، وسلوك طريقتهم ، والأخذ بسيرتهم فصحيح إن فعلوه ، وحق إن عملوا به ، ونحن نسألهم ونناشدهم الله ما الذى يدينون به ربهم تعالى : أهو ماوردهم عن الصحابة والتابعين ، أو ما وجدوا فى المدونة من رواية ابن القاسم عن مالك ؟ فإن قالوا : بما جاءنا عن الصحابة ، كذبوا كذباً يستحقون به المقت من الله تعالى ، ومن [١٧٥ و] كل من سمعهم . فإن قالوا : بل بما جاءنا من رواية ابن القاسم عن مالك فى المدونة ، فليعلموا أنهم لم يقتدوا بالصحابة والتابعين والسلف المرضيين ، ولا سلكوا طريقهم ، ولا أخذوا بسيرتهم . و إن قالوا : إن مالـكاً لم يخالف

---

١ ــ وعلم : مكررة فى ص
٢ ــ ترك : نزل // توقيفهم : توفيقهم
٥ ــ أحداً : أحد
١٩ــ مالـكاً : مالك

طريقة الصحابة والتابعين ، قيل لهم : ما مالك بهذا أولى ممن خالفه كسفيان الثورى ، والليث ، والأوزاعى ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ، ومن ادعى على هؤلاء وغيرهم أنهم خالفوا الصحابة والتابعين ، حاشا مالكا وحده ، قالوا الكذبَ والباطل ، ولم ينفكوا ممن عَكَسَ عليهم هذه الدعوى الكاذبة فنسبَ إلى مالك ما نسبوه هم إلى غير مالك ، وحاشا لله من هذا ، بل كلٌّ امرئٍ منهم مجتهدٌ لنفسه يصيب ويخطىء ، وواجبٌ عَرْضُ أقوالهم على القرآن والسنة ، فلأيها شهد القرآن والسنة أخذ بقوله وترك ما عداه . وقد بينا أن سيرة الصحابة والتابعين وطريقهم هى الاجتهاد ، وطلب سنن النبى صلى الله عليه وسلم ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه . فهم قد خالفوا جميع سيرة الصحابة والتابعين ، وخالفوا طريقهم ، ولم يقتدوا بهم ، ونحن المقتدون بهم حقاً ، والحمد لله رب العالمين .

وأما قولهم : « فعنهم أخذ دينه » ، فلو اتقوا الله تعالى ولم يكذبوا ، كان أسلمَ لهم فى الدنيا والآخرة ، ولو رجعوا إلى أنفسهم فنظروا هل رووا ما يدينون به عن الصحابة والتابعين أو لم يشتغلوا قط بشىء من ذلك ؟ فإن كان عندهم الصحابة والتابعون ، إنما هم مالك وحده ، فهذه حماقة لا يرضاها لنفسه ذو مسكة .

وأما قولهم : « وهم المبلغون والناقلون إليه شريعته نقل كافة عن كافة ، ونقل واحد عن كافة ، ونقل كافة عن واحد إلى النبى صلى الله عليه وسلم » ، فهذه والله طريقتنا لا طريقتهم ، وسبيلنا لا سبيلهم ، هذا أمر لا يستطيعون

---

٣ ــ أنهم : أن

٩ ــ تقليد : التقليد

١٥ ــ والتابعون : والتابعين // حماقة : جماعة

١٦ ــ عن كافة : مكررة فى ص

إنكاره ؛ لأنهم لا يشتغلون بحديث أصلاً ، ولا بأثر ، إنما هو قول مالك ، وابن [١٧٥ ظ] القاسم ، وهذا رأى ، ولا مزيد إلا فى الندرة فيما لا يعرفون صحته من سقمه ، وفيما يأخذون بعضه ، ويخالفون بعضه تظارفاً ولا مزيد ، ونسأل الله التوفيق .

٦ ــ ثم قالوا : « ففى الخروج عن الثقات ، وعن الجماعة إلى رأى واحد إن كان ذلك الواحد من جملة الجماعة لا مزية له عليهم ، فهو والله شذوذ ، وخطأ لا يحل » ، وهذه صفتهم فى خروجهم عن أقوال جميع الصحابة والتابعين ، وسائر الفقهاء لهم إلى رأى مالك وحده ، إن كان ذلك الواحد هو الذى أجازه الله تعالى لرسالته ، واصطفاه لوحيه وعصمه ، وافترض طاعته على الجن والإنس ، فقد وفق من خالف بأهل الأرض كلهم له ، فكيف وجميع الصحابة والتابعين مجمعون على وجوب ترك قول كلّ قائل لما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهذه طريقتنا ، والحمد لله رب العالمين كثيراً . فانظروا الآن مَن الزائع منّا ومنهم ، ومن الشاذّ نحن أم هم ؟ وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

٧ ــ ثم قالوا : « ولا سيما أن هذا المدعى الحقّ فيما يمتثله ويؤثره ويصوّبه من الترتيب ، والهيئات ، والاشتقاق ، والتفتيق ، وتغليب الظاهر ، وإعماله على مفهوم خطابه على ما يبدو للسامع ، وترك الأخذ بالتأويل ، والأحكام الماضية من السلف الصالح » .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق ــ إن هذا كلام مخلّط يشبه كلام المشوشين ، لأنه ناقص غير تام ، وما ندعى الحق إلا فيما لا يقدر أى واحد منهم أن ينكر

---

٣ ــ تظارفاً : تطارقه

٩ ــ وفق : وقف // وجميع : جميع

١٩ ــ أى واحد : على واحد

أن الحق فيه من القرآن وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إجماع الصحابة رضى الله عنهم فقط ، وأما ذكر هيئات واشتقاق وتفتيق ، فحمق صفيق ، وهذيان عتيق ، ومن عند الله يكون التوفيق .

وأما تغليبنا الظاهر و إعماله ، على مفهوم خطابه ، فكلام لا يعقل لاستعمال الظاهر دالاً بمفهوم خطابه ، وهو نفسه الذى يبدو للسامع منه ، لا معنى للظاهر غير ذلك . فلو عقل هؤلاء المساكين [١٧٦ و] ما تكلفوا ما يفتضحون فيه من قرب ، لكن من يضل الله فلا هادى له .

وأما ترك الأخذ بالتأويل ، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما تأويل يشهد بصحته القرآن ، أو سنة صحيحة أو إجماع ، فَبِهِ نقول إن وجدناه ، وأما تأويل دعوى لا يشهد بصحته نص قرآن ، ولا إجماع ، فهذا الذى ننكره وندفعه ونبرأ إلى الله تعالى منه . فإن كانوا أنكروا إنكارنا هذا الباطل ، فما يحتاج معهم إلى تطويل أكثر من أن نقول لهم : ما الفرق بين تأويلكم العارى من شهادة القرآن والسنة ، و بين تأويل غيركم من الحنفيين والشافعيين إذا عرى أيضاً من تصحيح القرآن والسنة ؟ وهذا مالا سبيل إلى فرق بينه ، ولا يتبع شيئاً مما هذه صفته بعد قيام الحجة ووصول البيان إليه إلا محروم التوفيق محروم البصيرة .

وأما الأحكام الماضية بين السلف الصالح ، رضى الله تعالى عنهم ، فإنها لا تخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما أحكام لم يختلفوا فيها ، و إما أحكام اختلفوا فيها : فأما الأحكام التى لم يختلفوا فيها ، فهم الذين يخالفونها كخلافهم إعطاء أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما ــ بحضرة الصحابة دون خلاف من أحد

---

١٠ : بصحته : بصحة القرآن
١٣ : الحنفيين : الحنيفيين
١٥ : إلا : لا

منهم ـ أرض خيبر اليهود بنصف ما يخرج منها من زرع أو ثمر إلى غير أجل ، فخالفوا هذا الحكم ، وقالوا : هذا باطل لا يجوز . وغير هذا كثير جداً قد جمعناه عليهم مما لا ينكرون صحته .

وأما الأحكام التي فيها اختلاف ، فإنا حكمنا فيما أمرنا الله تعالى أن يردّ إليه ما تنازع العلماء فيه من القرآن ، ومن السنة الصحيحة ، فلأيّهما شهد القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحة أخذناه . وأما هم فحكّموا على الصحابة رضى الله عنهم رأيَ مالك ، واختيارَ ابن القاسم ، فلينظر الناظر أى الطريقين أهدى ؟ فإن قالوا : ما يتهم مالك ، ولا ابن القاسم . قيل لهم : ولا يتهم سفيان ، ولا ابن المبارك ، ولا الأوزاعى والوليد بن مسلم [١٧٦ ظ] ولا الليث ومن روى عنه ، ولا أحمد بن حنبل ، ولا سائر الفقهاء ، فأى فرق بين تحكيم أولئك فيما اختلف فيه السلف ، و بين تحكيم هؤلاء ومن فوقهم من التابعين ؟

٨ ـ ثم قالوا : « وهو مع ذلك ضعيف الرواية عارٍ من الشيوخ ، وإنما هى كتبٌ حسّنها وأتقنها وضبطها ؛ فمنها مرويٌّ مما قد رواها على شيخ أو شيخين لا أكثر ، ومنها كتب مشهورة ثابتة بيده صحيحة ، مثل المسانيد ، والمصنفات والصحيح كمسلم والبخارى ، لا يمترى فى شىء منها ، ومنها ما قد خفى على المحتج لعدم الراوى لها ، وقلة استعمالها أو لطروثها وحدوثها فى بلدتنا لم يروها علماء بلدتنا ، ولا شُغِلُوا بها ، ولا سمعوا بها فيما مضى عمن مضى ، فنافروها ولم يقبلوا عليها ، فهم لا مكذبون لها ، ولا عاملون بها ، ثم إنهم رأوا فيها تغليب أحاديث قد

---

١٣ ـ قد رواها : قدروها
١٦ ـ لطروثها : لطرسها
١٧ ـ شغلوا : شماع
١٨ ـ مكذبون : يكذبون

تركت وسكت عنها الصحابة والتابعون ، والعلماء الماضون ، ومخالفة أحكام قد حكم بها السلف الصالح وقضوا بها واستمر الحكم عليها » .

فالجواب : ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إن هذا كلام مخلَّط فى غاية التناقض .

أما قولهم عنا بضعف الرواية ، والتعرِّى من الشيوخ ، فلو كان لهم عقول لأضربوا عن هذا ، لأنهم ليسوا من أهل الرواية فيعرفوا قويها من ضعيفها ، ولا اشتغلوا بها قط ساعة من الدهر ، وما يعرفون إلا المدونة على تصحيفهم لها ، وما عرفوا قط من الصحابة ، رضى الله عنهم ، رجلاً ، ولا من التابعين عشرة رجال ، ولا يفرقون بين تابع وصاحب ، سوى من ذكرنا ، فلا حياء يمنعهم من أن يتعرضوا للـكلام فى الرواية . وأكثر المتكلمين فى هذا الباب لا يقيمون الهجاء ، ولا يعرفون ما حديثٌ مسند من حديث مرسل ، ولا ثقة من ضعيف ، ولا حديث النبى صلى الله عليه وسلم من كعب الأحْبار ، وما منهم أحد يمزج له حديث موضوع مع صحيح فيميزه ، ثم يقولون : عارٍ من الشيوخ ، وهم ما كان لهم شيخ قط ، ولا عمروا لمجلس حديث ، ولا اشتغلوا [١٧٧ و] بتنفيذه ، إنما كان عندهم عبد الملك بن سليمان الخولانى ، فكان شيخاً صالحاً لم يكن أيضاً مـكثراً من الرواية ، ربما ألَمَّ به بعضهم إلمـامَ من لا يدرى مايطلب ، يخرجون من عنده كما دخلوا ، لم يعتدوا قط عنه كلمة ، ولا اهتبلوا بما يروى بلفظة ، إنما يقعُدون عنده قعود راحة ، إذا لم يـكن عليهم شغل . ثم لم يلبث هؤلاء الحشارة أن

---

٥ ــ قويها : قربها

١٢ ــ فيميزه . فيمزه

١٤ ــ فـكان : فـكانا // أيضاً : له أيضاً

١٤ ــ عبد الله بن سليمان الخولانى أبو مروان : محدث سمع بالأندلس ، وأفريقية ، ومصر ومـكة . قال الحميدى : وسمعنا بالأندلس من الـكثير ؛ قلت : وربما خالف هذا ما يقوله ابن حزم . توفى بميورقة قبل ٤٤٠ هـ (الجذوة : ٢٦٦)

أن نقضوا كذبهم خذلاناً من الله تعالى ، فشهدوا لنا بأنها كتب أتقناها وضبطناها ، منها مروى رويناها عن شيخ أو شيخين ، ومنها كتب مشهورة ثابتة بأيدينا مثل المسانيد المصنفات ، لا يمترون فيها . وهذا ضد ماحكموا من تعرّينا من الشيوخ ومن ضعف الرواية ، فهم لا يدرون ما يقولون ولا يبالون بالكذب والفضيحة ، لكنا والله نصفهم بما هم أهله بأنهم ماضبطوا قط كلمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن صاحب ولا عن تابع ، ولا يحسنون قراءة حديث لو وضع بأيديهم ، ولا يفرقون بين جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، ولا يفرقون بين رأى ورواية .

وأما أنّ من كتبنا ماخفى على المحتج لعدم الراوى لها وقلة استعمالها ، فما خفاء العلم على الجمير حجة على أهل العلم ، ولا قلة طلبهم لرواية السنن دليلاً على عدم الراوى ، بل الرواة ولله الحمد موجودون . فمن أراد الله تعالى به خيراً وفّقه لطلب مايقرّب منه ، ولم يشغله عما يغنيه ما لا يغنيه ومالا يغنى عنه من الله شيئاً ؛ وكذلك ليس قلة استعمالهم لتلك الكتب عيباً على الكتب ، إنما العيب فى ذلك على من ضيّعها ، وَحَظَّ نفسه ضَيَّعَ لَوْ عَقَلَ .

وأما ماذكروه من طروئها فى بلدهم ، فما بلدهم حجة على أهل العلم ، ولكن هكذا يكون إزراء السكارى على الأصحاء ، واعتراض أهل النقص على أهل الفضل . والعجب كله قولهم : « علماءنا بلدنا » ، وهذه والله صفة معدومة فى بلدهم جملةً ، فما يحسنون ولله الحمد لا رأياً ولا حديثاً ولا علماً [١٧٧ ظ] من العلوم إلا الشاذ منهم والنادر ممن هو عندهم مغموز عليه ، « والجاهلون لأهل العلم أعداء » ،

---

٥ ــ هم : هو
٧ ــ ورواية : رواية
١٠ ــ فمن : لمن
١٢ ــ إنما : إما
١٥ ــ هكذا : هذا
١٨ ــ مغموز : معموراً

ومن جهل شيئاً عاداه . والعجب أيضاً عيبهم كتب العلم بأنهم لم يُسْمَعْ ذِكْرُهَا عندهم ولا سمعوا بها فيما مضى ، فنافروها ولم يقبلوا عليها . إن هذا لعجب ، فإذا نافرت كتب العلم هذه الطبقة المجهولة الجاهلة ، فكان ماذا ؟ لقد أذكرنى هذا الجنون ما حكاه الأصمعى ، فإنه ذكر أنه مر بكنَّاسَيْنِ على حُشٍّ ، أحدهما يكيل والثانى يستقى ، والأعلى يقول للأسفل : إن المأمون سقط من عينى مذ قتل أخاه ! فما سقوط هذه الكتب عند هؤلاء الجهال إلا كسقوط المأمون من عين الكناس، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وأما قولهم : إنهم رأوا تغليب أحاديث قد تركت ، فليت شعرى من تركها ؟ لئن كان تركها تارك لقد أخذ بها من هو فوقه أو مثله ، وما ضرَّ الحديث الصحيح من تركه ، بل تاركه هو المحروم حَظَّ الأخذ به ، فإما مخطىء مأجور فى اجتهاده ، و إما عاص لله تعالى فى تقليده فى ترك السنة .

وأما قولهم : وسكتت عنها الصحابة والتابعون والعلماء الماضون . فقد كذبوا على الصحابة والتابعين ، وعلى العلماء الماضين ، ونسبوا إليهم الباطل، وكيف سكتوا عنها وهم رووها ونقدوها وأقاموا بها الحجة على من بعدهم كالذى يلزمهم .

وأما قولهم : ومخالفة أحكام قد حكم بها السلف الصالح : ما خالفوا قط حكماً صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، و إن كان واحد منهم أو اثنان خالفوا بعض ذلك ، فقد وافقه غير المخالف ممن هو ربما فوق المخالف له أو مثله ، والحجة كلها هى القرآن والسنة لا تركُ تاركٍ ولا أَخْذُ آخذ ، والحق حقٌّ أُخِذَ به أو ترك ، والباطل باطلٌ أُخِذَ به أو ترك ، وما عدا هذا فهذر وهذيان ، و بالله تعالى التوفيق . وما نعلم أشد خلافاً لما حكم به الصحابة والتابعون [١٧٨و] منهم ــ كم قصة فى الموطأ خاصة لأن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وغيرهم رضى الله

---

٤ ــ ماحكاه الأصمعى الخ ، انظر فى الامتاع ٢ : ٥٤ حكاية مشابهة .

٨ ــ قد : فقد .

عنهم خالفوها ! ! فمن السلف الصالح إلاّ هؤلاء لو عقلوا ؟ ونعوذ بالله من الخذلان والجبن .

٩ ــ ثم قالوا : « ثم رأوا تصنيفاً وتمثيلاً واشتقاقاً وتعريفاً ونتائج تلزم المرء على سبيل طريق الاحتجاج ، وظاهر القول مما يحكمه البيان ، وينطلق به اللسان وتصوِّبه اللغة وتقيمه الحجة وتصرفه الألحان من الكلام والأفانين من النحو وتحبير المعانى باللفظ وإشعارها بالحسّ وتنبيهها بالجرس ، فأنكروا ذلك وفرّوا عنه ، إذ لم يكن ذلك طريقة من مضى ولا سنن من به يُقتدَى ، فوقع النفار فى النفوس ، وجعلوا ذلك كله بدعة وحدوث شرع ، وزيادة وتنميقاً أحدثوه أصحاب الكلام ، وأهل البدعة .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق : إن فى هذا الكلام عبرة لمن اعتبر ، فأوّل ذلك إقرارهم لنا بأنهم رأوا لنا تصنيفاً وتعريفاً ونتائج تلزم المرء على طريق الاحتجاج وظاهر القول مما يحكمه البيان وينطق به اللسان وتصوّبهُ اللغة وتقيمه الحجة ويصرفه اللحن بأفانين النحو وتحبير المعانى فى اللفظ ، وإشعارها بالحس وتنبيهها بالجرس. وهذه ــ ولله الحمد ــ نعمة جليلة لله تعالى علينا لا نقوم بشكرها وهل الحق إلا فى النتائج اللازمة للمرء على طريق الاحتجاج ؟ أما سمعوا قول الله تعالى ﴿ فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [الرحمن : ٣٣] ، ولا خلاف أن السلطان هو الحجة ، وقوله تعالى : ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : ١٤٩] ؟ وإذا شهدوا لنا بالبيان فلله الحمد كثيراً ، ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ ،

---

٦ ، ٧ ــ فأنكروا : أنكروا . إذ : إذا

٨ ــ أحدثوه : كذا فى ص ؛ وله أشباه ـــ ولعله هنا نص قولهم فلم يغيره ابن حزم .

١٢، ١٣ ــ مما يحكمه : ما يحكم . ويصرفه : وصرف .

[الرحمن ١ ـ ٢] ، أما علموا أنّ القرآن بيانٌ من الله تعالى ؟ و إذا شهدوا لنا باللغة ، فصورة قولنا ، فقد فزنا ـ ولله الحمد ـ بالقدح المعلى ، قال تعالى : ﴿ قرآنا عربيًّا ﴾ [يوسف : ٢ / طه : ١١٣/الزمر : ٢٨ / فصلت : ٣ / الشورى : ٧/ الزخرف : ٣]، فإذا اللغة تشهد [١٧٨ ظ] لنا ، والقرآن بأيدينا ، فقد فلجنا ـ ولله الحمد ـ وخاب وخسر من خالفنا .

وأما قولهم فى خلال ذلك أنهم رأوا لنا تمثيلاً واشتقاقاً فكذب بحت . أما الكذب فدعواهم علينا التمثيل، فلسنا نقول به ولله الحمد ، لأنه من باب القياس الذى هو عندنا عين الباطل، لكنا نريهم بالتمثيل الذى يقرّون به تناقضَ أقوالهم و إفساد بعضها بعضاً . وأما الاشتقاق ، فقد عرف أهل المعرفة أننا لا نقول به فيما عدا الأوصاف من الصفات فقط .

وأما قولهم أنهم أنكروا كل هـذا وقد فروا عنه فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير . و إن من أنكر البيان والحجة وما يصوِّبه النحو واللغة وأشعر بالحس، لمخذول مُسَخَّم الوجه ، ونعوذ بالله من الضلال . وكذلك أخبارهم بوقوع النفار لهذا الحق ، وأنهم جعلوا كل ذلك بدعة ، فلا جرم قد قيل فى القرآن : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر ﴾ [المدثر ٢٤ ـ ٢٥] .

وأطرف من هذا كله، جعلهم القرآن والسنة بدعة و إحداثَ شرع ؛ فهل فى الحيوان أكثر من يجعل قولَ من قال: لا آخذ إلا بما صحَّ عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وأجمعت عليه الصحابة ، إحداثَ شرع ؟ فليت شعرى هل

---

٢ ــ فزنا : قرنا . بالقدح المعلى : بالقدح المعنى .

٤ ــ فلجنا : فلحنا .

٦ ــ واشتقاقاً : وإشفاقا .

٩ ــ أننا . لأننا .

١١ ــ قولهم : قولهم له

إحداث الشرع إلا فى الحكم فى التحريم والتحليل ، والرأى والظن ، لو عقلوا ؟

وأما قولهم : لم يكن هذا طريقة مَنْ مضى ، ولا سنن من به يقتدى ، فقد كذبوا وأفكوا ، وهل طريقة مَنْ مضى ومن به يقتدى إلا التمسك بالقرآن ، والأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وإنما الطريقة التى لم تكن قط طريقة من مضى ، ولا من به يقتدى ، هى طريقتهم فى تقليد إنسان بعينه ، فهذه البدعة المنفية التى لم تكن قط صدرَ الإسلام ، وإنما حدثت فى القرن الرابع ، ونعوذ بالله من الحدثان كلها .

١٠ ــ ثم قالوا : « وإن معنى الفقه غير معنى الكلام » [١٧٩ و] .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق ــ أن هؤلاء القوم ليسوا من أهل الفقه ولا من أهل الكلام ، ولا يحسنون شيئاً غير التناغى والقول الفاسد ، نحو ما أوردنا آنفاً من كلامهم آنفاً . وطريقة الفقه والكلام الصحيح ، إنما هى اتباع القرآن والسنن فقط ، وما عدا ذلك فباطل لا يجوز اتباعه ، وبالله تعالى التوفيق .

١١ ــ ثم قالوا : « فحملوا كتاب حدّ المنطق لأجل ذلك ، ولما فيه التعمق والعرض ، وترتيب الهيئات » .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق ــ إن هذا من ذلك الباطل . ليت شعرى أَدَخَلَ حدُّ المنطق فى السنن ؟ إن هذا لعجب عجيب ؛ ومن كانت هذه منزلته من الفهم ما كان حقه أن يعود إلا إلى كتاب الهجاء . ومن طرائف الدهر قولهم : ان فى حد المنطق ترتيب الهيئات ، وهذا أمر ما علمه قط أحد فى حد المنطق ، ونسأل هؤلاء السعوات عن حد المنطق هذا الذى يذمونه : هل عرفوه

---

١٠ ــ يحسنون : يحسبون // التناغى : التغاغى // والقول : والهيول
١٣ ــ كتاب حد المنطق : حد كتاب المنطق

أم لم يعرفوه ؟ فإن كانوا عرفوه فليبيِّنوا لنا ماوجدوا فيه من المنكرات . وإن كانوا لم يعرفوه ، فكيف يستحلون أن يذموا مالم يعرفوه ؟ ألم يسمعوا قول الله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ [يونس : ٣٩] ؟ ولكن إعراضهم عن القرآن إلى ما يطول عليه ندمهم يوم القيامة ، هو الذى أوقعهم فى الفضائح والقبائح ، ونعوذ بالله من الخذلان .

١٢ ــ ثم قالوا : « ولو صحَّ ما ذكرته من أمثال هذه الطرائق وإقامتها بالحجة والكلام ، فقام بذلك أمثالك ، ورووها عن الثقات المشاهير ، وأقاموها بالأسانيد الصحاح والرواية الصحيحة، حتى يوصلوها إلى من لايتهم من التابعين ، لوجب لخصمك اتباعهم فيه ولزومه والعمل به » .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق ــ إن هذا شهادة منهم على أنفسهم ،فليعلموا أن كل مانقوله لهم بأجمعهم منقول بالأسانيد الصحاح عن الرواة الثقات موصلة إلى النبى صلى الله عليه وسلم [١٧٩ ظ] ، فواجب عليهم ما التزموه من الرجوع إلى الحق . فإن شكّوا فى ذلك ، فالميدان بيننا وبينهم ، وهذه كتبنا حاضرة مروية عنا ، مبينة لخطنا وخطّ الثقات ، ممن أخذها عنا ، قد شرقت وغربت ، فهم بين خيرتين : إما أن يحضروا معنا ، ويسألوا عن كل خبر أوردناه ، فإن كان عندهم علم يعترضون به فليعترضوا ، وإن لم يكن عندهم فليسكتوا .

وأما أمنّا لهم ، وإن كرهوا ذلك ، فليمحصوا كتبنا . فإن كان فيها شيء غير الحق فقد مكناهم من مقابلتنا ، أو كفيناهم المؤنة فى إثبات ما يريدونه .

---

٢ ــ يستحلون : يستحلوا // يعرفوه : يعرفون
١٠ــ فليعلموا : فيعلموا
١٥ــ خيرتين : حيرتين // خبر أوردناه : خبر وردناه
١٧ــ أمنالهم : أمثالهم // فليمحصوا : فليمحوا

هيهات هيهات ، يأبى الله إلا أن يتم نوره، ولا تستر الشمس بالأكف، وما يعارض الحق بالجهل. فليعلموا أنا لم نأت فيها بحديث إلا من تصنيف البخارى أو تصنيف مسلم أو تصنيف أبى داود أو تصنيف النسائى أو تصنيف ابن أيمن أو تصنيف ابن أصبغ أو مصنف عبد الرازق، أو تصنيف حماد أو تصنيف وكيع أو مصنف ابن أبى شيبة أو مسنده أو حديث سفيان بن عيينة أو حديث شعبة أو ما جرى هـذا المجرى ، مما لا يقدر عدوُّ الله على القدح فيها ، وأضربنا عن الحديث المستور من رواتنا . صيانةً لأقدار الأئمة عن تعريفهم لمن لا يعبأ الله به شيئاً ، إلا فى الندرة مما لا بد من إيراده، وكل هذه الدواوين عندنا ــ ولله الحمد ــ روايتنا وضبطناه وتصحيحنا ، وذلك فضل الله ومننه، ولكنهم بُكْمٌ إذا ضمَّنا و إياهم مجلس، فإذا غابوا أتوا بمثل هذه البلاغم العفنة المضحكة ، ونعوذ بالله مما امتحنهم به .

١٣ ــ قالوا : « لكن بشرع زائد وعلم مبتدع انفردت به أنت من طريق نقلتها ، وخالفت فيها من مضى من طريق ما ظهر إليك واطلعت عليه من وهلة أو غفلة أو تضييع أو عىّ أو بلادة أو قلة فهم نسبته إلى الرواة المؤلفين للدواوين الراسخة ، لاتساعك فى الكلام ، ومعرفتك فى اللغة ، وتصديقك كتاب حد المنطق » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ [١٨٠و] أن هذا مما قد أخزيناهم فيه ، و بيَّنا أن الشرع الزائد والجهل المبتدع هو ماهم عليه من التقليد الذى قد نهى عنه من قلدوه ، والذى هم مقرُّون بأنه لا يجوز ، وكفى ضلالاً و بدعة وشرعاً مهلكاً لمن يدين الله تعالى بشىء يقرّ بأنه باطل ، وهذا يكفى من عقل ، و بالله تعالى التوفيق .

---

٦ ــ مما : ما // القدح : الكدح .

وأما قولهم : أننا انفردنا به وخالفنا من مضى، فكذب منهم بحت لم يستحيوا فيه من عاجل الفضيحة . وما انفردنا قط بقول ولله الحمد ، بل نحن أشد موافقة للصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم ، منهم . فقد ألفنا كتاباً ضخماً فيما خالفوا فيه الطائفة من الصحابة رضى الله عنهم بآرائهم، دون تعلق بأحد من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم . وهم لا يجدون لنا هذا ، إلا أن يجدوه فى الندرة ، ومما تعلقوا فيه من السنن الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فشتان بين الأمرين .

وأما قولهم : أننا نسبنا إلى الرواة المؤلفين للدواوين الراسخة الوهلة والغفلة والتضييع والعىّ والبلادة وقلة الفهم ، فقد كذبوا . وإنما بيّنّا بالبرهان الحقّ خطأ من أخطأ وصواب من أصاب فقط . وما العائب للصحابة إلا هم فى أحوالهم عن كل ماجاء عنهم ، واطّراحهم لجميع أقوال الصحابة استغناء عنهم برأى مالك وحده دون جميع فقهاء أهل الإسلام ، سالفهم وخالفهم .

وأما إقرارهم لنا بالاتساع فى الكلام والمعرفة باللغة ، فأمر لا نحمدهم عليه فى الإقرار ، لأنا لم تزدد بذلك فضلاً ، ولا يغضّنا جحدهم لذلك إن جحدوه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

١٤ — ثم قالوا : « وصنعت دواوين وحبرتها على ماقد ظهر إليك ، لم تقتنع بتواليفهم ولا صوبتها ولا رضيتها ، فخالفتهم وعبتهم فيما ألفوه وخطأتهم فيما صوّبوه، استنقاصاً لحقهم ، وتنكباً عن [١٨٠ ظ] قصدهم » .

فالجواب — وبالله تعالى التوفيق — أن هؤلاء القوم لا يستيحون من الكذب والبهتان ، يطلقون أننا رغبنا عن تواليفهم ولم نصوّبها ولا رضيناها ، وخالفناها ،

---

١٣ — لأنا : لاكنا . يغضنا : يقصنا .

وعبناها وخطأناها ، استنقاصاً لحقهم ، وتنكّباً عن قصدهم ، فهلاّ بيّنوا هذا الضمير إلى من يرجع ؟ وهذه التواليف ماهى ؟ لكننا نحن نبين ـ بحول الله تعالى ـ كل ذلك ببيان نشهد الله وتعالى وملائكته وكلّ من سمعه بأنه الحق وذلك أن الناس ألفوا : فألف أصحاب الحديث تواليف جمة ، وألف الحنفيون ، وألف المالكيون تواليف ، والشافعيون تواليف ، فلم يكن عندنا تأليف طبقةٍ من هذه أولى أن يلتفت إليه من تأليف غيرها ، بل جمعناها ولله الحمد وعرضناها على القرآن وما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلأيٍّ تلك الأقوال شهد القرآن والسنة أخذنا به ، وتركنا ما عداه .

وأمّا هم : « فخالفوا تواليف جميع أهل الإسلام أولها عن آخرها ، ولم يقنعوا بها ولا صوّبوها ولا رضوها ، بل خالفوها وعابوها وخطأوا أصحابها استنقاصاً لجميع أهل العلم من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، حاشا المدونة والمستخرجة فقط . فمن أشد استنقاصاً للعلماء ، ولكتب العلماء ، هم أم نحن ؟ وهل فى هذا خفاء على ذى بصيرة ؟ والحمد لله رب العالمين .

١٥ ـ ثم قالوا قولهم : « وخصمك لا يتهم أحداً من الآخذين عنهم كذلك ، ولا يقع فى نفسه أنك أفقه من مضى ، ولا أحذق ممن سلف ، ولا أدرى بالمعانى والأحكام والتأويل ، وعلم الناسخ والمنسوخ والأوامر والأفعال ، والعام والخاص والمحظور والمباح ، والفرض والندب ، إذ قد حووْا وطالعوا ما لا تحوى أنت عشر معشاره ولا تطالعه أبداً ، لقربهم من دار الهجرة ومعدن الرسالة ، ولصلاحهم [١٨١و] وإصلاحهم وورعهم ، وأنهم فى القرن المحمود الممدوح ، وأنهم قد طالعوا

---

١ ـ وعبناها : وعايناها // استنقاصاً : واستنقاصاً .

٩ ـ فأما هم : فأما قولهم .

١٠ ـ صوبوها : ضربوها .

١٤ ـ أحداً : أحد .

دواوين لم تطالعها أنت ، وأن من الدواوين ما لا تقف أنت على أسمائها » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ إنا قد بيَّنَّا أنهم هم المتهمون للصحابة والتابعين حقاً ، لأنهم كلهم عندهم فى نِصاب من لا ينبغى أن يشتغل به بطلب أقوالهم ، ولا يلتفت إلى شىء من فقههم إلا ما وافق مالـكاً فقط .

وأما قولهم : أنه لا يقع بأنفسهم أننا أفقه ممن مضى ، ولا أحذق ممن سلف إلى آخر الـكلام ، فهذا أمر لا ندعيه لأنفسنا ، ومعاذ الله أن نظن هذا ، ولـكن كما نظروا هذا النظر ، وأصابوا فى ذلك ، فلينظروا أيضاً أن مالـكاً وابن القاسم لم يكونوا أفقه ممن مضى قبلهما من الصحابة والتابعين ، ولا أدرى منهم بالمعانى والأحكام والتأويل،والناسخ والمنسوخ والأوامر والأفعال والخاص والعام، والمحظور والمباح والفرض والندب ، إذ قد حووا بلا شك من لقاء النبى صلى الله عليه وسلم ومشاهدته ما لا يحوى مالك وابن القاسم عشر معشاره ، ولا طالعوه قط ، لقرب أولئك من النبوة ومهبط الرسالة ، ولمضمون صلاحهم وورعهم ، وأنهم القرنان الفاضلان المقدَّمان على قرن مالك وابن القاسم . فإذن لم يكن تأخر مالك عنهم موجباً تقليد رجل منهم . إلا أننا نحن على كل حال ، ولله الحمد ، لا ندعوا إلى رأينا ولا قولنا ، وإنما ندعو إلى اتباع المضمون له أنه أفضل جميع الإنس والجن ، والمقطوع بعظمته، وأنه لايقول إلا الحق، والذى أمرنا الله باتباعه بإقرارهم إن كانوا مسلمين . وإلى هذا ندعوهم وهم يدعوننا إلى ترك ماصح عنه عليه السلام ، واتباع رأى مالك . وإذا كان سائغاً لهم عند أنفسهم خلاف سفيان الثورى ، وسعيد بن المسيب ، والزهرى لقول مالك ، وساغ لابن وهب ، وأشهب والمخزومى وابن الماجشون [١٨١ ظ] وابن نافع ، وابن كنانة مخالفةُ مالك فى مسائل جَمَّة ،

---

٢ ـ المتهمون : المتهومون .
٣ ـ عندهم : عندنا .
٤ ـ مالـكا : مالك .

فقد سوَّغ ذلك،وأوجب لنا وعلينا خلافَ مالك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما القرب من دار الهجرة ، فدار الهجرة باقية بفضلها ، لم يتنقص من فضلها شيء أصلاً ، وقلَّ غناء ذلك عن سكانها .

وأما قولهم: «لأنهم فى القرن(الممدوح المحمود) لورعهم وصلاحهم»، فما مالك أولى بذلك من فقهاء زمانه كسفيان والليث والأوزاعى ومعمر وابن عيينة ، وابن المبارك وغيرهم ممن قبله و بعده ومعه ، والفضل بيد الله تعالى لا بأهواء المتمنين .

وأما قولهم : إنهم طالعوا دواوين لم نطالعها نحن ، ومن الدواوين ما لا نقف على أسمائها ، فلعمرى مالشيوخهم ديوان مشهور ومؤلف فى نص مذهبهم إلا وقد رأيناه ولله الحمد ، كثيراً ، ككتاب ابن الجهم وكتاب الأبهرى الكبير ، والأبهرى الصغير،والقزوينى وابن القصار وعبد الوهاب والأصيلى ، ولقد كان ينبغى لهم أن يدخلوا فيها هذه الخبايا التى تركنا بها هؤلاء الجهال ، و إن كانت عندهم ، ولم يذكروها فقد غشوهم وظلموهم . و إن كانوا قد بلغوا الغاية فى ذلك الذى لم يقدروا على أكثر منها ، فما بال كلام هؤلاء الجهال بالأهذار المقِرَّة لعيون الشامتين ؟ ولكن لو عرف الناقص نقصه لكان كاملاً .

١٦ — ثم قالوا : « وهل تدعى (أنك) أنت أحطت بجميعها علماً ، وأحصيت ما فى جميعها حفظاً » ؟

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ أنه يعكس عليهم هذا السؤال ، يقال لهم:أتُرَاكم أحطتم بجميع تواليف العلماء ، وأحصيتموها؟ فإن قلتم: نعم،كذبتم لأنكم

---

١ ــ فقد سوغ : فبما سورغ من .
٣ ــ غناء : عنا
٨ ــ لشيوخهم : شيوخهم .
١٥ ــ أحطت : خطب .
١٨ ــ أحطتم : أخطأتم ، وهى كذلك حيثما وردت فى هذا النص .
١٨ ــ وأحصيتموها : وأخفيتموها .

لا تدرون شيئاً من الـكتب ، إلا خواصّ منـكم ، إلا المدونة والمستخرجة فقط . و إن قلتم : لا ، قيل لكم : فمن أين وقع لكم أن تدينوا الله تعالى بقول مالك دون قول من سواه لو نصحتم أنفسكم ؟ وأما نحن فقلنا : قد أحطنا ــ ولله الحمد ــ بكل ما يحتج به المخالفون [١٨٢] والموافقون ، جمعنا ولله الحمد صحيح أخبار رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمهور ما رواه المستورون ممن لم يبلغوا مبلغ أن يحتج بنقلهم . هذا أمر نهتف (به) ونعلنه على رغم الكاشح وصَغار وجهه ، فمن استطاع إنـكاراً فليبرز صفحته وليناظر مناظرة العلماء ، فمن عجز عن ذلك فليسأل سؤال المتعلمين ، أو ليسكت سكوت أهل الجهل الخبير بجهلهم . فإن أبوا إلا الرابعة ، وهى هذر النوكى. فتلك خطة عائدة على أهلها بالخزى والدمار فى الدنيا والآخرة ، والحمد لله رب العالمين .

١٧ — ثم قالوا : « و إنك تقصيت وأحصيت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كله أجمع أ كتع حتى لم يفت حظك منه شيء ، فتعمل من (غير تقليد) صاحب وتابع » ؟

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ قد قلنا ، إننا حصلنا بروايتنا وضبطنا ولله الحمد كلّ خبرٍ صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببرهان واضح، وهو أن المشهور من المسندات والمصنفات الموعية للأخبار،فقد جمعناها ولله الحمد، ولا يشذ عنا خبر فيه خير أصلاً ، وحتى لو لم نُحِط بها كلها لما وجب بذلك طرح ما بلغنا منها،بل كان يلزمنا أن نعمل بما بلغنا، ولو لم يكن إلاّ خبرٌ واحد،لا يحل غير ذلك . ثم نقول لهم : أترا كم أنتم أحطتم بجميع حديث النبى صلى الله عليه وسلم حتى تعلموا أنه شاهد لأقوال مالك ؟ ثم نحن ننزلـكم درجة : أترا كم أحطتم بجميع أقوال مالك ومسائله حتى لم يفتـكم منها واحدة ، فعلمتم أنها كلها حق ؟ هذا أمر يدرى الله تعالى أنـكم كاذبون فى كل ما تذ كرون فيه ، فما سؤالـكم إلا عائد

عليكم . وهكذا أعاده الله تعالى فيمن عَنَد عن الحق ، وفارق طريق السنة ، وبالله تعالى التوفيق .

١٨ ـــ ثم قالوا : « فخصمك لا يرى فى معتقده أن يتهم صاحباً ، ولا أن [١٨٢ ظ] يخطئه وينسب إليه غفلة أو تقصيراً ، وكيف وهم القدوة المرضيون الذين بهم قامت الشرائع وَ بُيِّنَت الحقائق » ؟

فالجواب ـ وبالله تعالى التوفيق ـ إننا ما نعلم أحداً أشد اتهاماً للصحابة كلهم من هؤلاء المقلدين ، ولا أعظم تخطئة لهم منهم ، لأنهم طرحوا جميع أقوال الصحابة ، رضى الله عنهم ، ولا يرونهم فى نصاب من يستحق أن تكتب أقوالهم إلا ما وافق رأى مالك ، فقد اعترفوا بمخالفة الذين قامت بهم الشرائع ، وثبتت بتبليغهم الحقائق . ونحن نسألهم فنقول لهم : أخبرونا ، إذا أوجدنا كم فى الكتب التى أنتم مقرُّون بها كالموطأ والبخارى أقوالاً صحاحاً عن الصحابة والتابعين (أتقرُّون بها) وبما جاء عن مالك ؟ فإن قلتم : بما صح عن الصحابة ، كذبتم وأفكتم : وإن قلتم بما جاء عن مالك، صدقتم واعترفتم باتهامكم للصحابة وتخطئتكم إياهم ، بخلاف ما قلتم هاهنا . فإن قلتم : لم يخالف مالك تلك الأقوال إلا بما هو أولى منها . قيل لكم: إذا خفى ذلك العلم الذى وقع عليه مالك على أولئك الصحابة، فأحرى وأمكن وأوجب على أن يخفى على مالك علم كثير وقفنا نحن عليه ، إذ نسبتنا نحن من مالك، أقرب من نسبة مالك من أقل صاحب من الصحابة ، لأن مالكاً وغير مالك لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً لم يبلغ نصف مُدٍّ شعير يتصدّق به أقلّ الصحابة . وليست هذه المنزلة ولا هذه الفضيلة لمالك على أحد من الناس ، بل نحن وهم من جملة المسلمين ، لا نقطع له ولا لنا بنجاة ، ولا نضمن لنا ولا له

---

٣ ـ يتهم : فيهم .

٤ ـ غفلة : عقله // تقصيراً : تقصداً .

الجنـة ولا العصمة ، بخلاف ضمان ذلك للصحابة رضى الله تعالى عنهم ، و بالله التوفيق .

١٩ — ثم قالوا : « ومن أحكامهم ما قضوا بها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر الحـكم عليها أو تتابعَ العملُ بها وهو حاضر معهم لا غائب ولا متخلف ، فهل كان تحلّ لهم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن يقضوا [١٨٣ و] بخلاف ما يرضاه ، أو يبلغهم عنه حكم فيرغبوا و يقتصروا على رأيهم، أو يؤثروا أقوالهم على قوله بعد علمهم بقوله ، و يتجنبوا ما يستحسنه عليه السلام ؟ فمعاذ الله وحاشا لله من ذلك ، فهم المُنَزَّهون عن كل شرّ،المظنون بهم كل خير، بهم قامت أعلام الدين ؛ ورسخ العلم ، وسطع الحق وأشرق النور ؛ وأينعت الحـكمة ، واتسعت السنة ، ولاح الدليل .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إن هذه التمويهات ليس بأيديهم غيرها، وهى كلها عليهم لا لهم .

أما قولهم فى أحكامهم التى قضوا بها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنحن الآخذون ، وهم المخالفون فى أكثر الأمر ، كقول أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً فأكلناه ، فخالفوهم بآرائهم فى هذا القول الظاهر إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحكم علىٌّ باليمين فى الثلاثة المتداعِين فى الولد بعلم رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى الإقراع عليه بينهم. وغير دلك كثير جداً ، وقد ذكرناه فى كتابنا ولله الحمد .

وأما قولهم : فهل كانت تحل لهم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أن يقضوا بخلاف ما يرضاه ، أو يبلغهم عنه حكم قد رغبوا عنه و يقتصروا على رأيهم

---

٩ ــ بهم قامت : لهم ماقامت/وأينعت: وأنبعت ، ولعلها : ونبعت .
١٩ ــ فهل كانت : فإن كانت .

بعد علمهم بقوله ، فإنه لايجوز أن يقصدوا إلى خلافه عليه السلام استخفافاً بأمره ؟ هذا مالا يظن مسلم . لـكن قد صح عن الواحد بعد الواحد منهم رضى الله عنهم أنه بلغه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأوَّل فيه تأويلًا ، كما روينا فى نهيه عليه السلام عن الحمر الأهلية ، فاختلف الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك ، فقال بعضهم : إنما حرمت لأنها كانت حمولة الناس . وقال بعضهم : إنمـا حرمت لأنها لم تـكن خُمُراً . وقال بعضهم : إنما حرمت لأنها كانت تأكل القذر . وقال بعضهم : بل حرمت ألبتة . فهذه التأويلات [١٨٣ ظ] كلها لايجوز أن تـكون كلها حقاً ، ولا يجوز أن يضاف إلى الله منها شيء دون شيء آخر بغير نص . فمثل هذا قد يتأوله المتأوِّل مقدراً أنه الحق . وهذا مالا يجوز قبوله ممن وهم فيه ، ومثل هذا كثير جداً .

وأمامدحهم الصحابة رضى الله عنهم، فنحن أمدح لهم منهم،وأعرف بحقوقهم وأشدتوقيراً لهم، ولـكن القوم مموِّهون يهوِّلون بمدح الصحابة و بإنكار خلافهم ، وهم أترك الناس لأقوالهم وأشد خلافاً لهم ، لايلتفتون إلى شىء من أقوالهم ، و إنما يكتبون أقوال مالك فقط . فما الذى أدخل تقليد مالك فى مدح الصحابة ، لو نصحوا أنفسهم ، و بالله تعالى التوفيق . و إذ يهوِّلون بمدح الصحابة رضى الله عنهم و يعظمون خلافهم، فنحن نسألهم عن المسائل المأثورة فى الموطأ وغيره عن عمر ابن الخطاب وغيره من الصحابة،أيأخذون بها أم يتركونها لقول مالك؟ فإن قالوا: مالك كان أعرف بما ترك من أين تركها . قلنا لهم : يكفيكم بهذا إقراركم مالـكاً أظفر بعلم خفى عن عمر ، وأمكن أن نحن نعلم كثيراً خفى عن مالك ولم يعرفه ، لما قد ذكرناه من النسبة والنسابة بين جميع الناس و بين مالك و بين أول الصحابة رضى الله عنهم ، و بالله تعالى التوفيق .

٢٠ ـ ثم قالوا : «فنفس هذا السائل تنازعه أن الذى عليه الأكثر والجمهور هو الهدى ، وأنه الطريقة المثلى ، لاتفاق العلماء ، وائتلاف الجماعة وتتابع العمل ،

واستقرار الأمر عليه . و بقوله عليه السلام: إن أمتى هذه لا تجتمع على ضلالة، و إن أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ إن هذا من العار والشنار الذى ينبغى أن يستحيي منه من له مسكة حياء وعقل ، لأن ما اتفقت عليه الجماعة وائتلفت فيه العلماء واستقر [١٨٤ هـ] الأمر عليه ، فلا خلاف فيه بين أحد من الأمة ، ولاهم أولى به من غيرهم . وأما ما اختلف الناس فيه ، فليس بعضهم أولى بالحق فيه من بعض ، إلا من وافق قوله القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ، فلا أضل ولا أجهل ولا أقل حياءً ممن يدين رأى مالك الذى خالفه فيه غيره من العلماء بأن يوجب اتِّباع الإجماع .

وأما قولهم : إن الذى عليه الأكثر فهو الهدى والطريقة المثلى ، فكلام فى غاية السخف ، لأن الحنفيين كانوا أكثر من المالكيين أضعافاً مضاعفة ، ولعلهم اليوم يوازونهم فى العدد ، والشافعيين أكثر منهم ، فينبغى أن يتبع الأكثر ، وقد قيل أهل المقالة تعد كثرتهم ، فينبغى أن يعود الهدى لذلك ضلالاً . وهذا كلام مبرسم لا يرضى به من له مسكة عقل . وقد كان مالك وحده ثم وافقه نفر يسير ثم كثروا . وقد كان القائلون بمذهب الأوزاعى كثيراً ثم انقطعوا ، وكل هذا لا معنى له .

ثم يقال لهم : إن التزمتم اتباع الأكثر فإن جميع أهل الإسلام مجمعون على أنّ اتباع النبى صلى الله عليه وسلم هو الواجب ، وأنه لا يلزم اتباع أحد دونه ، فلا تفارقوا هذا الإجماع فهو الحق المبين الذى من عاج عنه ضل فى الدنيا والآخرة.وأما قولهم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، فحديث موضوع ، ثم لو صحّ

---

٨ ـ يدين : يريد .

١٣ ـ وهذا : ولذا .

١٨ ـ وأما قولهم أصحابى : وأما قولهم أتباع النبى صلى الله عليه وسلم فقط وأما أصحابى .

لكان حجة عليهم ، لأنهم يلزمهم على هذا أن لا ينكروا على أحد قال بقولة قائلها صاحبٌ ، وقد صح عن بعض الصحابة ألا غُسل من الإكسال ، و إباحة الدرهم من الدرهمين ، و إباحة المتعة ، وأكل البَرَد للصائم ، وغير ذلك كثير لا يقولون به . و بالجملة إن القوم فى هذر وعمى لا يحسنون ، ولا يبالون ما يتكلمون به ، والله أعلم .

٢١ ــ ثم قالوا : « و يخشى أن يكون غيرك ببلدة أخرى فيأتيه [١٨٤ ظ] ببرهان ودليل وحجة تقهره بخلاف ما قد أوضحت أنت و بينته له ، فيقع فى نفسه أنه الحق ، فينصرف إليه و يعمل بما قد رواه له وأوضحه لحديث قد صح عنده ورواه لم تطلع أنت عليه ولا أحصاه حفظك ، ولا أحاط به علمك ، فلا يدرى بمن منكما يثق ولا بأيكما يتعلق ، فيظل حيران هائماً ، وكل واحد منكم يأتى بحجة و برهان ودليل ، و إذ حديث النبى صلى الله عليه وسلم كثير متسع أكثر من أن يحاط به أو يحصى ، و يدعى غيرك أن الحديث الذى ترويه أنت هو الناسخ بأصح أسانيد »

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إن هــذه طريق ضلال ، ومن تلاعب الشيطان بمن أراد الله تعالى به الخذلان . ولو وجب أن لا يرجع أحد إلى ما قام به البرهان خوف أن يأتيه غيره بحجة أخرى ، لما وجب أن يؤمن كافر أبداً ، ولا أن يتوب مبتدع أبداً ، ولا أن يرجع مخطىء إلى حقيقة أبداً ، لأنه يقول اليهودى والنصرانى والمجوسى والثنوى إذا أخذته الحجة ، وقام عليه البرهان : كيف أرجع إليك ولعل غيرك يلقانى يوماً ما فيأتينى بحجة و برهان ودليل يقهرنى ، بخلاف ما أوضحت أنت و بيّنت ، فأرجع إليه أيضاً ، وهكذا أبداً ؟ و يقول للخارجى والرافضى والمرجىء والمعتزلى إذا قامت عليه الحجة ، وأثبت له البرهان : كيف أرجع إلى قولك ، ولعل غيرك يلقانى يوماً فيأتينى بحجة و برهان ، ودليل يقهرنى بذلك بخلاف

---

٧ ــ لحديث : الحديث .

١٣ ــ أراد : رأه .

ما وضحت أنت و بينت فابقى حيران ؟ و يقول الحنفى والشافعى والحنبلى كـذلك أيضاً سواء سواء ، فعلى هذا القول الباطل يجب أن يبقى اليهودى على دينه ودين أبيه ، والنصرانى كذلك والمجوسى كذلك والثنوى كذلك والمعتزلى كذلك والخارجى كذلك . فأى قول فى الأرض أبعد عن الهدى من قولٍ أدّى إلى هذه الطريقة ؟ وهذا [١٨٥ و] باب لا تنجلى الحيرة فيه عن الممتحن بها بكلام يسير ، ولا بد لطالب الحقائق من أن يسمع حجةَ كلِّ قائل ، فإذا أظهر البرهان لزمه الانقياد والرجوع إليه ، و إلا فهو فاسق . والبرهان لا يجوز أن يعارضه برهان آخر ، فالحق لا يكون شيئين مختلفين ولا يمكن ذلك أصلاً ، والحق مبين فى الملل والديانات بموجب العقل،والبراهين الراجعة إلى أوّل الحس والضرورة . فلا بد لمن أراد الوقوف على الحقائق من طلب العلم المؤدى إلى معرفة البرهان ، والحق يسير فىالنحل بالرجوع إلى القرآن الذى اتفقت عليه الفرق، و إلى الإجماع المتيقن . فلا بد لمن أراد الوقوف على الحقائق فى ذلك من الوقوف على ما أوجبه القرآن وصحّ به الإجماع . والحق يتبين فيما اختلف فيه العلماء بالرجوع إلى ما افترض الله تعالى الرجوع إليه من أحكام القرآن والسنن المسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فواجب على كل مسلم طلبُ ما يلزمه من ذلك والبحث عنه واعتقاده الحق إذا صح عنده ، وكل هذا لا يدرك بالأمانى الفاسدة ولا بالأهذار الباردة ولا بالدعاوى الـكاذبة ، لـكن بطلب أحكام القرآن والبحث عن الحديث وضبطه والاشتغال به عما لا يجدى ولا يغنى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (أما قولهم) : إن حديث النبى صلى الله عليه وسلم متسع جداً أكثر من أن يحصى أو يحاط به ، و يدعى غيرك أن الحديث الذى ترو يه أنت منسوخ والذى يرو يه هو هو بأصح أسانيد ــ فـكلام باطل ؛ بل حديث النبى صلى الله عليه وسلم محصىّ مضبوط مجموع مستقصى ولله الحمد . ومن ادعى فى حديث أنه ناسخ أو منسوخ لم يصدَّق ألبتة إلا بأن

٢١ ــ مستقصى : مقتصى .

يأتى على ما يدعيه بذلك بنص صحيح يخبر أنه منسوخ ، أو بإجماع صحيح يخبر أنه منسوخ ، أو بتقدم تاريخ مع تعذر الجمع بينهما ، وكل هذا سهل ممكن لمن طلبه لا لمن قعد يهذر و يشتغل بالحديث البارد ، و بالله [١٨٥ ظ] تعالى التوفيق .

وأما قولهم : « إذ كل ما ذكرتم مانع من الرجوع إلى ما قامت به البينة . فالحجة عندكم فيما اعتقدتم مذهب مالك ولعل غيره أصح منه . فإن قالوا : وجدنا عليه من وثقنا به من شيوخنا . قيل لهم : وهكذا يقول أهلُ كلِّ مذهبٍ فيما هُمْ عليه ، وهكذا يقول أهل كل مِلَّة فيما هم عليه ، وهكذا يقول أهل كل نحلة فيما هم عليه : أنهم كلهم وجدوا على ماهم عليه من وثقوا به ، ومن لا يتهم بأنه ماجهل الحق ، ولا أنه قال الباطل . فحصلنا من هذا الجنون على لزوم الضلال وعلى قوله تعالى : ﴿ إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٧] . ويقال لهم : لا يخلو السائل عن هذا من أن يكون ممكناً منه طلب العلم وفهمه ، أو يكون غبياً لا يقدر على الطلب . فإن كان ممكناً منه طلب العلم، فليطلب وليبحث حتى يقف على البرهان و يعرفه . و إن كان غبياً . فليقل لمن أفتاه بشىء فيما نزل به : أهكذا أمر الله تعالى ورسوله ؟ فإن قال له : نعم ، أخذ به . و إن قال : لا ، أو قال له : هذا قول فلان،وذكر أحداً من دون النبى صلى الله عليه وسلم من صاحب أو تابع أو فقيه أو سكت عنه ، لم يلزمه اتباعه ، وطلب عند غيره ، و بالله تعالى التوفيق .

٢٢ ــ ثم قالوا : « ومما يحتج به عليك أيضاً أن أسماء الرجال والتواريخ تختلف فى الآفاق والأسانيد ، فمنها مافيه الضعيف قوى ، والقوى ضعيف ، فكيف لك بالتغليب فى الأحاديث المتضادة المتعارضة ؟ وقد يكون الرجال فى الحديث

---

١ ــ يخبر : غير .
٥ ــ فالحجة : الحجة .
١١ ، ١٢ : غبياً : عيناً .
١٧ ــ ومما : وما .

الذى يروونه فى طريق النهى، هم الذين يروونه من طريق الأمر، أو يتفرقوا فيكونوا هم ثقات لا داخلة فيهم ، إن غلبت أصحاب النهى ، فقد كذبت أصحاب الأمر وليسوا أهلا للتكذيب » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ أن هذا لا يدرك بيانه إلا بطلب العلم والبحث ، لا بالنهى والجلوس . والذى ذكروا من اختلاف التواريخ هو كما قالوا ، ولكن اختلافهم [١٨٦ و] فى الواحد يجرّحهُ قوم و يعدّله آخرون قليل جداً . والقول فى ذلك أن المختلف فيه إن كان ممن اشتهرت عدالته فى ضبطه ، فالتعديل أولى ، حتى يأتى المجرّح ببيان جرحة تسقط لها عدالته . وأما من كان مجهول الحال ، فالتجريح أولى به من التعديل ، بل لأن أصل الناس الجهل بهم والجهل منهم حتى يصح عليهم العلم بهم .

وأما الأحاديث المتعارضة ، فقد بينا جملة العمل فيها فى غير ماموضع من كتبنا، و بيّنا ذلك فى أشخاص الأحاديث والحمد لله رب العالمين . ونحن نذكرها هنا جملة كافية إن شاء الله تعالى فنقول ، و بالله تعالى التوفيق : إن الحديثين إذا نظرا ، فإن كان أحدهما صحيح السند ، نظر . فإن كان أحدهما أقلّ معانى من الآخر ، استعملا معاً إن كان كلاهما نهياً أو كان كلاهما أمراً ، ولم يجز ترك شىء منهما ، أو استعملا معاً أيضاً ، بأن نستثنى أحدهما من الآخر إن كان أحدهما نهياً والآخر أمراً لايجوز ترك واحد منهما للآخر . و إن لم يمكن استعمالها ألبتة ، طلب الناسخ منهما من المنسوخ . فإن عرف ببرهان لا بدعوى لكن بنص آخر يبيّن أن أحدهما هو الناسخ ، أو بإجماع على ذلك ، أو بتأريخ فيهما ، أخذ الناسخ وترك المنسوخ . فإن لم يوجد ليل على شىء من ذلك ، فالزائد ، لأنه شرع وارد لايجوز تركه ، ولأنه بيقين

---

٢ ـ كذبت . ذكرت .

١١ ـ وأما الأحاديث المتعارضة الخ : قارن ماقاله هنا بما جاء فى الأحكام١ :١٣٦ـ١٣٧

دافع لحكم الخبر الآخر وزائد عليه ، فلا يحل ترك اليقين . وهذه وجوه لا يخرج عنها خبران متعارضان أبد الأبد ، والحمد لله رب العالمين .

ثم نعكس عليهم هذا السؤال بعينه فنقول : إذا اختلفت الرواية عن مالك لوجهين أو ثلاثة وأربعة ، وهذا كثير لهم جداً ، فبأيهما تأخذون ؟ أتغلّبون رواية ابن القاسم؟ فقد كذبتم ابن وهب وأشهب ومطرف وغيرهم، وليسوا أهلا للتكذيب، أم كيف تفعلون ؟ فهذه هى الحيرة والضلالة حقاً ، لا ما قد بيّنَهُ الله تعالى وأوضحه ورفع الأشكال فيه ، والحمد لله رب العالمين [١٨٦ ظ] .

٢٣ ـ ثم قالوا: « ونجد العلماء أيضاً يختلفون فى التأويل ولا يتفقون ،فكيف نوافقك على أن التأويل فى آية كذا هو أمر كذا على ظاهر الآية ، وإن الآية لا تحتمل تأويلا غير ظاهرها » ؟

فالجواب ـ وبالله تعالى التوفيق ـ أن هذا كلامُ مختلطٍ فى قوله ، فكيف يوافنا على أن التأويل فى آية كذا هو أمر كذا على ظاهر الآية ؟ وأن الآية لاتحتمل تأويلاً ؟ وهذا برسام هائج لأن القول بالتأويل خلاف الأخذ بالظاهر بلا شك ، وهم قد ساووا هنا بين الأمرين ، ونحن لانقول بالتأويل أصلاً إلا أن يوجب القول به نصّ آخر وإجماع أو ضرورة حسّ ، ولا مزيد . وإلا فمن ادعى تأويلاً بلا برهان ، فقد ادعى ما لا يصح ، فدعواه باطل ، ولا يحل أن يقال إن الله تعالى لم يرد بهذه الآية إلاّ معنى كذا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرد بهذا القول إلا معنى كذا ، من غير أن يأتى نصٌّ وإجماع بذلك ، لأن من قال هذا من عند نفسه ، فقد تقوّل على الله تعالى وعلى رسوله عليه السلام ما لم يأت له حجة خبرٍ عنه تعالى ولا عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

---

٧ ـ ورفع : ووقع .

وأما قولهم : إن العلماء اختلفوا فى التأويل ، فنعم ، وليس قول أحد منهم حجة على الآخرين منهم ، والواجب ردُّ ما تنازعوا فيه إلى ما أمر الله تعالى بالرد إليه ، إذ يقول عز وجل : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : ٥٩] ونحن نعلم أن الله تعالى إذا نص على شىء فهو الذى أراد منا ، ولو أراد غير ما خاطبنا به لبينه لنا بلا شك . فإذا لم يفعل ، فما أراده قط . فمن ادعى أنه أراده فقط ، فقد قال الباطل . والأمر فى هذا أبين من الشمس لمن أراد الله به خيراً ولم يرد أن يضله .

ثم نسألهم بهذا القول بعينه ، فنقول لهم : قد تنازع العلماء كما قلتم فى التأويل ، فما الذى جعل تأويل مالك أولى من تأويل غيره ، لو كان لكم اهتبال بأديانكم ، ونسأل الله تعالى العصمة [١٨٧ و] .

وأما قولهم : « وهو يجد غيرك يحدثه فى تلك الآية بغير ما حدثته بزائد فيه أو بناقص منه » ، فإنه إن وجد عند غيرنا حديثاً صحيحاً لم يجده عندنا أو زيادة صحيحة ليست عندنا ، فواجب عليه الأخذ به كما كنا نفعل لو وجدناه ولا فرق ، وليس كلا منا ولا كلام غيرنا حجة على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحجة علينا وعلى كل أحد ، وما ندعو إلا إليه فقط ، وبالله تعالى التوفيق .

٢٤ — ثم قالوا : « ثم إنك تنهى عن النظائر والتفريع والتناتج والقياس ، ثم تأتى بما هو أشد وأشنع ، وذلك أنك تخالف مسائل كثيرة عما وردت واستقرت عليه وصحَّ العمل بها ، وتدعى أنت خلافها من طريق ظاهر الحجة والاتساع فى اللغة والتصريف فى الكلام ، فتذهب إلى التشقيق والتناتج ، ومن سبقك من

---

١ ــ قولهم : قوله .

١١ ــ بغير ما : مكررة فى ص .

المتقدمين العالمين بالسنة و باللغــة لم يكلفوا أنفسهم ما تتكلفه ، ولا غاصوا فى المسائل، ولا أحالوها عن ماوردت عليه على حسب مفهومها ومسموعها، وتورعوا أن يقولوا : هذه مسألة فيها لأهل الـكلام تصريف معان واحتجاج يؤدى إلى العقل قبول ذلك و يصوِّبه » .

فالجواب ـ وبالله تعالى التوفيق ـ إن هذا كلام إنسان مخبُول العقل يتناثر تناثر الرمل ولا يعقل . فأول ذلك أنهم أنـكروا نهينا عن النظائر والتفريع والتناتج والقياس ، فخلطوا تخليطاً بجنون ؛ وما نَهَيْنَا قط عن التفريع والتناتج ولا عن النظائر إذا وقعت تحت نوع واحد ، لـكن نهينا عن القياس جملة ، فجمع هؤلاء بين المختلفات جَمْعَ أهل الجهل حقاً . والتفريع هو ذكر تصاريف المسألة التى يجمعها جملة النص ، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من زاد فى صلاته أو نقص فليسلم ، ثم يسجد سجدتين »؛ فنقول : من صلى ستاً أو سبعاً ساهياً فقد دخل فى هذا الحديث [١٨٧ ظ] ، لأنه زاد فى صلاته ، ومن زاد سجدة أو سجدتين أو سجدات ساهياً فقد دخل فى هذا الحديث ، لأنه زاد فى صلاته . وهذا كثير جداً لو جمع لقام منه جزء ضخم . والتناتج هو نحو قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » ، فأنتج هذا أن المسكر حرام . وأن السيكران خمر ، وأن كل نقيع العسل إذا أسكر خمر ، ومثل هذا كثير جداً . والنظائر هى كقوله عليه السلام : « إذا أقبلت الحيضة فاتركى الصلاة » ، فكل حيضة فهى نظير تلك الحيضة فى النوعية ، والحكم لازم لها لزوماً، وهذا كله هو الظاهر بعينه ، والنص بعينه .

وأما القياس فهو غير هذا كله ، وإنما هو أن يحكم لما لم يأت به النص بما جاء به النص فى غيره ، كحـكمهم فى تحريم الجوز بالجوز متفاضلاً ونسيئة ، قياساً على تحريم الملح بالملح والقمح بالقمح والتمر بالتمر متفاضلاً ونسيئة ، وهذا هو الباطل

الذى لا يحل القول به ، لأنه شرع لم يأذن به الله . وقد تقصينا الكلام فى هذا كله فى غير هذا المكان ، ولكنا لا نفقد مهذاراً يكرّر السؤال فنكرر له الجواب ، إقامةَ حجة الله تعالى عليه ، و بالله تعالى التوفيق .

ثم نعود إلى تخليطهم فنقول لهم : إن قولهم : « إننا نأتى بما هو أشد وأشنع » ، هو قول كان ينبغى لهم أن يبينوه و إلا فهو كذب و بهت . ثم ذكرتم أننا نخالف مسائل كثيرة عما وردت واستقرت عليه وصحّ العمل بها ندعى نحن خلافها من طريق ظاهر الحجة والتصريف فى اللغة والاتساع فى الكلام ، أىُّ عمل هو ، وعمل من هو ؟ فإن كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم إذا صلوا (فليصلوا) كصلاته قاعداً بالناس فى الفريضة ، وكتسليمه مرتين من الصلاة ، وكمسحه على العمامة ، وغير ذلك كثيراً جداً . و إن كان عمل الصحابة رضى الله عنهم فقد ذكرنا فعلهم، وعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إضعاف القيمة على رقيق [١٨٨ و] حاطب ، وعمله فى حكمه بأن يكون القراض مضموناً بحضرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وغير ذلك كثير . ودِدت لو بينوا لنا عمل من يريدون ؟ عمل قضاتهم بالأندلس وأفريقية ؟ فما جعل الله تعالى أولئك حجة على واحد ، وما أوْلىَ باتباع عملهم من قضاة خراسان وسجستان والسند وسائر بلاد الإسلام من الحنفيين والشافعيين ، والله أعلم .

وأما قولهم : « إن من سبقنا من المتقدمين العالمين بالسنة واللغة لم يتكلفوا قط

---

٨ ــ ٩ : فإن كان عمل رسول الله . . . الخ : جاء فى الأحكام ٢ : ١٠٠ ــ ١٠١ وكان آخر عمله عليه السلام الصلاة بالناس جالساً وهم أصحاء وراءه ، إما جلوس على قولنا وإما قيام على قول غيرنا ، فقالوا هم [أى المالكية] صلاة من صلى كذلك باطل (وانظر أيضاً ٢ : ١٠١) .

١٠ ــ ١١ : وإن كان عمل الصحابة . . . الخ : ورد مثله فى الأحكام ٢ : ١٠٧ ــ ١٠٨ وفيه تفصيل لما خالفوه من أعمال عمر .

١٢ ــ حاطب : خاطب // القراص : القراض .

غير طلب الحق فى القرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فإن كانوا لم يتكلفوا ذلك فبئس ما فعلوا ولقد ظلموا أنفسهم و بئس ما أثنى عليهم هؤلاء المخاذيل ، و إن كانوا لم يغوصُوا فى المسائل ، فما أحسنوا فى ذلك ، مع أنهم أيضاً كذبوا عليهم ، فما ندرى أحداً أكثر غوصاً على ما لا يكاد يقع من المسائل منهم.

وأما قولهم : « ولا أحالوها عما وردت على حسب مفهومها ومسموعها »، فهذا هو مذهبنا الذى ندعو الناس إليه ، وهم لا ينكرون علينا إلا هذا بعينه ، فلو عقل هؤلاء القوم ما هذروا هذا الهذر ، ونعوذ بالله من الخذلان .

٢٥ ــ ثم قالوا : « كقولك فى المصلى : إن له أن يقول عند افتتاحه الصلاة : الكبير الله أو كبير الله ، والله الأكبر ، واحتججت فيه بكلام كثير ، وأن اللفظ بالتكبير إنما جاء على العموم ، فكل ما كبر به الله تعالى فهو تكبير ، وأن من كبر « الله أكبر » فقد خص ، وكيف خص وهو لم يبلغه قط أن النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى من دونه من صاحب أو تابع أنهم كبروا فى الصلاة بما عدا « الله أكبر » ، فصار عموماً عندهم إذ لم يبلغهم غيره ولا صح سواه » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ أن الذى ذكروا عنا أنا قلناه هو قولنا حقاً ، وقد أوردنا حجتنا ، ولم يأتوا بمعارضة فيها أصلاً أكثر من دعواهم ، أنه لم يبلغهم قط عن النبى صلى الله [١٨٨ ظ] عليه وسلم إلى من دونه من صاحب وتابع أنهم كبروا فى الصلاة بما عدا الله أكبر. فيقال لهم : هبكم ، لو صح ذلك عندكم ، كما قلتم لما كان لكم فى ذلك حجة ، إذ لم يمنع عليه السلام ولا أحد من الصحابة أن يكبروا بغير الله ، وقد أجاز أبو حنيفة رضى الله عنه وغيره أن يفتتح الصلاة بالله أعظم . و يقال لهم : إن كان عدم البلاغ بافتتاح الصلاة بما عدا « الله أكبر »

---

٢ ــ يتكلفوا : يكلفوا .
٣ ــ يغوصوا : يعرضوا .
١٤ــ هو : وهو .

حجةً عندكم ، فمن أين أجزتم تنكيس الوضوء ، ولم يأت قط عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحدٍ من الصحابة والتابعين أنه نكس وضوءه ؟ فأيّ فرق بين النقلين ؟ فجعلتم النقل الواحد حجةً والآخر غير حجة . فإن قالوا : الواو فى اية الوضوء لاتعطى رتبة . قيل لهم : والأمر بالتكبير لا يقتضى أنه لا يكبر بغير « الله أكبر » ، ولا فرق . ولا سبيل لهم من الانفكاك من هذا ألبتة ، و بالله تعالى (التوفيق) .

ثم يقال لهم أيضاً : هل بلغكم قط أن أحداً من الصحابة والتابعين أو تابعى التابعين قلّد رجلاً واحداً دون النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله كله ، كما فعلتم أنتم بمالك ؟ فإذا لم يبلغكم ذاك ، فكيف استحللتموه وقد صحّ النهى عن التقليد ، وأمرتم باتباع القرآن والسنة فقط ؟ فكيف صار العمل عندكم « بالله أكبر » حجةً ، ولم يأت قطٌّ نهى عن التكبير بالله الكبير ؟ ولم يكن العمل بترك التقليد لإنسان بعينه حجة عندكم ، وقد صحَّ النهى مع هذا العمل عن التقليد لها . فى هذا عجب لمن عقل ، ونسأل الله تعالى التوفيق .

٢٦ ـ ثم قالوا : « وإنك تقول من صلَّى ثمانى ركعات ونسى من ركعة سجدة ، فقد أجزأته وصلَّى كما أمر ، وأنها صلاة تامة مجزئة عنه » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ إننا هكذا قلنا ، وهو الحق عند الله ، وكل من قال غير هذا فمخطىء عند الله عز وجل بلا شك ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم [١٨٩ و] قال: «من زاد فى صلاته أو نقص فليسلّم و يسجد سجدتين » ، وهذا قد زاد فى صلاته ساهياً قياماً وركوعاً وعمل باقى ذلك وسجد ثمانى سجدات كما أمر ، فهو معفوٌّ عنه بالنص و يسلم و يسجد للسهو ، كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن أخبرونا أنتم : من أين قال قائلكم إن من صلَّى خمس ركعات ساهياً أن صلاته تامة و يسجد للسهو ، و إن صلى ستّاً ساهياً بطلت صلاته ، لأنه زاد فى صلاته مثل نصفها ؟ فيالت شعرى من أين خرجت هذه الشريعة الجديدة ؟

وأين قال الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم : إن من زاد فى صلاته أقل من نصفها ساهياً صحت له ، و إن من زاد فيها مثل نصفها ساهياً بطلت ؟ وهل جاء بهذا قرآن أو سنة صحيحة أو سقيمة أو قولُ صاحبٍ أو معقول أو قياسُ شيء له وجه فى الصواب ؟ حاشا الله من هــذا ، بل القرآن والنص من السنة الثابتة والمعقول والقياس كلٌّ ذلك يكذّبُ هذا القولَ الفاسد . أما القرآن ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ [الأحزاب : ٥] ، ولم يخصَّ تعالى خطأ من خطأ ، فلا يجوز أن يخص شيئاً من ذلك إلا أن يأتى بتخصيص شيء منه نص قرآن أو سنة أو إجماع . وأما السنة فقول النبى صلى الله تعالى : « من زاد فى صلاته أو نقصَ » ، فلم يخصَّ عليه السلام (من) يفعل شيئاً من الدين يستدركه عليه غيره برأيه الفاسد ، أو يريد منا ما لا يبلغه إلينا ، هذا كله ضلال فاحش ممن قاله . وأما الإجماع ، فما نعلم أحداً قال بهذا القول قبل القائل به منهم ، فلا فرق بين زيادة ركعة أو ركعتين . فإن قالوا : مقدار النصف كثير . قيل لهم : عهدنا بكم تقولون : إن الثلث هو الـكثير ، قلتم ذلك فى الحوائج وغير ذلك ، فما الذى جعله هاهنا فى حدّ القليل ؟ أما هذا مّما ينبغى أن يرْغَبَ عن القول به كلٌّ من نصح نفسه ، و بالله تعالى التوفيق .

٢٧ ـ ثم قالوا : ١٨٩ ظ] « وكذلك تقول : إنه من نسى القراءة فى الركعة الأولى ولم يذكر حتى صلّى ، أن صلاته فاسدة منتقضة ، وأنّه لم يصل كما أُمر ، وغيرك يقول : يلغيها و يأتى بركعة مكانها و يسجد لسهوه و يتم صلاته ، والله أعلم » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ إن هــذا كذب وجهل ، وما قلنا قطّ ما ذكروا ، بل قولنا إنه كبّر ، ثم نسى القراءة فى الركعة الأولى أو فى ركعتين أو فى أكثر ، ثم ذكر ، فإنه يبنى على تـكبيره و يأتى بما بقى فى صلاته كما أمر ،

---

٧ ـ بتخصيص شيء بتخصيص ثم بشيء .

ثم يسجد للسهو بعد السلام كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه زاد في صلاته ذلك الوقوف الذى تعدّى فيه . ولكن يقال لهم : أين هذا الجواب الذى أجبتم به فى هذه المسألة ؟ لعلها صلاة الصبح من قولكم إن من زاد فى صلاته مقدار نصفها بطلت صلاته . فلم أنكرتم علينا قولنا فيمن نسىَ فصلّى ثمانى ركعات ساهياً أن صلاته تامة ؟ وهذا لا مَخْلص لهم منه ألبتة ، و بالله تعالى التوفيق .

٢٨ — ثم قالوا : « وكذلك تقول أيضاً : إن من ترك حرفاً واحداً من الحمد ولو واوا ولم يقرأه ناسياً ، فقد بطلت تلك الركعة ، و بطلت الركعة التى تليها ، لأنه لم يقرأ كما أمر ، وأن عليه الرجوع من حيث ترك و يتم قراءتها ، وكذلك (لا) تصح له الركعة التى ترك فيها الحرف من الحمد لله ناسياً ، أرأيت لو ترك قراءة الحرف من الحمد فى أول ركعة من صلاته ، ولم يسقط شيئاً من ذلك فى سائر صلاته التى عليه ، (فعليه) على أصلك أن يأتى بركعة ولا بد ؟ وأنت قلت : إذا فسدت أول ركعة من صلاته فقد فسدت كلها ، ولا يصح أن يلغى تلك الركعة ولا يعتد بها ، و يبنى على ما صح من الركوع بعد فساد تلك الركعة ، لأنك قلت : متى بطلت ركعته الأولى فقد بطلت تكبيرة الإحرام » .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق . [١٩٠ و] أن هذا الكلام كله كذب و إفك ، وماقلناه قط ولا علمنا قطّ بقوله ، فليبيِّنوا لنا من أين رووه لنا ، أو من أخبرهم بذلك عنا من ثقات أصحابنا ؟ فلا سبيل لهم إلى أحد الوجهين أبدًا ، وماقلنا إلا أنه إذا لم يكبّر الإحرام فهذا لم يدخل بعد فى الصلاة فلا صلاة له . وأما إذا كبر كما أُمر ثم أنسى حرفاً من أم القرآن ولم يذكر إلا فى آخر صلاته وقد صلى الركعات

---

٣ ــ من قولكم إن : من قولكم إن من قولكم إن .

٤ ــ صلاته فلم أنكرتم : صلاته فإن لم ، ثم قالوا فلم أنكرتم ؟ وهو نص مضطرب .

١٦ ــ من أين رووه : فى أين رواه .

الباقيات بأم القرآن ، فإنه يعيد فى الركعات التى قرأ فيها بأم القرآن ويلغى الركعة التى أسقط منها الحرف من أم القرآن ، ويأتى بركعة ، ثم ليسلم وليسجد للسهو ، فإن (ذكر) ذلك قبل أن يقرأها من الركعة الثانية ، عاد إلى الوضع الذى أسقط منه الحرف فقرأ من هنالك ، و بنى وسجد للسهو بعد السلام ، لأنه زاد فى صلاته كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن كانوا ينكرون علينا هذا ، وما نعرف من قولهم إلا الحق (فى) قولنا هاهنا فلا عليهم ، فماذا يقولون فيمن أسقط من أم القرآن ناسياً من ركعة حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً حتى نوقفهم على ألا يقرأ منها إلا حرفاً واحداً فقط ويسقط باقيها ناسياً ؛ فإن فرّقوا بين شىء من ذلك ، تناقضوا وسخف قولهم . وإن سووا بين ذلك كله ، فهو قولنا ، لأن قراءة جميعها فرض . وإذ هو فرض ، فكل حرف منها فرض ، و بعض الفرض فرض بلا خلاف . ومن لم يأت بالفرض كما أمر فلا يعتد بتلك الركعة . هذا قولنا الذى نقطع على أنه الحق عند الله تعالى ، لموافقته لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقترىء بأم القرآن » ، ومن أسقط منها حرفاً ناسياً فلم يقترىء بأم القرآن . وأما من ترك منها ولو حرفاً واحداً عامدًا فقد بطلت صلاته كلها ، لتعمده أن يخالف فيها ما أمر به ، و بالله تعالى التوفيق .

٢٩ — ثم قالوا : « وإنك مرةً تتأسَّى بفعل النبى [١٩٠ ظ] صلى الله عليه وسلم ، ومرة تتخلف عنه ، كتنفلك فى العيدين فى المصلّى ، ولم يرد بذلك أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تنفل ، ولا خالفه أحد من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين والعلماء المشاهير فى جميع الآفاق ، فكلهم اقتصروا على الائتساء به فى ذلك ، وخالفتهم أنت لولوعك بالاحتجاج ، وليرفع الناس رءوسهم إليك . ولو سلكت طريقة من مضى لكان أجمل لك وأولى » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ هذا كلام جمعوا فيه من الكذب والجهل

المظلم ، واستحقوا به المقت من الله تعالى . فأما الـكذب والجهل، فجسرهم على دعوى الإجماع من الصحابة والتابعين المشاهير فى جمع الآفاق على ترك التنفل فى المصلّى قبل صلاة العيدين، فلو كان لهم مسكة عقل لم يقدموا على مثل هذا ، وهذا أيوب السختيانى وقتادة صاحبا أنس بن مالك ، يذكران أن أنس بن مالك وأبا هريرة كانا يتنفلان فى المصلّى قبل صلاة العيدين، وذكر أيوب أنه رأى ذلك من أنس بعينه ، ولا يصح عن أحد من الصحابة النهى عن ذلك إلا عن ابن مسعود وحذيفة ، وبرواية ساقطة منقطعة . وصح عن ابن عمر أنه كان لا يتنفل فى المصلى قبل صلاة العيد ، فقيل له : فمن تنفل فى المصلى؟ فقال كلاماً معناه : لايضيع له ذلك عند الله تعالى . وجاء عن على بن أبى طالب أنه خرج إلى المصلى ، فرأى الناس يتنفلون ، فقيل له : ألا تنهاهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ما كنت بالذى ينهى عبداً إذا صلَّى . ومن التابعين ممن تنفل فى المصلى قبل صلاة العيدين : الحسن البصرى وجابر بن زيد وغيرهما . ومن الفقهاء : الشافعى وغيره . قال : حدثنا أحمد بن محمد الخولانى إجازة ، حدثنا الطلمنكى إجازة قال : حدثنا ابن عوف قال حدثنا ابن الأعرابى قال : حدثنا سعد بن نصر بن منصور الحرمى قال حدثنا معاذ بن معاذ [١٩١ و] العنبرى، حدثنا سليمان التيمى، عن عبد الله الداناج قال : رأينا أبا بردة يصلّى يوم العيد قبل الإمام . وبه إلى سليمان قال : رأيت أنس بن مالك والحسن ابن أبى الحسن ، وسعيد بن أبى الحسن، وجابر بن زيد يصلون قبل الإمام فى العيد . فلو سكت هؤلاء الحمير عما لا يحسنون لـكان أستر لعوارهم وأخفى لعارهم . فإن قالوا : إن النبى صلى الله عليه وسلم (لم) يتنفل قبل الصلاة بالمصلى . قلنا لهم: صدقتم، لأنه كان الإمام عليه السلام ، وكان إقباله وتكبيره للصلاة بلا مهلة . وهكذا

٧ ـ بروایة : ورواه .
١٧ ـ الحسن : الحسين .
١٨ ـ لعوارهم : لعورامم .

نقول : من أتى وهو الإمام فليكن إقباله وتكبيره للصلاة معاً . وما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التنفل يوم العيد بالمصلى ، ولو كان مكروهاً لما أغفله حتى يبينه له غيره بالرأى الفاسد ، بل قد حَضَّ عليه السلام على التنفل جملة ، وهذا من التنفل ومن فعل الخير ، والله تعالى يقول: ﴿ وافعلوا الخير ﴾ [سورة الحج : ٧٧] ، لكن لو أنكروا على أنفسهم البدعة المحضة والضلال الذى فى أيديهم بالخطبة قبل الصلاة فى العيدين ائتساءً بمروان إذ يقول ، وقد ذكر له أبو سعيد الخدرى السنة فى ذلك فقال له مروان : ذهب ما هنالك يا أبا سعيد . وتمادوا على ذلك بعد زوال أمر بنى مروان اتباعاً للبدعة وثباتاً على الضلالة . فهذا كان ينبغى لهم أن ينكروا لا تنفُّلَ من تنفل بما لم ينه عنه . ونسألهم هل صح قط عن النبى صلى الله عليه وسلم ، هل صام الدهر ، أو صلَّى أكثر من ثلاث عشرة ركعة من الليل ، أو أباح أكثر من قيام ثلث الليل ؟ فلا بد لهم من الإقرار بأنه لم يأت قط عنه عليه السلام ذلك ؛ فمن أين استجازوا أن يستبيحوا خلاف أمره وفعله ، فيبيحوا صوم أكثر من نصف الدهر ، وقيام أكثر من ثلث الليل ، وصلاة أكثر من ثلاث عشرة ركعة ، ولم يفعله قط صلى الله عليه وسلم ؟ فإن قالوا : قد جاز ذلك عن بعض الصحابة . قيل لهم : وقد [١٩١ ظ] صح تحريم ذلك عن بعضهم أيضاً ، فلم أجزتم الفعل المخالف للنبى صلى الله عليه وسلم ولأمره ولفعله وأنكرتم علينا فعلاً فعله جماعة من الصحابة ، ولم يصحَّ النهى عن أحد منهم ، ولا نهى عنه قط رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فهل هذا إلا أحموقة منهم وجهل وغباوة ؟

وأما قولهم : إننا خالفناهم لولوعنا بالاحتجاج ، فقد أريناهم كذبهم ، وأننا لم نخالفهم ، ولكن أولعنا بالاحتجاج بالقرآن والسنن، فإنه لا فَضْلَ من ولوعهم باتباع التقليد وخلاف القرآن والسنن الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الصحابة والتابعين .

---

١٠ ـ ثلاث عشرة : ثلثة عشر .

أما قولهم: « ليرفع الناس رءوسهم إلينا» ، فكذب واضح ، وما أردنا قط الترؤس على أمثالهم ، ولو أردنا ذلك لسلكنا سبيلهم فى التقليد ، ولو فعلنا ذلك لما شقوا غبارنا فى الرياسة فى الدنيا ، هذا ما لا يقدرون على إنكاره ، فما منهم أحد يدعى أنه يدانينا ــ ولله الحمد ــ فى حفظ ما طلبوه ليأ كلوا به الخبز الخبيث لا الطيب ، من الآراء ، لو ملنا إليها أوّل ميلة ولكن معاذ الله من ذلك ، فما هذه الرياسة عندنا إلا نهاية الخساسة . وأما الذى نطلب الرياسة عنده ، فهو المليُّ بقبول رغبتنا فى ذلك لا إله إلا هو .

وأما قولهم : « لو سلكت طريقة من مضى لكان أجمل لك » فنعم ولله الحمد ، نحن السالكون طريقة من مضى من الصحابة والتابعين الذين هم الناس حقاً فى اتباع القرآن والسنن ، ورفض التقليد والقياس ، وهم الذين خالفوا من مضى فى كل ذلك . فلو اتبعوا طريقة من مضى لسلموا فى دينهم ، وأما طريق من بعد الصحابة والتابعين من أهل التقليد والقياس، فيعيذنا الله من اتباع طريقتهم وسلوك منهجهم، ونسأل الله العافية من الخزى فى ميزانهم ، وله الحمد كثيراً [١٩٢ و] على عصمته من ذلك من جميع البدع المضلة حمداً كما هو أهله .

٣٠ ــ ثم قالوا : « وإنك رتبت فى كتبك خلاف ما رتبه الماضون المتفقون فى الأحكام والشرائع فى حكم ترتيب الصلوات وإرفاعها وحكم النيَّة والوضوء ، فقلت : إنه (إن) توضأ لصلاة بعينها لم يجز له أن يصلى بذلك الوضوء صلاة غيرها » .

فالجواب ــ وبالله تعالى التوفيق ــ إن هؤلاء القوم لا يستحيون من الكذب، ومن هذه صفته فقد كان الإضراب عن مجاوبته أولى،ولكن عدم العقل ممن هذه صفته ، توهمه بجهله إن أُعرض عن مجاوبته إن ذلك عجزٌ عن البيان وإجلال لهم ومهابة منهم ، فرأينا فى واجب النصيحة لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن وللمسلمين عامة ، مجاوبتهم ، مبيِّنين لجهلهم وكذبهم ، ومزيلين لهذا الظن

السوء عن أنفسهم ، وتعريفاً لهم بمقاديرهم ، كى يرتدعوا بذلك عن مثل هذا الهوس البارد وشبهه .

فأما قولهم : إننا نقول : من توضأ لصلاة بعينها لم يجز له أن يصلى بذلك الوضوء صلاة غير تلك الصلاة ، فهذا قول ما قلناه قط ، ولا نجده لنا ولله الحمد كثيراً فى رواية أحد من ثقات أصحابنا عنا ، وكيف وقولنا المشهور والذى لم نختلف فيه قط أن من تيمّم لصلاة فرضٍ أو نافلة ، فإن له أن يصلى بذلك التيمم أبداً ما لم ينتقض وضوؤه بحدثٍ من الأحداث كالوضوء ولا فرق ، أو ما لم يجد ماءً ، لكن لو سألوا أنفسهم فى قولهم : إن من تيمم لفرض صلَّى به بعد الفريضة ما شاء من النوافل ، وإن تيمم لنافلة لم يصل به بعدها فرضاً ، لكان أولى بهم ، فإن هذا قول لا يعقل وجهه ولا يدرى من أين وجب ، ولعل الناسين رأوا لنا مسألة أخرى لم يفهموها ولا أحسنوا تأديتها من أين : أنا نقول من توضأ لصلاة بعينها ونوى أنه لا يرفع الحدث بوضوئه إلا لتلك الصلاة فقط لا لغيرها ، فإنه لم يتوضأ [١٩٢ ظ] كما أُمر ، ولا يصلى بذلك الوضوء لا تلك الصلاة ولا غيرها ، إذ لم يأت بالوضوء الذى أمر الله تعالى به . فهو غير متطهر .

وأما قولهم : إننا رتبنا فى كتبنا خلاف ما رتَّبه الماضون المتفقون فى الأحكام والشرائع ، فهم الذين فعلوا ذلك ، وقد نبهنا لهم عن مسائل جمة من الطهارة ومن الصلاة خالفوا فيها الصحابة الذين لا يُعرف لهم مخالف فيها ، والكتابُ حاضر لا يمتنع عليهم رؤيته ، ففى ذلك فلينظروا إن قدروا ، وهى أربع عشرة مسألة من الطهارة ، وخمس وثلاثون مسألة من الصلاة ، من جملتها مسائل خالفوا فيها الإجماع المتيقَّن ، كصلاة النبى صلى الله عليه وسلم قاعداً بالناس ، وغير ذلك

---

١٥ ــ كتبنا : كتابنا // رتبه : رتبته .

١٨ ــ أربع عشرة : أربعة عشر

كثير جداً مما قد بيناه فى كتبنا . وأما خلافنا كتبهم فنعم ، ما نعتذر من ذلك . و بالله تعالى التوفيق .

٣١ ـ ثم قالوا : « إنك قلت : إن تارك الصلاة عمداً حتى يخرج وقتها أنه لا قضاء عليه فيما قد خرج وقته » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ أننا هكذا نقول ، وهو الحق الراجح الذى لا يحل خلافه ، ولنا فى هذه المسألة كتاب مفرد مشهور . وجملة الأمر أن إعادة الصلاة فى غير وقتها إيجاب شرع ، والشرائع لا يوجبها إلا الله عز وجل والنبى صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، لا من سواهما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد بيَّنَ أوقات الصلوات ، أوائلها وأواخرها ، وأخبر بانقطاع أوقاتها ، ولم يأمر بإعادتها . وما كان ربك نسياً ، ولو أراد تمادىَ أوقاتها لما عجز عن ذلك ، ولا يجوز أن يكون حكم وعمل فى غير وقته . وماعمل فى غير وقته فهو غير العمل الذى أمر الله تعالى به . وهـذا قول ابن عمر وابن مسعود وسلمان وغيرهم، لا يعرف لهم من الصحابة مخالف فى ذلك . ومن عجائب الدنيا أن يفرض الله تعالى الصلاة فى وقت محدود ، فيقول هؤلاء المخاذيل : إن من تعمد لا يؤدِّيها [١٩٣ و] ثم صلى فى غير الوقت ، فقد أطاع وعمل ما أمر به . وهذا هو الكذب البحت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون : ٥] ، فأثبت الله تعالى أنهم يصلونها ، وأنهم يسهون عنها ، وأوجب لهم الويل ، ومن صلَّى كما أمر فما له الويل ، بل له السعد ، فصح أن من له الويل على ما صلى فلم يصل ولا صلاة له ، وهـذا فى غاية الوضوح لمن أراد الله به خيراً .

٣٢ ـ ثم قالوا : « وقلت : إن الذى يأبى أن يصليها وهو يقرُّ أن صلاتها

---

٣ ـ إنك : إن .

١٣ ـ يفرض : يعوض .

فرض عليه لا قتل عليه، (قالوا) وقد قال الله على من يتوب : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخَلُّوا سبيلهم ﴾ [التوبة : ٥] .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ إننا هكذا نقول ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من رواية ابن مسعود وعائشة وعثمان رضى الله عنهم : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أوزنا بعد إحصَان ، أو نفس بنفس » ولا يحل قتلُ مسلمٍ بغير هـذه الثلاث إلا أن يأتى نصٌّ بقتله فى قتله بصفته ، فيضاف إلى هذا الحكم . ولم يأت نصٌّ بقتل تارك الصلاة حتى يخرج وقتها وهو يقرُّ بفرضها ، والعجب كل العجب من قولهم بقتل الممتنع من الصلاة إذا خرج وقتها وهى تجزئه متى صلاها أبداً . فلم خصُّوا خروج الوقت بقتله ووقتها باقٍ فى قولهم الفاسد أبداً ؟ فهل فى التخايط أكثر من هـذا ؟ وأما الآية التى ذكروها فلا حجة فيها ، لأن الله تعالى يقول فيها : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ [التوبة : ٥] فإنما أمر الله تعالى بقتل المشركين لا بقتل المسلمين ، فمن أسلم فليس مشركا ، و إذ ليس مشركاً فقد حرم قتله . فإن أبوا التعلق بظاهر قوله تعالى: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، قيل لهم: ليس مراد الله تعالى ما ظننتم . برهان ذلك إجماع الأمة كلها ، أولها عن آخرها وأنتم فى الجملة ، على أن امرأً لو أسلم [١٩٣ ظ] مع طلوع الشمس فإنه يخلى سبيله ولا يثقف حتى يأتى الظهر ولا حتى يحول الحول على ماله فيزكى عليه ، هذا مالم يقله مسلم قط . ولو أسلمت نفساء أو حائض، فلا خلاف من أحدٍ من الأمة كلها أنها يُخلَّى سبيلها ولا تثقف حتى تطهر فتصلى ؛ وصحَّ بهذا يقيننا أن مراد الله تعالى بقوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾، إنما هو الإقرار بأن الصلاة فرض ، ولو كان ما ظنُّوه لوجب ألا نخلى سبيل من أسلم حتى يأتى

وقت الصلاة فيصلى حتى يحول عليه الحول كاملاً فيزكى ، فحينئذ يطلق و يخلى سبيله . ومن قال هذا فقد خرج عن الإسلام بخرقه الإجماع .

ثم نسألهم عن المقرِّ بفرض الصلاة وهو يقول: لا أصلى ، أ كافر هو أو مؤمن ؟ فإن قالوا : كافر ، وهم لا يقولون هذا ، لزمهم ألا يرثوا منه ورثته المسلمين ولا يدفنوه فى مقابرهم ولا تنفذ وصيته . ثم نسألهم ، فإن قالوا : بل هو مسلم ، فقد حرم الله دماء المسلمين إلا بحقها ، وقد بين الله تعالى حقها ، ولم يبين فى جملة ذلك من قال: لا أصلى ، وهذا القول منهم لم يأت به قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا نظر ، فهو فاسد مقطوع على فساده ، واستحلال لدم مسلم بالباطل و بالرأى الفاسد . وأما نحن فنقول : إنه أتى منكراً ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكراً أن يغيره بيده ، فنحن نضرب به أبداً حتى يُصَلِّى أو يموت ، غير قاصدين إلى قتله ، وهكذا نفعل بكل من أتى منكراً حتى يتركه ، و بالله تعالى التوفيق .

٣٣ ـ ثم قالوا : وقلت: «إن للمصلى أن يصلى ظهراً خلف من يصلى عصراً » .

فالجواب ـ و بالله تعالى التوفيق ـ أننا هكذا قلنا ، وهو الحق الذى من خالفه أخطأ بيقين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، و يقول: ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾ [النساء : ٨٤] ، وقال تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، وقال رسول الله صلى الله عليه [١٩٤ و] وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، و إنما لكل امرىء ما نوى ـ ولكل مصلٍّ ما نوى ونيته . وما أوجب قط رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتفق نية الإمام مع نية المأموم ، بل قد أباح الله تعالى اختلاف نياتهم بيقين . وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بقوم ثم سلم ، ثم صلى بآخرين تلك الصلاة بعينها ، فهى

---

١ ـ كاملا : كامل .

له عليه السلام تطوع ولهم فرض ، وقد فعل ذلك معاذ بعلمه ، وهذا مما خالفوا فيه السنة وجميع الصحابة أولهم عن آخرهم بآرائهم الفاسدة . والعجب أنهم يأمرون من صلى الفرض عندهم ووجد إماماً يصلى بجماعة أن يصلى معه إن شاء ، فهى له نافلة ، وللإمام فريضة . فليت شعرى أىُّ فرقٍ بين أن يصلى المرء نافلةً خلف من يصلى فريضة ، و بين أن يصلى فريضة خلف من يصلى نافلة أو ظهراً خلف من يصلى عصراً ؟ فإن قالوا : لا ندرى أى صلاة هى الفرض ، أتوا بالمحال الظاهر ، لأنهم لا يجيزون على هذا أن يصلى مع الجماعة إلا أن يشاء ، وهذه صفة النافلة بلا شك لا صفة الفرض ، مع أنه لا يحل لمسلم أن يصلى فى يوم واحـد صلاتين بنيةِ أيهما ظُهْرَ ذلك اليوم ، هذا مالا يقوله مسلم ، فهو إذا صلى الأولى بنية الظهر فقد أدى فرضه ، فلا يحل له ذلك فى الثانية بوجه من الوجوه ، لأنه يزيد فى الدين شرعاً لا يحل له زيادته ، وبالله تعالى التوفيق .

٣٤ ـــ ثم قالوا : « و إنك استحسنتَ قول ابن عمر ، وجعلت قوله حجة فى القصر فى قوله : لو سافرتُ ميلا لقصرتُ ، وهل قوله حجة تلزم المسافر الموقوف عند قوله ، وهل قوله وقول غيره إلا سواء » .

فالجواب ـ وبالله تعالى التوفيق ـ قد كذبوا علينا فى دعواهم أنا استحسنا قول ابن عمر فى هذا ، وأنا جعلنا قوله حجة ، ومعاذ الله من ذلك ، ومن أن يكون قول أحد غيره حجة بعد رسول الله صلى [١٩٤ ظ] الله عليه وسلم . وما جعلنا الحجة فى ذلك إلا ما صحَّ عن النبى صلى الله عليه وسلم من رواية عمر بن الخطاب وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وابن عباس رضى الله عنهما : من أن صلاة السفر ركعتان ، ولم يخصَّ الله تعالى سفراً من سفر ، ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ،

---

١٩ ـ عنهما : عنهم

وما كان ربك نسياً ، ولم نجد أحداً يقصر فى أقل من ميل ، ووجدنا عمر ابن الخطاب وغيره يقصرون فى هذا القدر ، فقلنا باتباع السنة فى ذلك لا باتباع ابن عمر فى ذلك . ولكن بهذا أنكروا على أنفسهم تقليد ابن عمر من بين الصحابة فى المنع من المسح على العمامة، وقد خالفه فى ذلك جمهور الصحابة، هنالك كان فعل ابن عمر حجة ، وهذا هو الضلال بعينه والتخليط والتحكم فى الدين بالرأى الفاسد . وكذلك تقليدهم مالكاً فى أن لا قصر فى أقلّ من ثمانية وأربعين ميلًا بغير أن يعضد قوله هذا قرآن ، ولا سنة صحيحة ولا سقيمة ، ولا إجماع ولا قول صاحب ولا قياس، ولا نظر ، ولا احتياط ، ولا رأى يصح ، بل خذلهم مالك فى هذه المسألة بعينها ، فروى عنه أشهب أن القصر جائز فى خمسة وأربعين ميلا ، وروى عنه ابن الماجشون فى المبسوط لإسماعيل أن القصر جائز فى ستة وثلاثين ميلا ، وأنه بلغه ذلك عن ابن عباس ، وابن عمر ، فقد أسلمهم صاحبهم فى هذه المسألة وتبرأ من تقليدهم ، و بالله تعالى التوفيق . وما علم قط ذو حس سليم فرقاً بين ثمانية وأربعين ميلا و بين سبعة وأربعين ميلا ولا بين ستة وثلاثين ميلا وخمسة وثلاثين ميلا وأربعين ميلا ، وكل هذا لا معنى له ، ولا يتشاغل به ناصح لنفسه أصلاً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٣٥ — ثم قالوا : « وقلت فى الحد على قاذف الصبية دون البلوغ : إنما لزمه الحد للكذب وغيرها عندى [١٩٥ و] سواء » .

فالجواب ــ و بالله تعالى التوفيق ــ إننا هكذا نقول ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ [النور : ٤] ، والصغيرة محصنة بالإسلام و بالحرية ، و بعدم الزنا منها جملة بيقين الكذب عليها ، وقلنا : العجب كله ممن يوجب الحد بالشكّ فى كذبه ولعله صدق ، ثم يسقط الحد بيقين الكذب ، و إنما كان ينبغى لهم أن يعجبوا من

قياسهم حد القذف والزنا على قذف آخر بفعل قوم لوط ، و بين قاذف بالكفر أو ببعض الكبائر من الزنا وأكل لحم الخنزير وغير ذلك ، فمن أين خصّوا من رمى آخر بفعل قوم لوط بالحدود دون من رماه بالكفر أو بالعقوق أو بشرب الخمر ، وهم لا يقولون إن فعل قوم لوط زنا ولا حدُّهُ عندهم حد الزنا ، فمن هذا ينبغى أن يعجب ، لا ممن تعلق بكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

إلى ها هنا انتهى ما رسموا من السخف ، وقد أوضحنا أنه كله عائد عليهم ، وهم قوم كادونا من طريق المغالبة و إثارة العامة ، فأركس الله تعالى جدودهم وأضرع خدودهم وله الحمد كثيراً ، وخابوا فى ذلك فعادوا إلى المطالبة عند السلطان ، وكتبوا الكتب الكاذبة ، فخيَّب (الله) سعيهم وأبطل بغيهم ، وله الشكر واصباً ، وخسئوا فى ذلك فعادوا إلى المطالبة عند أمثالهم ، فكتبوا الكتب السخيفة إلى مثل ابن زياد بدانية. وعبد الحق بصقلية ، فأضاع الله كيدهم وأقل أيدهم ، وله المن كثيراً والفضل ، فخزوا فى ذلك ، ولم يبق لهم وجه إلا مثل هذه السخافة ، فرموا سهمهم الضعيف ، فأظهر الله فى ذلك عوارهم وأبدى عارهم ، وهو أهل الطول والمنة علينا أبداً ، فعاد جدُّهم حسيراً وحَدّهم كسيراً ، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله وسلم تسليما كثيراً ، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

---

١٠ ـ ابن زياد .

- ٣ -

رسالة التلخيص لوجوه التخليص

رسالة التلخيص لوجوه التخليص

[٢٣٥ ظ] بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صلى على محمد وعلى آله .

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم رحمه الله : سلام عليكم أيها الأخوة الفضلاء ، والصدقاء الكرام ، المغتَبَطُ بودهم، الذى هو أفضل من القرابة الواشجة والمجاورة الدائمة ، فقد بشَّرَ اللهِ عز وجل المتحابين فيه بأتمّ البشرى ، وأنه يظلهم يوم لا ظل إلا ظله . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو الموفق للخير، الواهب للنعم، وأسأله الصلاة على نبيه ورسوله وصفيه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستوهبه تعالى لى ولكم المزيد من كل حسنة مقرِّبة منه ومبعدة من سخطه .

قال أبو محمد : أما بعد ، فإن كتابكم ورد على وفى أوله وصفكم لى بما لست أهله عند نفسى ، ولكنى أحدِّث بنعمة الله تعالى على مؤتمراً لأمره إذ يقول عز وجل ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [الضحى : ١١] ، فأقول : بلى ، إن لله تعالى عندى نعماً أنا أسأله ثم أرغب إليكم بالأمانة التى عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ، أن تسألوه تعالى لى ولكم أن يخفف فى سجودكم فى أواخر ليلكم، أن لا يجعل ما وضع عندنا من مادة الفهم فى دينه فتنة لنا فى دينه ، ولا حجة علينا فى الآخرة ، وأن يجعل ما أودعنا من ذلك عوناً على طاعته فى هذه الدار ، وزلفى لديه تعالى فى دار القرار ، آمين آمين .

والذى ذكرتم من وجوب الإرشاد للمسترشد ، ولزوم البيان لمن سأل ، فنعم ، سمعاً وطاعة لأمر الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون *

---

٨ ـ ومبعدة : ويبعده .

إلا الذين تابوا وأصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] ، أعاذنا الله و إياكم من كل مايؤوى الفتنة ، ورزقنا البيان الموجب لمرضاته وتو بته ، آمين .

ولقد ذكر لبعض أهل العلم وابتغاء الخير فى الشيخ الفاضل أبى الخيار مسعود ابن سليمان بن مفلت رضى الله عنه معتمداً قوياً ومقعداً كافياً برد الله مضجعه ، [٢٣٦ و] ، ونفعه بفضله وعمله ، وصحة ورعه وفهمه ، وصدعه بالحق ، رفع الله بذلك درجته . وأما ما ذكرتم من صفتى عندكم فأقول على ذلك ماقال سفيان بن عيينة ، رحمه الله ، إذ رأى حاجة الناس إليه بذهاب السالفين من أئمته ، فأنشد رافعاً صوته بحضرة الجماعة :

خلتِ الديارُ فسدتُّ غيرَ مُسوَّدِ   ومن الشقاءِ تفرُّدى بالسُّؤْدَدِ

ورأيت المسائل التى سألتم عنها ، فوجدتها مسائل لا يستغنى عنها من له أقلُّ اهتمام بدينه عن البحث عنها والوقوف عليها . ولقد أجدتم السؤال ، وأنا أسأل الله تعالى (أن) يوفق لإصابة الجواب عنه يا رب العالمين . ورأيتكم سألتم فى بعض تلك المسائل بألفاظ شتى والمعنى واحد ، فنصصت ألفاظكم فيها لتقفوا على ذلك إن شاء الله تعالى .

١ ـ سألتم ـ وفقنا الله و إياكم ـ عن أقرب مايُعْتِبُ به العبد المجرم ر به تعالى ، وعن أفضل ما يستنزل به عفوه وفضله عز وجل ، و يستدفع به سخطه وغضبه ،

---

٣ ـ ٤ : أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت : أحد شيوخ ابن حزم كان ، فقيهاً عالماً زاهداً يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر (الجدوة : ٣٢٨) .

٩ ـ خلت الديار . . . البيت : قال سفيان بن عينية : كنت أخرج إلى المسجد فأتصفح الخلق ، فإذا رأيت مشيخة وكهولا جلست إليهم وأنا اليوم قد اكتنفنى هؤلاء الصبيان ، ثم أنشد البيت (انظر حلية الأولياء ٧ : ٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١) والبيت فى البيان منسوب لحارثة ابن بدر ، تمثل به سفيان ، وقد جلس على مرقب عال وأصحاب الحديث على مدى البصر يكتبون .

١١ ـ أجدتم : أخذتم .

ومن أنفع ما يشتغل به مَنْ كثرت ذنوبه ، وعن خير ما يسعى به المرء فى تكفير صغائره وكبائره . فهذه أيها الصفوة الفاضلة أربع مسائل فرقتم بينها ومعناها واحد . فالجواب إن شاء الله تعالى عن ذلك . قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [هود : ١١٤] . وحدثنا الرجل الصالح (أبو) محمد (عبد الله) بن يوسف بن ناجى ، عن أحمد بن فتح ، عن عبد الوهاب بن عيسى ، عن أحمد بن محمد ، عن أحمد بن على ، عن مسلم بن الحجاج ، عن قتيبة بن سعيد وعلى بن حجر ، عن اسماعيل بن جعفر ، أنبأنا العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، كفارة لما بينهن مالم تغشَ الكبائر » ، فكان هذا الحديث موافقاً لقول الله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ [النساء : ٣١] ، فصح أن بأداء الفرائض واجتناب الكبائر ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ تحط السيئات التى هى دون الكبائر . فبقى أمر الكبائر ، فوجب النظر فيها ، فوجدنا الناس قد اختلفوا فيها . فقالت طائفة : هى سبع ، واحتجوا بحديث النبى عليه السلام [٢٣٦ظ] : « اجتنبوا السبع الموبقات ، فذكر عليه السلام الشرك ، والسحر ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف

---

٥ ـ أبو محمد عبد الله بن يوسف ، روى عن أحمد بن فتح التاجر ، وكان شيخاً صالحاً (الجذوة : ٢٤٩) .

٨ ـ الصلوات الخمس . . . الخ : انظر راموز الأحاديث : ٢١٩ .

١٣ ـ فوجدنا الناس قد اختلفوا فيها . . . الخ : أورد الطبرى فى تفسيره أقوالا متعددة فى عدد الكبائر ، فمن أهل التأويل من قال: إن الكبائر هى التى عدت فى سورة النساء من أولها حتى هذه الآية ، وقال آخرون: الكبائر سبع وهى حسبما عدها على: الإشراك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والفرار يوم الزحف والتعرب بعد الهجرة . وقال عطاء : هى سبع : قتل النفس وأكل الربا وأكل مال اليتيم ورمى المحصنة وشهادة الزور وعقوق الوالدين والفرار يوم الزحف؛ وقال آخرون: ومنهم ابن عمر: هى تسع. وقال ابن عباس: هى إلى السبعين أقرب . وقال: كل مانهى الله عنه فهو كبيرة، وقال: كل ما أوعد الله أهله عليه النار فكبيرة (راجع تفسير الطبرى ٨ : ٢٣٣ ـ ٢٥٤) .

وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » وروى عن ابن عباس أنه قال: هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . فوجب النظر فيما اختلفوا فيه من ذلك ، وردّه إلى القرآن وحديث النبي الصحيح عنه كما أمرنا ربنا عز وجل : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [سورة النساء : ٥٩] ، فلما فعلنا ذلك ، وجدنا الحديث المذكور الذى احتجّ به من قال : إن الكبائر سبع ، لا أكثر ليس فيه نص على أنه لا موبقات إلا ما ذكر فيه ، ولا فيه ما يمنع من وجوب موبقات أخر إن جاء بذلك نص آخر . وأما لو لم يأتنا آخر فى أن ليس ها هنا كبائر غير السبع المذكورة ، لوجب علينا الاقتصار على ما فى ذلك الحديث فقط . وإما وجدنا نصاً آخر بإثبات كبائر لم تذكر فى هذا الحديث . فواجب علينا إضافتها إلى الموبقات المذكورة فيه ، لأنه ليس شىء من كلامه عليه السلام أولى بالقبول من بعض ، بل الكل واجب قبوله ، ولا تعارض فى شىء منه ، لأنه كله من عند الله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [سورة النجم : ٣] ، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ، قال الله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [سورة النساء : ٨٢] .

فصح بهذا ما قلنا من ضم ما يوجد فى النصوص ضما واحداً ، وقبوله كله وإضافته بعضه إلى بعض . فنظرنا فى ذلك فوجدناه عليه السلام قد أدخل فى الكبائر بنص لفظه أشياء غير الذى ذكر فى الحديث الذى ذكرنا آنفاً ، فمنها : قول الزور ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، والكذب عليه عليه السلام ، وتعريض المرء أبويه للسب بأن يسب آباء الناس . وذكر عليه السلام الوعيد الشديد بالنار على الكفر ، وعلى كفر نعمة المحسن بالحق ، وعلى النياحة فى المآتم ، وحلق الشعر فيها ، وخرق الجيوب ، والنميمة ، وترك التحفظ من البول ، وقطيعة الرحم ، وعلى الخمر ، وعلى تعذيب الحيوان بغير الذكاة لأكل ما يحل أكله ، أو ما أبيح أكله منها ، وعلى

إسبال الإزار ، وعلى مانع فضل مائِهِ من الشارب ، وعلى الغلول ، وعلى مبايعة الأئمة للدنيا فإن أعطوا منها وفّى [٢٣٧ و] لهم وإن لم يعطوا منها لم يوف لهم ، وعلى المقتطع بيمينه حق امرىء مسلم ، وعلى الإمام الغاش لرعيته ، وعلى من ادعى إلى غير أبيه ، وعلى العبد الآبق ، وعلى من غلّ ، وعلى من ادعى ماليس له ، وعلى لاعن مالا يستحق اللعن ، وعلى بغض الأنصار ، وعلى تارك الصلاة ، وعلى تارك الزكاة ، وعلى بغض علي . ووجدنا الوعيد الشديد فى نص القرآن قد جاء على الزناة والمفسدين فى الأرض بالحرابة ، فصح بهذا قول ابن عباس . وقد أطلت التفتيش على هذا منذ سنين ، فصح لى أن كل مايوعد الله به النار فهو من الكبائر . فلما صح هذا كله بنص القرآن ، إذ من اجتنبها أدخله الله مدخلاً كريماً ، ونصّ الحديث أيضاً ، وجب النظر فى ذلك على المؤمن المشفق من عذاب ربه تعالى ومن نارٍ هى أحرّ من نار هذه بسبعين ضعفاً ، ومن الوقوف بأصعب الأحوال وأشد الأهوال وأعظم الكرب وأكثر الضيق وأكثر العرق فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، نسأل الله عز وجل أن يعيذنا وإياكم من شر ذلك اليوم ، وأن يرزقنا فيه الفوز والنجاة .

فوالله أيها الأحبة إن أحدنا ليشتد روعه ويخفق قلبه من وعيد آدمى ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يقدر أن يتمادى شهراً واحداً فى عذاب من عاداه وكاشفه بأكثر من الحبس ، فكيف بذلك اليوم المذكور ، وبعذاب أهونه الوقوف فى حال دنو الشمس من الرءوس ، وبلوغ العرق إلى أكثر مساحة الأجسام ، فى يوم طوله خمسون ألف عام ، ثم بعد ذلك يرى مصيره إما إلى جنة أو إلى نار ؟ فأين المفر إلا إلى الله وحده لا شريك له ؟ فوجدناه تعالى قال :

---

٨ ـ فصح لى أن كل ما يوعد الله به النار .. الخ : هذا رأى قال به جماعة قبل ابن حزم منهم ابن عباس وسعيد بن جبير انظر تفسير الطبرى ٨ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيَهْ * نار حامية﴾ [القارعة : ٦ـ١١] ، فعلمنا بهذا وبقوله تعالى : ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [هود : ١١٤] ، أن من استوت حسناته وسيئاته وفضلت له حسنة واحدة لم ير ناراً فيا لها من سرور ما أجله ، وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « إن بغيًّا سقت كلباً فغفر الله لها ، وإن رجلاً أماط غصن شوك عن الطريق فأدخله الله الجنة » وذلك أن هذين فضل لهما هذان العملان بعد موازنتهما سيئاتهما بحسناتهما ، فخلصا من النار [٢٣٧ ظ] ودخلا الجنة . فوجب علينا إذ قد جاءتنا عهود ربنا بهذا كله ، أن نطلب الأعمال الماحية أو الموازنة للسيئات ، فيثابر المرء منها على ما وفقه الله تعالى المثابرة عليه . فوجدناه ، عليه السلام ، قد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ، فذكر الصلاة لميقاتها ، والجهاد ، وكثرة السجود ، وذكر عليه السلام أنه : « لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها ، ورجل أوتى مالا فسلطه الله على هلكته فى الحق » ، وَذَكَرَ لعمرَ ، رضى الله عنه ، تحبيس أصل ماله وتسبيل ثمرته ، وذكر عليه السلام أنه « لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه طائر أو سبع أو إنسان إلا كان له صدقة ».

وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء وجب إتحافكم به ، فهو من أفضل الهدايا ، وذلك ما حدثنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن نامى بالإسناد المتقدم إلى مسلم، أنبأنا عبد الله بن محمد بن أسماء الضبعى، بنا محمد بن ميمون بن واصل الأحدب مولى أبى عيينة ، عن يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر، عن أبى الأسود الدؤلى، عن أبى ذر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يصبح على كل سُلاَمَى من

٢١ ـ يصبح على كل سلامى . . . الخ : انظر راموز الأحاديث : ٥١١ .

أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، ويجزىء من كل ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » . وحديث رويناه من طريق مالك عن سمى مولى أبى بكر ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : أن النبى عليه السلام قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير، فى كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما أتى إلا من عمل أكثر من ذلك » . وصح عنه عليه السلام أنه قال لأصحابه رضى الله عنهم : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ قالوا : وكيف يارسول الله ؟ قال : إن « قل هو الله أحد » تعدل ثلث القرآن » ، وأنه عليه السلام ذكر لهم سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، عدداً يبلغ مائتين وخمسين مرة لكل واحدة منهن عشر حسنات فذلك ألفاً وخمسمائة حسنة كل يوم ، وأنه عليه السلام قال : فأيكم يعمل فى يومه ألفين وخمسمائة سيئة ؟ أو كلاماً هذا معناه ؛ وأمر عليه السلام الفقراء إذ شكوا إليه (أن) الأغنياء يقضون ويتصدقون ، وهم لا يقدرون ذلك [٢٣٨ و] فأمرهم عليه السلام أن يقولوا فى دبر كل صلاة : الله أكبر أربعاً وثلاثين مرة وسبحان الله ثلاثا وثلاثين مرة ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرة وتلك مائة . وقد نص الله أن الحسنة بعشر أمثالها ، فعلى هذه للمائة المذكورة . ألف حسنة، وحض النبى على قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأخبر أنها من كنوز الجنة .

---

٣ ــ سمى : هو سمى مولى أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، لمالك عنه ثلاثة عشر حديثاً أحدها مرسل، وفى حديث واحد منها ثلاثة فتصير خمسة عشر حديثاً انظر تجريد التمهيد : ٦٨ ، ٧٠ .

٤ ــ ٥ إلا من قال لا إله إلا الله .. إلخ : راموز الأحاديث : ٤٣٢ .

٧ ــ ٨ بأفضل مما أتى من عمل : بأفضل مما جاء به إلا أحداً عمل (تجريد التمهيد : ٦٩ ، ٧٠) .

٩ ــ أيعجز أحدكم أن يقرأ ...إلخ راموز الأحاديث : ١٧٢ .

وحض عليه السلام على الاستغفار ، وأخبر عليه السلام أنه ربما استغفر في اليوم مائة مرة . فهذه وصايا نبيكم الذى كان بنا رءوفاً رحيما حريصاً على صلاحنا ، الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، فعليكم بها ، ودعوا أقوال البطالين الكذابين المفسدين فى الأرض القائلين إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة البطالين ، كَذَبوا وأفكوا ، بل هم البطالون المبطلون حقًّا ، العائجون عن سبيل ربهم وعن صراط نبيهم المستقيم ، بل الاستغفار تركه علامة الفاسقين المصرِّين المستخفِّين ، نعوذ بالله من مثل سيرتهم . فهذه وفقنا الله وإياكم حظوظ رفيعة مع سهولة مأخذها ، وقرب متناولها ، لا تقطع بأحد منكم عن عمله ، ولا تقطع جسمه ، ولا ترزؤه كافة ، إذا أحصاها عالم الغيب والشهادة عز وجل اجتمع بها ما يرجى تثقيل ميزان الحسنات ، فتحبط بذلك السيئات ، فلعل النجاة تحصل . ولسنا نقول هذا على الاقتصار على ذلك دون الاستكثار من سائر أعمال الخير ، ومن تلاوة القرآن ما أمكن ، فإنا روينا عن ابن عباس رضى الله عنه ، أو عن أنس بن مالك ـ الشك منى ـ أنه قال : إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى عيونكم من الشعر ، كنا نعهدها على عهد رسول الله من الموبقات ، فاعلموا أيها الأخوة أن الأمر والله جد ، وأن المُنْتَشَبَ صعب ، وأن التخليص عسير إلا بتوفيق الله عز وجل برحمته لعمل الخير ، بقبول اليسير منا ، وتجاوزه عن كثير ذنوبنا ، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولكن الله تعالى قال وقوله الحق : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [سورة النجم : ٣٩ـ ٤٢] و ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [سورة النمل : ٩٠] ، وقال تعالى ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [سورة يس : ٥٤] .

---

١٣ ـ إنكم لتعملون أعمالا ... الخ : ورد هذا القول فى كتاب الزهد لابن حنبل : ١٩٥ منسوبا إلى أبى سعيد الخدرى .

فيستحب للمسلم الذى يطلب النجاة أن يأتى بما لعله أن يوارى ذنوبه ويوازن سيئاته ، وأن يواظب على قراءة القرآن فيختمه فى كل شهر مرة ، فإن ختمه فى أقل فحسن ، مابين ماذكرنا إلى أن يختمه فى ثلاث لا أقل ، ولا يسع أحداً أن يختمه فى أقل من ذلك ، ويواظب مع ذلك [٢٣٨ ظ] على قراءة قل هو الله أحد ولو فى كل ركعة من صلاته مع أم القرآن وسورة أخرى، فإنا روينا أن رجلاً من الأنصار كان يفعل ذلك ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فعله ذلك فقال: إنى أحبها ، فقال عليه السلام : إن حبك إياها أدخلك الجنة ، أوكما قال . وإن لم يفعل فليقرأها فى كل يوم مرة ، فإنها تعدل فى الآخر ثلث القرآن ، وهذا الآخر لا يحقره إلا مخذول ، فإن كثر منها فحظَّهُ أصاب ؛ وليكثر من الصلاة على النبى متى ذكر ، فإنا روينا عنه أنه قال : من صليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً . أفيزهد أحدكم أن يصلى الله عليه ؟ لا يزهد فى هذا (إلا) محروم ، وليكثر من حمد الله عز وجل عند الأكل والشرب وعند المسرة تروه ، فقد روينا عن النبى عليه السلام فى ذلك كلاماً معناه أن العبد لا يزال يفعل ذلك حتى يرضى الله عنه ، أو كلاماً هذا معناه ، وليكثر من قول لا إله إلا الله ، فإنها ألفاظ تتم بحركة اللسان دون حركة الشفتين فلا يشعر بذلك الجليس .

وليواظب على صلاة الفرض فى الجماعة ، فإنه صح عن النبى عليه السلام أن صلاة الصبح فى الجماعة تعدل قيام ليلة ، وصلاة عشاء الآخرة فى الجماعه تعدل قيام نصف ليلة ، فأيكم أيها الأخوة يطيق القيام ما بين طرفى ليلة لاينام فيها أو نصف ليلة كذلك ، فقد حصل له هذا الأجر تاماً بأهون سعى وأيسر شىء .

وليكثر من ألفاظ رويناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهى أنه دخل على إحدى أمهات المؤمنين وهى فى مصلاها تذكر الله عز وجل ، فقال لها رسول الله : لو قلت كلمات ثلاثاً فوُزنت بما قلت لرجحتهن ــ أو قال : لعدلتهن ــ

وهى: « سبحان الله عدد خلقه ، ورضى نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » ، فنحن نستحب أن يقولها العبد ثلاثاً كل يوم ، وليواظب جهده . وقد صح أن العبد يحاسب يوم القيامة ، فإن وجد فى فرائض صلاته نقص جبر من تطوع إن كان له ، وكذلك فى صيامه وزكاته وسائر أعماله ، ورويناه من طريق تميم الدارى عن رسول الله، ويبين صحة هذا قوله تعالى : ﴿ إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٥] ، ولا يلتفت إلى قول من يصدُّ عن سبيل الله : «لا صلاة لمن لا يتم الفرض» ، فهذا قول لم يأت به نص ولا إجماع، و إنما هذا فيمن ضيع الفرض فى آخر وقته أو حلول وقته الذى لا فسحة فيه واشتغل بالنفل [٢٣٩ و] كإنسان لم يبق عليه من صلاة الفرض إلا مقدارها يصليها فقط ، فترك الفرض واشتغل بالتطوع ، أو وجد الصلاة المكتوبة تقام أو تصلى فتركها وأقبل على ما ليس بفرض من الصلاة ، كمثل ما يأمر به بعض الناس من وجد الإمام فى الركعة الأولى من صلاة الصبح أن (يركع) ركعتى الفجر فهذا هو الخطأ، فهذا لا يقبل منه ، لأنه لم يصل الصلاة التى أمر بها ، ومن لم يفعل ما أمر به وفعل غير ما أمر به لم يقبل منه : قال عليه السلام ، من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ، وكإنسان صام رمضان فى الحضر تطوعاً لا بنية الفرض، فهذا لا يقبل منه . وأما من عليه من الفرض أو سلفت عليه فروض قد عطلها ، فيستحب له التطوع ما أمكنه ، كما روينا فى الحديث المأثور آنفاً من جبر الفرض بالتطوع .

واعلموا ــ رحمنا الله وإياكم ــ أن الله عز وجل ابتدأنا بمواهب خمس جليلة ، لا يهلك على الله بعدهن إلا هالك ، وهى أنه تعالى غفر الصغائر باجتناب الكبائر فلو أن أمرءًا وافى عرصة القيامة بملء الأرض صغائر إلا أنه لم يأت كبيرة أو أتاها ثم تاب منها ، لما طالبه الله بشىء منها ، وقال تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ [سورة النساء : ٣١] .

والثانية : مَنْ أكثرَ مِنَ الكبائر ، ثم منحه الله التوبة النصوح على حقها وشروطها قبل موته ، فقد سقط عنه جميعها ، ولا يؤاخذه ربه تعالى بشيء منها ، وهذا إجماع من الأمة .

والثالثة : أن من عمل من الكبائر ما شاء الله ، ثم مات مصرًّا عليها ، ثم استوت حسناته وسيئاته لم يفضل له سيئة ، مغفور له ، غير مؤاخذ بشيء مما فعل ، قال الله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [سورة هود : ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ [سورة القارعة : ٦] .

والرابعة : أنه تعالى جعل السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف الله تعالى لمن يشاء .

والخامسة : أنه تعالى جعل الابتداء على من أحاطت به خطيئته ، وغاب شره على خيره ، بالعذاب والعقاب ، ثم نقله عنه بالشفاعة إلى الجنة فخلَّده فيها ، ولم يجعل ابتداء إجزائه على حسناته بالجنة ، ثم ينقله منها إلى النار . فهل بعد ذلك الفضل منزلة ؟ نسأل الله أن لا يدخلنا فى عداد من يعذبه بمنه . فهذا أصلحنا الله وإياكم جواب [٢٣٩ ظ] ما سألتم عنه ممّا يكفر الذنوب الكبائر ، وفيما يأتى بعدُ أيضاً من الجواب فى سائره ما سألتم عنه ، أشياء تستضيف إلى ما قد ذكرنا بحول الله تعالى وقوته .

* * *

٢ ـ وسألتم عن العمل الذى إذا قطع المرء به باقى عمره رجوت له الفوز عند الله عز وجل ، وأيقنت له به ، وعن السيرة التى أختارها وأحسد عليها من أُعطِيَها ، من أبواب التخلص من سخط الله فى القول والعمل . وهاتان مسألتان وإن كنتم فرقتم بينهما فهى واحدة فأقول ـ وبالله تعالى التوفيق ـ : إنى قد أدمت البحث عما سألتم عنه مدى دهرٍ طويل ، وفتشت عنه القرآن والحديث الصحيح ، ولاح لى

بعد طلب كثير ، وتحصل لى بعد طلب شديد ما أخاطبكم به ، أسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لطاعته آمين . وقد كنت جمعت فى هذا فصلاً نسخته لكم على هيئته ،وهو أن فتشت على مراتب الحقائق فى دار القرار فى الآخرة ـ وأما الدنيا فمحل مبيت بؤسها منقض ، وسرورها منسى كأن ذلك لم يكن ـ فوجدتها عشر مراتب ، منها ثلاث هى مراتب الملك ، والعلو ، والسبق .

فأولها : مرتبة عالم يعلم دينهم ، فإن كل من عمل بتعليمه أو علم شيئاً مما كان هو السبب فى علمه ، فذلك العالم والمتعلم شريك له فى الأجر إلى يوم القيامة على آباد الدهور ، فيالها منزلة ما أرفعها ، أن يكون المرء أشلاء متمزّعة فى قبره أو مشتغلاً فى أمور دنياه وصحف حسناته متزايدة ، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لم يقدِّر . ويؤيد هذا قوله عليه السلام : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، وقوله لعلى : «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك من حمر النعم » ، وقوله عليه السلام : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ، فذكر عليه السلام ولداً صالحاً يدعو له ، وصدقة جارية ، وعلماً ينتفع به »، وقوله: « من عمل فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده ، كتب له مثل وزر من عمل ولا ينقص من أوزارهم شىء » ، ويؤيد هذا قول الله عز وجل : ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [سورة النحل : ٢٥] ، وقوله : ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ [سورة العنكبوت : ١٣] فأسأل الله أيها الأخوة أن يجعلنا وإياكم من أهل الصفة الأولى ، وأن يُعيذنا من الثانية . فبشروا من سن القبالات والمكوس ووجوه الظلم بأخزى الجزاء وأعظم البوار فى الآخرة ، إذ سيئاتهم تتزايد على مرور الأيام والليالى ، والبلايا تترادف عليهم وهم فى قبورهم ؛ ولقد كان أحظى لهم لو لم يكونوا خلقوا

---

٤ ـ منقض : منقضى .

٢١ ـ أحظى : أحضا .

من الإنس . واعلموا [٢٤٠ و] أنه لولا العلماء الذين ينقلون العلم ويعلمونه الناس جيلاً بعد جيل لهلك الإسلام جملةً ، فتدبروا هذا وقفوا عنده وتفكروا فيه نعما ، ولذلك سُمّوا ورثة الأنبياء ، فهذه مرتبة .

والثانية : حكم عدل ، فإنه شريك لرعيته فى كل عمل خير عملوه فى ظل عدله وأمن سلطانه بالحق لا بالعدوان ، وله مثل أجر كلٍّ من عمل سنة حسنة سنها . فيالها مرتبة ما أسناها أن يكون ساهياً لاهياً وتكسب له الحسنات ، وأين هذه الصفة ؟ وأما الغاش لرعيته والمداهن فى الحق ، فهو ضد ما ذكرنا، ويؤيد هذا قوله عليه السلام : «إن المقسطين فيما ولوا على منابر من نور على يمين الرحمن» ، أو كلاماً هذا معناه ؛ فهذه ثانية .

وأما الثالثة : مجاهد فى سبيل الله عز وجل، فإنه شريك لكل من يحميه بسيفه فى كل عمل خير يعمله ، وإن بعدت داره فى أقطار البلاد ، وله مثل أجر من عمل شيئاً من الخير فى كل بلد أعان على فتحه بقتال أو حصر ، وله مثل أجر كل من دخل فى الإسلام بسببه أو بوجهٍ له فيه أثر إلى يوم القيامة . فيالها حظوة ما أجلها أن يكون لعله فى بعض غفلاته ونحن نصوم له ونصلى . واعلموا أيها الأخوة الأصفياء أن هذه الثلاث سبق (إليها) الصحابة رضى الله عنهم، لأنهم كانوا السبب فى بلوغ الإسلام إلينا ، وفى تعلمنا العلم ، وفى الحكم بالعدل فيما ولوا ، وفى فتوح البلاد شرقاً وغرباً ، فهم شركاؤنا وشركاء من يأتى بعدنا إلى يوم القيامة ، وفى كل خير يعمل به مما كانوا السبب فى تعليمه أو بسطه أو فتحه من الأرض . واعلموا أن لولا المجاهدون لهلك الدين ولكنّا ذمةً لأهل الكفر ، فتدبروا هذا فإنه أمر عظيم ، وإنما هذا كله إذا صفت النيات وكانت لله ، فقد سئل النبى عن عمل المجاهد وما يدانيه ، فأخبر عليه السلام أنه لا يعد له أمر إلا أمر لا يستطاع ، فسألوه عنه فقال كلاماً معناه : أيقدر أحدكم أن يدخل مصلاه إذا خرج المجاهد فلا يفتر من صلاة وصيام ؟ فقالوا : يارسول الله ، لا نطيق ذلك . فأخبرهم أن هذا مثل

المجاهد . وأخبرهم أيضاً عليه السلام : أن روث دابّته و بولها ومشيها وشربها الماء ، وإن لم يرد سقيها ، كل ذلك له حسنات . وسئل عن أفضل الأعمال ، فأخبر بالصلاة لوقتها و بر الوالدين والجهاد . وسئل عليه السلام عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل ليُرَى مكانه فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو شهيد» أو كما قال ؛ وأخبر عليه السلام : أن الأعمال بالنيات . فهذه الثلاث المراتب هى مراتب السبق التى من أمكنه شىء منها فليجهد نفسه ، وما توفيقى إلا بالله عز وجل . ومن أحب قوماً فهو معهم ، فقد قال رجل : يارسول الله [٢٤٠ ظ] متى الساعة ؟ فقال له عليه السلام : ماذا أعددت لها ؟ فاستكان الرجل وقال : يارسول الله ، ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . فقال له : أنت مع من أحببت . أو كما قال عليه السلام .

و بعد هذه المرتبة مرتبة رابعة ، هى مرتبة الحظوة والقربة ، وهى حالة إنسان مسلم فتح الله له باباً من أبواب البر مضافاً إلى أداء فرائضه ، إما فى كثرة صيام أو كثرة صدقة، أو كثرة صلاة، أو كثرة حج وعمرة، وما أشبه ذلك، فهذا له نوافل عظيمة وخير كثير، إلا أنه ليس له إلا ما عمل ، وصحيفته تطوى بموته ، حاشا من حبس أرضاً أو أصلاً تجرى صدقته بعده ، كما اختار النبى لعمر رضى الله عنه إذ شاوره فيما يعمل فى أرضه بخيبر ، فإن هذا أيضاً تلحقه الحسنات بعد موته ما دامت الصدقة .

ولقد سمعت أبا على الحسن بن سلمون المسيلى يقول كلاماً استحسنته ، وهو أنه قال لى يوماً : من كثرت ذنوبه فعليه بكسب الضياع . ولعمرى لقد قال الحق ، فإن الضيعة إذا كسبت من حل ومن أرض مباح اكتسابها ، فقد نص النبى

---

١٧ ــ الحسن بن سلمون المسيلى : فى التكملة : الحسين ؛ من أهل قرطبة ، كان أحد الفقهاء المشاورين الذين أمر بتأخيرهم على بن حمود ، ثم أعادهم إلى الشورى (انظر التكملة رقم : ٧٢٦) .

أن كل من أكل من غرس مسلم أو من زرعه فهو له صدقة . وإذا اكتسبت من غير وجه مرضى، فهى غل وثقل على من اكتسبها . فاعتمدوا على حض ماحض لكم نبيكم عليه السلام ، ودعوا كلام الفساق من أهل الجهل الذين يفسدون فى الأرض أكثر مما يصلحون . فيحكون عن رجل أنه وجد ابنته قد غرست دالية فقلعها وقال : إنا لم نبعث لغرس الدوالى . فاعلموا أن هذا الرجل جاهل سخيف العقل مخالفٌ لرسول الله ، مهلك للحرث ، مفسدٌ فى الأرض . فهذه مرتبة رابعة ، وهى دون المراتب الثلاث الأول .

ثم مرتبة خامسة : وهى مرتبة الفوز والنجاة وهى حالة إنسان مسلم يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر ويقتصر على ذلك ، فإن فعل هذا فمضمون له على الله تعالى الغفران بجميع سيئاته ودخول الجنة والنجاة من النار ؛ قال الله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ [سورة النساء : ٣١] ، وقد نص النبى عليه السلام فى الذى سأله عن فرائض الإسلام فأخبره بها فقال: والله لاأزيد عليها ولا أنقص ، قال عليه السلام : أفلح إن صدق ، ودخل الجنة إن صدق . فهذه المراتب الخمس هى مراتب الزلفى والقربى التى لا خوف على أهلها وهم لا يحزنون .

ثم بعدها مرتبتان [٢٤١ و] وهما مرتبتا السلامة مع الغرر ، وعاقبتهما محمودة ، إلا أن ابتداءهما مذموم مخوف هائل ، وهما حال إنسان مسلم عمل خيراً كثيراً وشراً كثيراً ، وأدى الفرائض وارتكب الكبائر ، ثم رزقه الله التوبة قبل موته . والثانية حال امرىء مسلم عمل حسنات وكبائر ومات مصرًّا ، إلا أن حسناته أكثر من سيئاته . وهذان غرَّرا ولكنهما فائزان ناجيان بضمان الله عز وجل لهما إذ يقول : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [سورة طه : ٨٢] ، ولقوله

---

١٦ ـ الغرر : الغرور .

﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ﴾ [سورة القارعة : ٦] ولقوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [سورة هود : ١١٤] ، ولا خلاف بين أحد من أهل السنة فيما قلنا من هذا .

ثم مرتبة ثامنة وهى مرتبة أهل الأعراف ، وهى مرتبة خوف شديد وهول عظيم ، إلا أن العاقبة إلى سلامة ، وهى حال امرئ مسلم تساوت حسناته وكبائره ، فلم تفضل له حسنة يستحق بها الرحمة ، ولا فضلت له سيئة يستحق (بها العذاب) وقد وصف الله صفة هؤلاء فى الأعراف ، فقال تعالى بعد أن ذكر مخاطبة أهل الجنة لأهل النار ﴿ فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴾ [سورة الأعراف:٤٤] ثم قال بعد آية ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ [سورة الأعراف:٤٦ـ٤٧]

فهذه الوقفة لايعدل همها والإشفاق منها سرور الدنيا كله ، ولكنهم ناجون من النار داخلون الجنة ، لأنه لادارسواهما ، فمن نجا من النار فلا بد له من الجنة ، وليتنا نكون من هذه الصفة ، فوالله إنها لمن أبعد آمالى التى لا أدرى كيف التوصل إليها إلا برحمة الله ، وأما بعمل أعلمه منى فلا .

ثم مرتبة تاسعة وهى مرتبة نشبة ومحنة وبلية وورطة ومصيبة وداهية ، نعوذ بالله منها ، وإن كانت العاقبة إلى عفو وإقالة وخير ، وهى حال امرىء مسلم خفت موازينه ورجحت كبائره على حسناته ، فهؤلاء الذين وصفوا فى الأحاديث الصحاح أن منهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من يبقى فيها ما شاء الله من الدهور ، كما وصف النبى عليه السلام فى مانع الزكاة أنه يبقى فى العذاب الموصوف فى الحديث يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى مصيره

---

١٦ ـ نشبة : تشبه .

إلى جنة أو إلى نار ، فيالها بلية ما أعظمها ؛ وكما نص عليه السلام أنه سأل أصحابه: « من المفلس عندكم » ؟ قالوا : يارسول الله ، الذى لا دينار له ولا درهم ، فأخبرهم عليه السلام [٢٤١ ظ] أن المفلس هو الذى يأتى يوم القيامة وله صيام وصلاة وصدقة فيوجد قد شتم هذا، وقتل هذا وظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، فينتصفون من حسناته حتى إذا لم يبق له حسنة أخذ من سيئات هؤلاء الذين ظلم فرميت عليه ، ثم قذف به فى النار . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ [سورة العنكبوت : ١٣] ، فيبقى هؤلاء فى النار على قدر ما أسلفوا ، حتى إذا بقوا كما جاء فى الحديث الصحيح ، جاءت الشفاعة التى ادّخرها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وجاءت الرحمة التى ادّخرها لذلك اليوم الفظيع والموقف الشنيع وأخرجوا كلهم من النار فوجاً بعد فوج بعد ما امتحشوا أو صاروا حمماً . والله أيها الإخوة لولا أن عذاب الله لا يهون منه شىء ولا يتمناه عاقل لتمنيت أن أكون من هؤلاء خوفاً من خاتمة سوء ، وأعوذ بالله مما يوجب الخلود .

و يقتضى جوابه تعالى إذ يقول : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [سورة المؤمنون : ١٠٨] ولكن يمنعنى من ذلك الرجاء فى عظيم عفوه عز وجل ، وإن النفس لا تساعد على أن تعد شيئاً من عذاب الله خفيفاً ولو نظرة إلى النار ، أعاذنا الله منها ، فوالله إن أحدنا ليستشنع موقف جنايته أو موقف قصاصه بين يدى مخلوق ضعيف ، فكيف بين يدى الخالق الذى ليس كمثله شىء ، والذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، والذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ فكيف بنار أشد من نارنا بسبعين ضعفاً ؟ فتأملوا ذلك عافانا الله وإياكم منها فى فعل الصواعق فى صُمِّ الهضاب وشُمِّ الجبال ، فإنها تبلغ فى التأثير فيها فى ساعة مالا تبلغه

---

١٧ ـ جنايته : جا .

نارنا لو وقدناها هنالك عاماً مجردًا ، فكيف بجلود ضعيفة ونفوس ألِمَةٍ ، هذا على أن الحسن البصرى رضى الله عنه ذكر يوماً موقف رجل يخرج من النار بعد ألف سنة فقال: ياليتنى ذلك الرجل! و إنما تمنى الحسن هذا خوفاً من خاتمة شقاء ، وأن يموت على غير الإسلام فيستحق الخلود فى النار فى الأبد ، فقد كان ابن عمر رضى الله عنهما يدعو الله أن يميته على الإسلام ، وكان الأسود بن يزيد يقول : ما حسدت أحدًا حسدى مؤمناً قد دُلِّىَ فى قبره ! و إنما تمنى الأسود ذلك لأنه إذا مات مسلمًا أمن الكفر . فهذه المرتبة أيها الأخوة مرتبة نعوذ بالله منها ، فقد صح عن النبى عليه السلام أن المرء المنعَّم فى الدنيا يغمس فى النار غمسة ثم يقال : أرأيت خيرًا قط ؟ فيقول : لا ما رأيت خيرًا قط ! هذا فى غمسة ، فكيف بمن يبقى خمسين ألف سنة يجدَّدُ له فيها أضعاف العذاب ؟ على أنه قد صح عن النبى عليه السلام [٢٤٢ و] من طريق أبى سعيد الخدرى أن آخر أهل النار دخُولاً الجنة وخروجاً من النار ، وأقل أهل الجنة منزلة ، رجل أمره الله أن يتمنى فيتمنى مثل مُلْكِ مَلِكٍ كان يعرفه فى الدنيا فيعطيه الله مثل الدنيا كلها عشر مرّات ، وهذا حديث صحيح ، فلا يدخلنكم فيه داخلة لبراهين يطول فيها الكلام ولِصِغَر قدر الأرض وقلته فى الإضافة إلى قدر الآخرة وسعتها ، يعلم ذلك من علم هيئة العالم وتفاهة الأرض فى عظم السموات . ولعمرى إن هذه فضيلة عظيمة ، لا سيما إذا فكرنا أنها خالدة لاتنقضى أبداً . ولكن إذا فكرنا فيما قبلها من طول المكث بين أطباق النيران ، يتجرعون الزقوم و يشربون الغسلين ، ولهم مقامع من حديد ، والأغلال فى أعناقهم ، والملائكة يسحبونهم على وجوههم ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، لم يف بذلك سرور و إن جلّ ، ونسأل الله أن يجيرنا و إياكم من هذه المرتبة ، آمين .

٢ ـ الحسن البصرى . . . إلخ : انظر الحسن البصرى لابن الجوزى : ١٦ .

٥ ـ ٦ الأسود بن يزيد توفى فى الكوفة سنة ٧٥ ؛ انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٦ : ٧٠ ـ ٧٥، وكتاب الزهد : ٣٤٧.

فلهؤلاء ذخرت الشفاعة وفى جملتهم يدخل من لم تـكن له وسيلة ، ولا عمل خيرًا قط غير اعتقاد الإسـلام والنطق به ، ولا استـكفّ عن شر قط حاشا الـكفر ، على قدر مايفضل من السيئات على الحسنات يكون العذاب ، فأقله غمسة كما جاء فى الحديث المذكور منه آنفاً ، ومن يلج منه عضو فى النار كما جاء فى حديث جواز الصراط ، وأكثره الذى ذكرنا أنه آخر أهل الإسلام خروجًا من النار فى الحديث المذكور آنفاً .

وأما المرتبة العاشرة فهى مرتبة السُّحْق ، والبعد ، والهلـكة الأبدية ، وهى مرتبة من مات كافرًا ، فهو مخلد فى نار جهنم لايخفف عنهم من عذابها ، ولا يقضى عليهم فيموتوا ، خالدين فيها أبداً ، سواء صبروا أم جزعوا ، ما لهم من محيص . اللهم عياذك ، عياذك من ذلك ، وقد هان كل ما تقدم ذكره عند هذه : « وإنما نوكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضى » ، ثبتنا الله وإياكم على الإسـلام والإيمان واتباع محمد عليه السلام . فهذا جواب ما سألتم عنه من السيرة المختارة التى أحسد عليها صاحبها ، وأتمنى أعاليها ، قد لخصتها وفسرتها ، ثم أعيدها لـكم مختصرة ، ليكون أقرب للذكر وأسهل للحفظ إن شاء الله تعالى فأقول ، وبالله التوفيق : إن أجل سير المسلم ثلاثة: طلب العلم ، ونشره ، والحكم بالعدل لمن ولى شيئاً من أمور المسلمين والجهاد ـ كلٌّ هذا مع أداء الفرائض واجتناب المحارم . وبعد هذا المداومةُ على الوتر ، وركعتى الفجر والضحى ، وركعتين فى الليل وقبل الوتر [٢٤٢ ظ] فى منزله ، وركعتين متى دخل المسجد ، فإن زاد فليصل الضحى ثمانى ركعات ، وليصل اثنتى عشرة ركعة فى آخر الليل فى منزله قبل الوتر أو فى أى وقت أمكنه من الليل ، ولا أحب له الزيادة فى الضحى على ما ذكرت ، لـكن من أراد الزيادة فليطوِّل

١٠، ١١ ـ نوكل بالأدنى . . . إلخ : عجز بيت من الشعر لأبى خراش الهذلى وصدره : « على أنها تعفو الـكلام وإنما » (انظر ديوان الهذليين ١ : ١٥٨) .

١٨ ـ اثنتى عشرة : اثنا عشر .

القراءة والركوع والسجود ما شاء ، فإنى أخاف عليه ما خافه مالك بن أنس إذ سأله سائل عن رجل أحرم قبل الميقات ، فكره ذلك وقال : لعله يتوهم أنه يأتى بأحسن مما أتى به نبيه عليه السلام فيهلك ! وأنا أكره لكل أحد أن يزيد على عدد ما كان يتنفل به نبيه محمد لوجهين : أحدهما قول الله عز وجل : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] ، والثانى : أن يخطر الشيطان فى قلبه فيوسوس أنه قد فعل من الخير أكثر مما كان محمد يفعله ، فيهلك فى الأبد ويحبط عمله ، ويجد صلاته وصيامه فى ميزان سيئاته ، فيالها مصيبة ما أعظمها ، أن يحصل فى جملة من قال الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارًا حامية ﴾ [سورة الغاشية ٢ ـ ٤] فلا دنيا ولا آخرة ، على أن مداواة هذا البلاء لمن امتحن به سهلة ، وهى أننا نقول : ليعلم العاقل أن تكبيرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم عند الله وأجل من كل عمل خير يعمله جميعنا ، لو عمر العالم كله .

فإن أحبّ المزيد كما ذكرنا فليركع أربع ركعات فى منزله قبل الظهر ، وركعتين قبل العصر ، وركعتين بعد العصر ، وركعتين بعد المغرب ، وكل هذه النوافل فهى فى البيوت أفضل منها فى المسجد ، وركعتين بعد غروب الشمس وقبل صلاة المغرب ، إما فى المنزل ، وإما فى المسجد ، وست ركعات بعد صلاة الجمعة ويستحب للمرء أن لا يقصر من الصيام عن صيام يوم عرفة ويوم عاشور التاسع والعاشر ، وستة أيام من شوال مضافة إلى رمضان ، لا يحول بينه وبينها إلا يوم الفطر وحده ، فقد صح عن النبى عليه السلام أن ذلك يعدل صيام الدهر ، وأن صيام يوم عرفة وعاشور يكفر عامين وعاما ، وهذا أمر لا يزهد فيه إلا محروم . فإن أحب المزيد فليصم الاثنين والخميس ، فإن أحب المزيد فليصم يوماً ويفطر يوماً ، فإن زاد على ما ذكرنا فهو آثم عاص ، سئل رسول الله عن صيام الدهر فقال : لا صام ولا

أفطر . وقد روى عنه عليه السلام ما هو أشد من هذا ، وصحّ أنه سئل عن أفضل من صيام يوم و إفطار يوم قال: « لاأفضل من ذلك» ، فمن (لم) ينته إلى ما حدّهُ له نبيه فلا عفا الله عنه . والحج والعمرة والتطوع كذلك حسن جداً وأجر عظيم ، لا جزاء له إلا الجنة بنص كلامه عليه السلام ، والصدقة بما تيسر ، فإن الإكثار منها فيما فضل عن قوته و بما بقى له غناء ، ولا تحل الصدقة [٢٤٣ و] بأكثر من ذلك ، وعياد مرضى الجيران ، وشهود جنائزهم ، فرض على كل مسلم جار على الكفاية ، ولقاء الناس بالبشر والبر وانطلاق الوجه ، وهذا كله بعد أداء الفرائض واجتناب الكبائر ، و يستحب من الذكر ما تقدم فى أول هذه الرسالة ، فبهذا يتخلص المسلم من عذاب الله ، و يستوجب الجنة بفضل الله، فمن عجز عن هذا كله فليقتصر على أداء الفرائض واجتناب الكبائر فإنه فائز ، ومع هذا فليخف ربه وليحسن الظن به ، فقد صح عنه عليه السلام أنه قال: إن الله يقول : أنا عند ظن عبدى بى . فاعلموا أن تحسين الظن بالله تعالى أجر عظيم ، وأنه عمل بالقلب رفيع فاضل ، فلعل ربه تعالى قد حفظ له حسنة لا يلقى العبد إليها باله ولا يذكر علتها ، كما أنه أيضا ربما هلك بسيئة حفظت عليه كان هو يحقرها ، وليدم على فعل الخير و إن قل، فبهذا جاء الأثر الصحيح: «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها». ولا أحبّ لنفسى ولكم ولا لأحد من المسلمين التقصير عن هذا ، فمن ابتلى بالتقصير عنه فليتدارك نفسه بالتوبة والندم والاستغفار فيما سلف فإنه يجد ربَّه قريباً إذا راجعه ، قابلاً له إذا فزع إليه ، غافراً لما سلف من ذنوبه كما قال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [سورة غافر : ٣] . فمن امتحن بتسويف التوبة ومماطلة النفس، فليكثر من فعل الخير ما أمكنه ، ولعل حسناته تذهب سيئاته ، وليدخل فى قوله: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ [سورة التوبة : ١٠٢] ، ولعله يقل مكثه فى النار ، فقد جاء النص الصحيح

بتفاضل مقامهم ، فمن ابتلى وعجز فليتمسك بالعروة الوثقى ، عروة الإسلام ، وليعلم قبح ما يقول ، فلعله ينجو من الخلود ، وهو ناج منه بلا شك إن مات مسلماً .

٣ ـ وسألتم ـ رحمنا الله وإياكم ـ عن طلب العلم وهل الآداب من العلم ، تعنون النحو واللغة والشعر ، وعن طلب الاشتغال بروايات القراء السبعة المشهورين على اختلاف ألفاظها وأحكامها ، وعن قراءة الحديث ، وعن مسائل ، فنعم ـ وفقنا الله وإياكم لما يرضيه ـ : أما الاشتغال برواة القراء المشهورين السبعة وقراءة الحديث وطلب علم النحو ، واللغة ، فإن طلب هذه العلوم فرض واجب على المسلمين على الكفاية ، بمعنى أن من قام بطلبها حتى يعم بعلمه بها تعليم من طلبها أو فتيا من استفتاه فيها من أهل بلده أو قريته . فإذا قام بذلك من يعنى بهذا القدر ، سقط فرض طلبها حينئذ عن الباقين ، إلا مايخص كلَّ إنسان فى نفسه فقط . فالذى يلزم كل إنسان من حفظ القرآن فهو أم القرآن وشيء من القرآن معها ، ولو سورة أى سورة كانت ، أو أى آية ، فهذا لا بد لكل إنسان منه . ثم طلب علم القرآن واختلاف القراء السبعة فيه وضبط قراءتهم [٢٤٣ ظ] كلهم ، فرض على الكفاية وفضل عظيم لمن طلبه إن كان فى بلده كثير ممن يحكمه وأجر جزيل ، قال عليه السلام : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ، فكفى بهذا فضلاً ، وقد أمر عليه السلام بتعليم القرآن فمن تعلمه فهو خير ولو ضاع هذا الباب لذهب القرآن وضاع ، وحرام على المسلمين تضييعه ، وذهابه من أشراط الساعة ، وكذلك ذهاب العلم . وأما النحو واللغة ففرض على الكفاية أيضا كما قدمنا ، لأن الله يقول : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [سورة إبراهيم : ٤] ، وأنزل القرآن على نبيه عليه السلام بلسان عربى مبين ، فمن لم يعلم النحو واللغة ، فلم يعلم اللسان الذى به بين

---

٤ ـ تعنون : يعنمون .

الله لنا ديننا وخاطبنا به . ومن لم يعلم ذلك فلم يعلم دينه ، ومن لم يعلم دينه ففرضٌ عليه أن يتعلمه ، وفرضٌ عليه واجب تعلم النحو واللغة ولا بد منه على الكفاية كما قدمنا ، ولو سقط علم النحو لسقط فهم القرآن وفهم حديث النبى ، ولو سقط لسقط الإسلام ، فمن طلب النحو واللغة على نية إقامة الشريعة بذلك ، وليفهم بهما كلام الله تعالى وكلام نبيه وليفهمه غيره ، فهذا له أجر عظيم ومرتبة عالية لا يجب التقصير عنها لأحد . وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل للنحو واللغة فحرام عليه يفتى فى دين الله بكلمة ، وحرام على المسلمين أن يستفتوه ، لأن لا علم له باللسان الذى خاطبنا الله تعالى به . وإذا لم يعلمه فحرام عليه أن يفتى بما لا يعلم ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [سورة الاسراء : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ [سورة النور : ١٥] . فمن لم يعلم اللسان الذى به خاطبنا الله عز وجل ، ولم يعرف اختلاف المعانى فيه لاختلاف الحركات فى ألفاظه ، ثم أخبر عن الله بأوامره ونواهيه فقد قال على الله مالا يعلم . وكيف يفتى فى الطهارة من لا يعلم الصعيد فى لغة العرب ؟ وكيف يفتى فى الذبائح من لا يدرى ماذا يقع عليه اسم الذَّكاة فى لغة العرب ؟ أم كيف يفتى فى الدين من لا يدرى خفض اللام أو رفعها من قول الله عز وجل ﴿ إن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾ [سورة التوبة : ٣] ، ومثل هذا فى القرآن والسنة كثير ، وفى هذا كفاية . فمن طلب علم النحو واللغة على النية التى ذكرنا فهو [٢٤٤ و] أعظم أجر وأفضل علم ، ومن طلبهما ليكونا له مكسباً ومعاشاً فهو مأجور محسن ، ولكن أجره دون أجر الأول ، وفوق سائر الصناعات

التى يعاش منها ، لأنه يعلِّم الخير و يبقى آخر عالماً فيمن علم ، ومن طابهما ليتوصل بهما إلى إقامة المظالم و إحياء رسوم الجور والتدرب فى أحكام المكوس والقبالات والمخاطبة عن فساق الملوك بما يرضيهم و يسخط الله عز وجل ، فقد خاب وخسر وغدا فى لعنة الله وراح فيها ، لأنه ظالم وقد قال الله : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [سورة هود : ١٨] .

وأما علم الشعر فإنه على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن لا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام ، يبين ذلك قوله عليه السلام : لأن يملأ ، أو يمتلىء ، جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً .

والثانى : الاستكثار منه ، فلسنا نحبه وليس بحرام ، ولا يأثم المستكثر منه إذا ضرب فى علم دينه بنصيب ، ولكن الاشتغال بغيره أفضل .

والثالث : الأخذ منه بنصيب ، فهذا نحبه ونحض عليه ، لأن النبى عليه السلام قد استنشد الشعر ، وأنشد حسان على منبره عليه السلام . وقال عليه السلام : «إن من الشعر حكماً » وفيه عون على الاستشهاد فى النحو واللغة . فهذا المقدار هو الذى يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر ، وفى هذا كفاية ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وأما من قال الشعر فى الحكمة والزهد فقد أحسن وأجر ، وأما من قال معاتباً لصديقه ومراسلاً له ، وراثياً من مات من إخوانه بما ليس باطلاً ، ومادحاً لمن استحق الحمد بالحق ، فليس بآثم ولا يكره ذلك ، وأما من قال هاجياً لمسلم ، ومادحاً بالكذب ، ومشبباً بحرم المسلمين ، فهو فاسق ، وقد بين الله هذا كله بقوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢٤] .

---

٧ ـ آحدها : أحدها .

والذى يجب على طالب العلم أن لا يقتصر على أقل منه من النحو ، فمعرفة ما يمر من القرآن والسنة من الأعراب ، ويكفى من ذلك كتاب الواضح أو كتاب الزجاجى، فإن زاد وأوغل حتى يحكم كتاب سيبويه وماجرى مجراه فقد أحسن ، وذلك زيادة فى فضله وأجره . وأما من اللغة فمثل ذلك أيضاً ، ويجزىء عنه منه [٢٤٤ ظ] الغريب المنصف لأبى عبيد ، فإن زاد وأوغل واستكثر من دواوين اللغة فقد أحسن وأجر . ويجب رواية شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم ، وما خف من مختار أشعار الجاهليين ومختار أشعار المسلمين ، غير مستكثر من ذلك ، ولكن بقدر ما يتدرب فى فهم معانى لغة العرب .

وعلم الحساب والطب أيضاً من العلوم الرفيعة ، فمن طلب علماً من ذلك لينتفع به الناس فى القسمة والعلاج وحساب مقابلتهم فهو مأجور . وتعلم هذا المقدار فرض على الكفاية ، إذ لو جهل هذا لضاع كثير من الدين ، كحساب الوصايا والمواريث ومعرفة البيوع وغير ذلك . ومن طلبهما ليكتسب منهما فمأجور أيضاً ، ومن طلبهما ليتوصل بهما إلى الظلم فآثم فاسق .

وأما معرفة قراءة الحديث ففرض على الكفاية بقوله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ ، [سورة التوبة : ١٢٢] . ولاسبيل إلى التفقه فى الدين إلا بمعرفة أحكام القرآن ، وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، صحيحه من سقيمه ، وناسخه من منسوخه ، وما أجمع عليه مما اختلف فيه ، فهذا أفضل ما استعمل المرء فيه نفسه ، وأعظم ما يحاول لأجره وأمحاه لذنوبه . وقد قسم النبى

---

٣ : ٥ ـ وأوغل : أو على .

هذا الباب أقساماً كثيرة كافية كما حدثنا القاضى حمام بن أحمد ، قال : ثنا عبد الله ابن إبراهيم الأصيلى ، نبأ أبو أحمد الجرجانى ، نبأ محمد بن يوسف الفربرى ، نبأ محمد ابن إسماعيل البخارى، نبأ محمد نبأ حماد بن سلمة، عن بُرَيد بن عبدالله ، عن أبى بردة، عن أبى موسى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث كثير أصاب أرضاً فكان منها نقِيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفةً أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»؛ فهذا الحديث أيها الأخوة الأصفياء لو لم يأتنا غيره لكفانا، ففيه جماع طبقات الناس كما ترون ، والطائفة الأولى التى أنبتت الكلأَ والعشب هم الذين فهموا معانى القرآن والحديث وتدينّوا بها وعلموها الناس ؛ والطائفة الثانية التى أمسكت الماء فشربَ الناس منها فسقوا ورعوا هم الشيوخ الذين رووا لنا الحديث [٢٤٥و] ، وقيدوه وعنوا به و بلغوه إلينا فأخذناه عنهم و إن لم يكن لهم فقه فيه ، ولكنهم رضى الله عنهم أجروا فينا أجراً عظيماً ، لأنهم كانوا سبب علمنا ، فهم شركاؤنا فى كل ماقيّدنا وعلمنا مما أخذنا عنهم . والطائفة الثالثة هى المعرضة عن النبى صلى الله عليه وسلم التى لا ترفع به رأساً ولا تقبله إذا سمعته ولا تعنى به ولا تطلبه ، كما أن تلك القيعان مرَّ عليها الماء مراً ، كما دخل خرج . فمن استطاع منكم أيها الإخوة فى الله عز وجل أن يكون

---

٤ ــ مثل ما بعثنى ... إلخ : انظر باب العلم من صحيح البخارى ، والعينى ١ : ٤٦٥

٧ ــ ورزعوا : فى هامش ص : صوابه « ورعوا » وكذلك أخرجه مسلم فى كتابه ، إذ الزرع فى الأول ، وتصفحت اللفظة فى البخارى، والله أعلم من النقلة .

١٠ ــ جماع : إجماع .

١١ ــ التى : الذى .

من الطائفة الأولى النّقية فليفعل ، فحسب الواحد منا أن يكون فى جملة من أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . و إن لم يمنح ذلك ، فليكن من الأجادب التى تمسك الماء ، لعلّ الله ينفع بنا و بكم فى ذلك ، ولو أن يموت أحدنا وهو مقيد بحديث النبي يشاهد مجالسة طالب له مستكثر منه ، فأُعيذ نفسى و إياكم أن نكون من القيعان التى لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً .

وأما كتب الرأى ، فاعلموا أنها لا تحل قراءتها على معنى تقليد ما فيها والتدين به ، و يكفى فى هذا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾، [سورة النساء : ٥٩] ،فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فحرام عليه أن يرد شيئاً مما اختلف فيه إلى قول عائشة وأم سلمة وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وابن مسعود، ومعاذ والعباس رضى الله عنهم أجمعين،وهؤلاء أفاضل الأمة وعلماؤها ، فكيف إلى قول أبى حنيفة و إلى سفيان ومالك والشافعى وأحمد وداوود وأبى يوسف ومحمد وابن القاسم ؟ لأن من ردّ ذلك إلى غير القرآن وحديث النبى عليه السلام، فقد خالف ما أمره به تعالى فى الآية المذكورة . ومن لم (يفعل) ماأمر الله تعالى به ، فقد عصى الله عز وجل ورسوله واستحق أقبح الصفات، ولم يحكم بما أنزل الله عز وجل ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وقد أخبرنا حمام بن أحمد ، قال ثنا عبد الله بن على الناجى، ثنا محمد بن عبدالملك بن أيمن، نبأ أحمد بن مسلم، نبأ أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى، نبأ وكيع بن الجراح، عن هشام ابن عروة ، عن أبيه [٢٤٥ظ]، عن عبدالله بن عمرو ، عن النبى عليه السلام أنه قال: «لا ينزع العلم انتزاعاً من قلوب الرجال، ولكن ينزع بذهاب العلماء ،فإذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بالرأى فضلوا وأضلوا» . وقال عبدالله بن عمر : لم يزل أمر بنى إسرائيل مستقيماً حتى فشا فيهم أبناء سبايا الأمم فقالوا بالرأى، فضلوا

وأضلوا . وقد أخبرنا بهذا الحديث أيضاً حمام بن أحمد بن عبد الله بن إبراهيم، نبأ أبو أحمد وأبو زيد المروزى كلاهما عن محمد بن يوسف الفربرى، عن محمد بن إسماعيل البخاري ، نبأ سعيد بن تليد ، نبأ ابن وهب ، ثنى عبد الرحمن بن شريح وغيره عن محمد أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله يقول: «إن الله لاينزع العلم بعد إذا أعطاكموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه بقبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال فيستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون» فهذان عدلان جليلان أبو الاسود محمد بن عبد الرحمن يتيم عروة وهشام شهدا على عروة ، وشهد عروة على عبد الله ، وعبد الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أبلغتكم ، وليس اختلاف الألفاظ بموجب تعليلاً فى الرواية إذا كان المعنى واحداً فقط ، فصح أن النبي كان إذا حدث بحديث كرره ثلاث مرات فيؤديه السامع على حسب ما سمع فى كل مرة : فهذه صفة الرأى واعلموا رحمكم الله أنى أقول إعلاناً لا أسره أن تقليد الآراء لم يكن قط فى قرن الصحابة رضى الله عنهم ، ولا فى قرن التابعين ولا فى قرن تابع التابعين ، وهذه هى القرون التى أثنى النبى عليها ، وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا سبيل إلى وجود رجل واحد فى القرون الثلاثة المتقدمة قلد صاحباً أو تابعاً أو إماماً أخذ عنه فى جميع قوله فأخذه كما هو، وتدين به وأفتى به الناس ، فالله الله فى أنفسكم ، لا تفارقوا ما مضى عليه جميع الصحابة أولهم عن آخرهم وتابعهم عن (متبوعهم) ، وتابع التابعين أولهم عن آخرهم دون خلاف من واحد منهم ، من ترك التقليد واتباع أحكام القرآن وحديث النبى عليه السلام وروايته والعمل به . فاجتنبوا هذه [٢٤٦ و] الحادثة فى القرن المذموم المخالفة للاجماع المتقدم . وبعد أزيد من مائتين وخمسين عاماً من موت النبى عليه السلام ، فكل

---

٥ ـ إن الله لا ينزع . . . الخ : انظر البخارى : كتاب الاعتصام (٧) ، والعينى ٤ : ٢٨٥ ، وانظر راموز الحديث : ٩١ فى أحاديث مشابهة .

بدعة ضلالة ، فقد نصحت لكم وأديت ما لزمنى فى ذلك ، و بقى ما عليكم . فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الدِّين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . و إنما يجوز قراءة كتب الرأى على وجه أذكره لكم ، وهو طاب ماأجمع عليه أئمة العلماء فيتبع و يوقف عنده ، لأن الله أمرنا فى الآية التى تلونا بطاعة أولى الأمر منا ولنعرف مااختلف فيه العلماء فيعرض على كتاب الله عز وجل،وعلى حديث النبى ، فلأىّ تلك الأقوال شهد القرآن والسنة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذنا به ، ونترك سائر ذلك إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر ، فهو أعرف بنفسه .

فعلى هذا الوجه يجب قراءة كتب الرأى ، لا على ماسواه . فمن قرأها على هذا أجر ، وانتفع بها جداً ، وأما من قرأها متديناً بها غير عارض لها على القرآن وحديث النبى فهو فاسق ، لعصيانه ما أمره الله تعالى به ، ولأنه لم يحكم بما أنزل الله . فمن جمع إلى هذا استحلال مخالفة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم مما يعتقد صحته عنه عليه السلام لقول أحد دونه، واعتقد أنّ هذا جائز فهو كافر مشرك مرتد عن الديانة ، منسلخ عن الإسلام، حلال الدم والمال . رو ينا عن النبى أنه قال: « كل أحد يدخل الجنة إلا من أبَى . قيل : يا رسول الله ومن يأبَى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى» . ولاتحسبوا أنى سَبَقْتُ إلى هذا القول، فمعاذ الله أن أقول مالم يقله الله تعالى ورسوله، قال الله تعالى : ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ ، [سورة النساء : ٦٥] .

فأنا أقول : والله ما آمن مَنْ حَكَّمَ غيرَ رسول الله فى دينه . واعلموا أيضاً أن هذا الذى قلت هو رأى الشافعى ومالك و إسحاق بن راهو يه ،فإنه بلغنى عن

٨ ــ فهو أعرف بنفسه : كذا فى س ، ويبدو فيه انقطاع .

مالك ، رحمه الله ، أنه سأله سائل فقال : يا أبا عبد الله ، ماتقول فى رجل قيل له : قال النبى كذا. فقال هو : قال إبراهيم النخعى كذا. فقال مالك: أرى أن يستتاب ، فإن تاب و إلا قتل . و بلغنى عن الشافعى ، رحمه الله ، أنه ذكر يوماً حديثاً عن النبى عليه السلام [٢٤٦ ظ] فقال له إنسان : يا أباعبد الله ، أتأخذ بهذا الحديث ؟ فقال له الشافعى : أرأيت يا هذا علىّ زناراً خارجاً من كنيسة ؟ تسمعنى أحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم وتقول لى : تأخذ به ؟ ومالى لا آخذ به ؟ إذا صح الحديث عن رسول الله فهو دينى وقولى . وذكر محمد بن نصر عن إسحاق بن راهويه أنه قال : من سبّ رسول الله أو ترك صلاة فرضاً متعمداً حتى خرج وقتها بلا عــذر أو رد حديثاً مسنداً صحيحاً بلغه عن رسول (الله)، فهــو كافر مشرك .

وقد سمعنا أصحابنا يحكون عن ابن القاسم ، رحمه الله ، أنه كان لا يجيز بيع كتب الرأى فسئل عن ذلك فأخبر أنه لا يدرى أحق هو أم باطل . وأجاز بيع المصاحف وكتب الحديث، لأن الذى فيها حق . فكيف يظن جاهل لا يتقى الله عز وجل أن مالك بن أنس، وابن القاسم يلزمان الناس بتقليدهما وهما يقرّان أنهما لا يعلمان أحقٌ ماافتيا برأيهما أم باطل ؟ وقد صح ماهو أغلظ من هذا ، وهو أن مالكاً رضى الله عنه تمنى عند موته أن يضرب بكل مسألة أفتى فيها برأيه سوطاً . وهكذا كان الأئمة الفضلاء قبل زماننا هذا المدبر رضى الله عنهم وعن الباقين ، وفاء بالجميع إلى طاعته ، ووالله لقد خذل الله عز وجل أمة تدين بشىء تمنى قائله أن يضرب بالسياط ولا يقوله .

وأما ما ذكرتم من أمر قارئ هذه العلوم إن حضر بباله هذا الاشتغال بها حبُّ الرئاسة فى الدنيا وطلب الظهور ، وكيف إن كان معظم نيته هذا المعنى . فهذا مذهب سوء . صح عن النبى أنه قال : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله

لايتعلمه إلا ليصيب به عرضاً لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . والحديث الصحيح الذى رويناه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أنه « يؤتى يوم القيامة برجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال: فما علمت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارئ ، وقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » ، والحديث الصحيح عن النبي أنه قال: «إن الله تعالى قال: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه » .

وفيما ناولنى حمام بن أحمد، وأخبرنى أنه أخبر به العباس بن أصبغ [٢٤٧ و] عن محمد بن عبد الملك بن أيمن، نبأ اسماعيل بن إسحاق القاضى ببغداد ، نبأ اسماعيل ابن أبى أويس ، ثنى أخى يعنى أبا بكر، عن سليمان بن بلال، عن إسحاق بن يحيى ابن طلحة، عن ابن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من ابتغى العلم ليباهى به العلماء و يمارى به السفهاء ، أو ليقبل بأفئدة الناس إليه فإلى النار» . وهذه أحاديث فى غاية الصحة وأولاد كعب بن مالك ثقات كلهم، وهم ثلاثة مشهورون : عبد الله وعبد الرحمن وسعيد . فهذا أصلحكم الله و إيانا فتيا نبيكم عليه السلام ، وكلام ربكم عز وجل ، فبأى حديث بعد الله وآياته تؤمنون ؟ أم أى قول بعد قول الله تعالى ، وكلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تطلبون وتقرأون ؟ لا كفى الله من لم يكفه قول ربه تعالى ، وقول نبيه عليه السلام . فالله الله عبادَ الله ، تداركوا أنفسكم بتصفية نياتكم فى هذا الباب وفى العمل المرغوب فى الصلاة والصيام والصدقة، ولا تشوّفوا فى شىء منه قصداً لغير وجه الله تعالى ؛ فو الذى لا إله إلا هو إن من طلب علماً من علوم الديانة ليدرك به عرض

---

١٢ ــ من ابتغى العلم ... الخ : هذا الحديث رواه البيهقى ، والعقيلى فى الضعفاء ، والحاكم فى المستدرك ، انظر راموز الاحاديث : ٣٩٥

١٤ ــ مشهورن : مشهورين .

دنيا أو ذكراً فى الناس أو عمل عملاً مما أمره الله تعالى بعمله له فعمله هو لغيره تعالى، لقد كان أحظى له فى آخرته وأسلم فى عاقبته وأنجى له عند ربه تعالى أن يكون دفاقاً أو بهزرياً . والله لأن يلقى الله تعالى عبد بكل بائقة دون الشرك ، لا أخص من ذلك قتل النفس ولا قطع الطريق ولا ما دونهما ، أخف وزراً من أن يلقاه وقد تدين لغيره وصلى وصام لسواه . واعلموا رحمكم الله أن من تعمد اللهو واللعب حتى مضى وقت صلاة مفروضة ولم يصلها ، أخف ذنباً عند الله تعالى ممن صلاها لأجل الناس، ولولاهم ما صلاها ، لأن كل إنسان من الذين ذكرنا لم يصل الصلاة التى أمر بها ، وزاد هذا الآخر على الأول أن صلاها لغير الله تعالى ؛ وكذلك من طلب العلم لغير الله تعالى ، فإنه ترك الاشتغال بما يصلحه فى دنياه وبما يروِّح به نفسه من البطالة ، وأتعب نفسه فى أفضل الأعمال ، فقصد به التقرب إلى الناس فوكله الله إلى من قصده ، وقال عليه السلام : [٢٤٧ ظ] « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » أو كما قال عليه السلام ، فالجدَّ الجدَّ فإن لإبليس اللعين ها هنا مسلكاً خفيًّا ودبًّا لطيفاً ومولجا دقيقاً يحبط به الأعمال ويهلك به الرجال أجارنا الله وإياكم من كيده وبغيه، ولا وكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فنهلك وأنا أريكم إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ميلقاً يعرف به كل واحد منكم وغيركم ممن يقرأ كتابى هذا ، إن كانت نيته صادقة لله عز وجل أو مشوبة بقصد إلى غيره ، وذلك أن يفكر المرء فى نفسه فيما يعمل من طلب علم أو فعل بر فيقول لها : يا نفس ، أرأيت لو أن من يرانى أو يبلغه خبرى من الناس يكون طريقتهم فى العلم وفى طلبه وفى عملهم على خلاف ما هم عليه كانوا يكرهون هذا الوجه من طلبى لما

---

١٧ ـ ميلقاً : مبدقاً

أطلب ، ولا يستحسنون ما أفعل من البر ، أكنت تفعلينه أم لا ؟ فإن علم من نفسه أنها كانت تفعل ذلك ، سخط الناس أم رضوا ، نفق عندهم أو كسد ، فليحمد ربه تعالى وليبشر ، كان عمله وطلبه خالصاً . وإن وَجَدَ نفسه تخبره أن الناس لو كرهوا ما يطلب وما يعمل لم يطلبه ولم يعمله ، فليعلم أنه هلك وأن عمله وتعبه عليه لا له ، وأنه قد خسرت صفقته ، وأنه قد أشرك فى نيته وعمله غير ربه تعالى ، إذ أفرد به الناس ، فمن أضيع عملاً أو أسوأ منقلباً من هذا ؟ نعوذ بالله من هذه المرتبة ، ونسأله التوقِّى من هذا . وليت شعرى على ماذا يحصل المسكين الذى يطلب العلم ليحظى به فى دنياه ؟ والله لا حصل من ذلك إلا على دنيا منغصة ، ولباس خشن ، ولذات يستتر بها استتار الغراب بسفاده ولا يتهناها موفّرة ، وعلى مالا توفى نفسه منها . ولو طلب الدنيا على وجهها لكان أنفذ لأمره وأعظم لجاهه وأكثر لماله وأوفر للذته وأتم لهيبته ، وأقل لوزره ، وأخف لعذابه . ولا يغرّنكم مَا يقول كاذبٌ على العلماء : « طلبنا العلم لغير الله ، فما زال بنا حتى ردنا إلى الله » ، فلعمرى إن جديراً ألا يبارك تعالى فى كل شىء ابتدأ لغير وجهه عز وجل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل [٢٤٨ و] ؛ وأما إن نوى فى عمله أن يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، ويحكم بالعدل إن ولى شيئاً من أمور المسلمين ، وأن يظهر فى ذلك الحق ما أمكنه ، رضى الناس أم سخطوا ، وأحب مع ذلك أن لا يذل ويكرم ، وكانت نيته أن لا تأخذه فى الله لومة لائم إن آتاه الله حظاً من الدنيا ، وسره أن يؤتى مالاً حلالاً لا يأكله بخلافه ولا يكتسبه بدينه ولم يترك لذلك أمراً يعتقده حقاً ، ولا استعمل لأجل رغبته فيما ذكرنا أمراً يراه باطلاً ،

---

٦ ــ أضيع : أطيم

٨ ــ ليحظى : ليحضا // إلا : إلى

١٣ ــ يبارك تعالى : تبارك وتعالى

١٨ ــ مالا : مال لا

فهذه نية خير ومقصد حسن، ومذهب فاضل كانت عليه الصحابة والتابعون وأئمة الخير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف » . وقد أثنى الله تعالى على الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والدلائل على كل ماقلنا من القرآن والحديث تكثر جداً ، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى .

٤ ــ وأما ما سألتم عنه من أىّ الأمور أفضل فى النوافل : الصلاة أم الصيام أم الصدقة ؟ فقد جاءت الرغائب فى كل ذلك ، وكلها فعل حسن ، وما أحب للمؤمن أن يخلو من أن يضرب فى هذه الثلاث بنصيب ولو بما قلّ ، إلا أن الصدقة الجارية فى الثمار فى الأرضين أحبُّ إلىّ من الصلاة والصوم فى التنفل . وقد روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « إذا صمت ضعفت عن الصلاة ، والصلاة أحب إلى من الصيام » ، ولسنا نقلد فى ذلك ابن مسعود ، ولا نقول أيضاً إن هذا ليس كما قال ، ولكنى أقول: «الله أعلم» ، إذ لا نص فى ذلك عن النبى عليه السلام ؛ ولكنى قد قلت : إنى أحب للمؤمن أن يضرب فى كل الثلاثة بنصيب ويأخذ بحظه من كل واحد ، منها وإن قل ، فذلك إن شاء الله خير له بلاشك من أن يأخذ بإحداهن ولا يأخذ من الباقين نصيباً . وبيان ذلك إن شاء الله أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن المصلين يُدْعَوْن من باب الصلاة ، والصائمين يدعون من باب الصيام ، وأصحاب الصدقة يدعون من باب الصدقة فقال أبو بكر رضى الله عنه : يارسول الله ، ما على من يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها . فقال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . فإنما ما بشَّر به [٢٤٨ ظ] النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وحسبك بهذا اختياراً فاضلاً ، جعلنا وإياكم من أهله ، آمين .

---

١٦ ــ يدعون : يدعو

١٧ ــ تلك : ذلك

٥ ـ وأما ما سألتم عنه مما روى فى حديث التنزل، وهل الإجابة مضمونة فى تلك الساعة، لحديث التنزل صحيح، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه: ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ [سورة غافر : ٦٠]،وأخبرنا تعالى أنه لايخلف الميعاد، ولكن هاهنا بينت ما سألتم عنه بياناً شافياً وهو قوله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [سورة فاطر : ١٠]، فإنما شرط الإجابة العمل الصالح، أو أن يكون الداعى مظلوماً، على ماجاء فى الأثر عن النبى عليه السلام: أن دعاء المؤمن لا يخلو من إحدى ثلاث: إما تعجيل إجابة، وإما كفاية بلاء، وإما تعويض أجر، أو كلاماً هذا معناه. فاعلموا وفقنا الله وإياكم أن من دفع الله تعالى عنه بلاء، أو عوضه أجراً فقد أجاب دعاءه ولم يخيبه، والإجابة فى اللغة معنى غير الإسعاف، يقال فى اللغة:ناديت فلاناً فأجابنى، ودعوته فأجابنى بمعنى أتانى، فالإجابة من الله تعالى بمعنى قبول عمل العامل فى الدعاء وتعويضه عنه الأجر ودفعه عنه البلاء، وربما يفضل الله تعالى بإسعافه فى أن يكون ماطلب، إذا كان مما سبق فى علم الله تعالى أن يكون.

٦ ـ وأما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمرٌ امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبرِّ مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساعٍ فى الأرض بفساد؛ والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح

ما حرم الله ، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم . فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه [٢٤٩ و] ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم . فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملةً واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تَسَعُهُ ، وما أدرى كيف هذا ، فلو اجتمع كل من ينكر هـذا بقلبه لما غُلِبُوا . فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . وجاء فى بعض الأحاديث: ليس وراء ذلك من الإيمان شيء ، أو كما قال عليه السلام: وجاء فى الأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله بعذاب » . واعلموا رحمكم الله أنه لا عذاب أشد من الفتنة فى الدين ، قال الله تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ [سورة البقرة : ١٩١] ، فأما الغرض الذى لا يسع أحدًا فيه تقية ، فأن لا يعين ظالماً بيده ولا بلسانه ، ولا أن يزيِّن له فعله ويصوّب شره ، ويعاديهم بنيته ولسانه عند من يأمنه على نفسه ، فإن اضطر إلى دخول مجلس أحدهم لضرورة حاجة أو لدفع مظلمة عن نفسه أو عن مسلم ، أو لإظهار حق يرجو إظهاره ، أو الانتصاف من ظالم آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٢٩] أو لصداقة سالفة ــ فقد يصادق الإنسان المسلمُ اليهوديَّ والنصرانيَّ لمعرفة تقدمت ــ أو لطلب يعانيه ، أو لبعض ما شاء الله عز وجل، فلا يزيِّنْ له شيئاً من أمره ولا يعينه ولا يمدحه على ما لا يجوز ، وإن أمكنه وعظه فليعظه ، وإلا فليقصد إلى ماله قصد غير مصوّب له شيئاً من معاصيه ، فإن فعل فهو مثله ، قال الله تعالى: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ ، [سورة هود : ١١٣] وفى هذه كفاية .

٧ ـ وأما ماسألتم عنه من وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب، فهيهات أيها الإخوة ، إن هذا لمن أصعب ما بحثتم عنه وأوجعه للقلوب وآلمه للنفوس . وجوابكم فى هذا أن الطريق هاهنا طريقان: طريق الورع ، فمن سلكه فالأمر ـ والله ـ ضيق حرج . وبرهان ذلك أنى لا أعلم لا أنا ولا غيرى بالأندلس درهماً حلالاً [٢٤٩ظ] ولا ديناراً طيباً يقطع على أنه حلال ، حاشا مايستخرج من وادى لاردة من ذهب ، فإن الذى ينزل منه فى أيديهم ، يعنى أيدى المستخرجين له بعد مايؤخذ منهم ظلماً فهو كماء النهر فى الحل والطيب ، حتى إذا ضربت الدراهم وسبكت الدنانير فاعلموا أنها تقع فى أيدى الرعية فيما يبتغونه من الناس من الأقوات التى لا تؤخذ إلا منهم، ولا توجد إلا عندهم من الدقيق والقمح والشعير والفول والحمص والعدس واللوبيا والزيت والزيتون والملح والتين والزبيب والخل وأنواع الفواكه والكتان والقطن والصوف والغنم والألبان والجبن والسمن والزبد والعشب والحطب . فهذه الأشياء لابد من ابتياعها من الرعية عمّار الأرض وفلاحيها ضرورة . فما هو إلا أن يقع الدرهم فى أيديهم ، فما يستقر حتى يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى ، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حق عند المتغلب عليهم ، وقد صار ناراً ، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته ، والقمع لمن خالفه والغارة على رعية من خرج من طاعته أو رعية من دعاه إلى طاعته ، فيتضاعف حر النار ، فيعامل بها الجندُ التجارَ والصناعَ ، فحصلت بأيدى التجار عقارب وحيات وأفاعى ، ويبتاع بها التجار من الرعية فهكذا الدنانير والدراهم ، كما ترون عياناً دواليب تستدير فى نار جهنم ، هذا ما لا مدفع فيه لأحد ، ومن أنكر ما قلنا بلسانه فحسبه قلبه يعرفه معرفة ضرورية ، كعلمه أن دون غدٍ اليوم ، فإذا فاتنا الخلاص فلا يفوتنا الاعتراف والندم والاستغفار ، ولا نجمع ذنبين : ذنب المعصية وذنب استحلالها ،

فيجمع الله لنا خزيين وضعفين من العذاب ، نعوذ بالله من ذلك ، ولـكن كما قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٥] ، هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة توجب العلم الضرُوريّ أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطييت أنفس المستفتحين ، وأقرت لجميع [٢٥٠ و] المسلمين ، كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، لـكن نفذ الحـكم فيها بأن لـكل يد ما أخذت ، ووقعت فيها غلبة بعد غلبة، ثم دخل البربر الأفارقة فغلبوا على كثير (من القرى دون قسمة) ، ثم دخل الشاميون فى طاعة بلج بن بشر بن عياض، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا فى المواشى ما ترون من الغارات وثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل التافه ، ومشى فى بلاد المتغلبين نعينا العرى الحالسة ظلم بظلم . وهذا باب الورع وقد أعلمتكم أنه ضيق .

وأما الباب الثانى فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جيد لأنه لا يؤثم صاحبه، ولا يؤجر، وليس على الناس أن يتجنَّوا على أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم إذا كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا و بلادنا هذه ، فإنما هو باب أغلق (. . . . .) فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغايات (. . . . .) فإنما هى جزية على رءوس المسلمين يسمونها بالقطيع، ويؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما ، تؤدى

١٧، ١٨ ــ ما بين معقفين غير واضح فى النسخة ، وقد استوفيته من كتاب فجر الأندلس ، للدكتور مؤنس، وهذا الـكتاب قد نقله مما نشره بلاسيوس فى مجلة الأندلس، المجلد الثانى ١٩٣٤ .

على كل مايباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد . هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم . وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة ، و إحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل . والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، ور بما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين ، ور بما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه . فإن قلتم : نحن نجتنب اللحم ، فأنتم تعلمون علماً يقيناً أن المواشى المغنومة ليست تباع للذبح فقط ، بل تباع للنسل والرِّسْل كثيراً وللحرث بها ، فتباع و يؤخذ فيها الثمن ، وهو نار لأنه بدل من المثمون ومال أخذ بالباطل ، ثم ينصرف فى أنواع التجارات والصناعات فى الملابسات [٢٥٠ ظ] ، فيمتزج الأمر . فهذا مالا أحيلكم فيه على غائب ، لكن ماترونه بعيونكم وتشاهدونه أكثر من مشاهدتى له . وأنتم ترون الجند فى بلادكم لا يأخذون أرزاقهم إلا من الجزية التى يأخذها المتغلبون من المسلمين فيما يباع فى أسواقهم على الصابون والملح وعلى الدقيق والزيت وعلى الجبن وعلى سائر السلع ، ثم بتلك الدراهم الملعونة يعاملون التجار والصناع ، فحسبكم وقد علمتم ضيق الأمر فى كل ما يأتى من البلاد التى غلب عليها البربر من الزيت والملح ، وأن كل ذلك غصب من أهله ، وكذلك الكتان أكثره من سهم صنهاجة الآخذين النصفَ والثلثَ ممن أنزلوا عليه من أهل القرى ، وكذلك التبن مزرقة ، وأما القمح فهو أشبه بيسير ، لأن الأرض و إن كانت مغصوبة فالزرع لزراعه حلال وعليه إثم الأرض ، إلا أن تكون الزريعة مغصوبة ، فحصلنا فى شعل نارٍ (أشد) من ذى قبل ؛ ولكن التخلص لنا ولكم أن لا يأخذ الإنسان

---

٣ ـ والتخلى : والنحل

فيما يحتاج إليه ما أيقن أنه مغصوب بعينه ولعلنا فيما جهلنا من ذلك أعذر قليلاً فإن النار المدفونة فى الرماد أفتر حراً من النار المؤججة المشتعلة ، فواغوثاه .

٨ ـ وأما ماسألتم عنه من تفاضل الكبائر ، فنعم ، فالحسنات تتفاضل والكبائر تتفاضل . سئل صلى الله عليه وسلم عن أكبر الكبائر ، فذكر عليه السلام أشياء ، منها عقوق الوالدين ، وشهادة الزور . واستعظم عليه السلام أشياء منها زنا الزانى بامرأة جاره ، ومنها زنا الشيخ ومنها زنا الزانى بامرأة المجاهد . فهذه الوجوه أعظم عند الله بنص نبيه عليه السلام وسائر وجوه الزنا وكل عظيم ؛ وذكر كذب الكاذب أيضاً بعد العصر ، فدل على أنه أعظم منه إثماً فى سائر الأوقات ، وذكر عليه السلام كذب السلطان وزهو الفقير ، فعلمنا بذلك أن الكذب من الملك أعظم ذنباً من كذب غيره ، وأن زهو الفقير أكبر إثماً من زهو الغنى . وكذلك الإلحاد بالبيت والظلم بمكة أعظم منه فى سائر البلاد ، والقتل بلا شك أعظم إثماً من اللطمة والضربة ، والكذب على النبى أشنع مع الكذب على غيره . قال النبى عليه السلام : إن الكذب (عليَّ) أعظم من كذب على غيرى فمن كذب على فليلج النار [و٢٥١] ، و إن شعبة بن الحجاج رحمه الله يقول : لأن أزنى أحبَّ إلىَّ من أن أدلِّس ، وأنا أقول : لأن يضرب عنقى أو أصلب أو يرمى بى وأهلى وولدى أحب إلى من أن أقطع الطريق أو أقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وأنا أعلم أن ذلك حرام أحب إلى من أستحل الاحتجاج بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لاأعتقده صحيحاً ، أوأن أردّ حديثاً صحيحاً عنه عليه السلام ، ولم يصح نسخه بنص آخر ، ولاصح عندى تخصيصه بنص آخر ، فالكبائر تتفاضل كما أخبرتكم تفاضلا بعيداً ، وكذلك العذاب عليها يتفاضل كما تتفاضل الحسنات و يتفاضل الجزاء عليها ، صح عن النبى صلى الله عليه وسلم (أنه) قال : إن أهل الجنة يتراءون كما تتراءون الكوكب الدرىّ . وصح عنه عليه السلام أنه أمرنا أن نسأل الله الفردوس الأعلى ، فإنه وسط

الجنة وأعلاها ، وفوق ذلك عرش الرحمن . وجاء نص القرآن بأن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . وقال تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [سورة غافر : ٤٦] ، والأشد والأسفل لا يقعان إلا بالإضافة إلى ما هو أخف وأعلى . وجاء الحديث الصحيح أن أبا طالب يخفف عنه العذاب بنعلين فى رجليه يغلى منهما دماغه، وأنه أخرج عمه من النار إلى ضحضاح منها، وأنه أخف أهل النار عذاباً . هذا الذى ذكرت معانى الحديث التى ذكرتم لكم. فهذا أصلحكم الله بيان ما سألتم عنه حسب ما علمنى الله عز وجل ، لم أقل شيئاً من ذلك من عند نفسى ، ويعيذنى الله أن أقول فى شىء من الدين برأى ، أو بقياس . لكن حكيت لكم ما قاله الله تعالى وعهده إليكم بنبيكم عليه السلام . ولعمرى إنى لأفقر منكم إلى قبول ما أوصيتكم به ، وأحوج إلى استعماله . فإنى والله أعلم من عيوب نفسى أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم . وقد توصل الشيطان إلى جماعة من الناس بأن أسكتهم عن تعليم الخير، بأن وسوس إليهم ، أو لمن يلوذ بهم : إذا أصلحتم أنفسكم ، فحينئذ اسعوا فى صلاح غيركم . وربما اعترض عليهم بقول الله عز وجل : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [المائدة : ١٠٥] ولقوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ [سورة البقرة : ٤٤] الآية ؛ والحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا يقذف به فى النار فتندلق أقتابه [٢٥١ ظ] فيقول له أهل النار : يا فلان ألست الذى كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول : نعم، كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله وأنهاكم عن المنكر وآتيه ، أو كما قال عليه السلام ، فأسكتهم عن تعليم الخير . فاعلموا رحمكم الله أن الآية الأولى لا حجة فيها للمعترض بها فيها، لأنه ليس فيها نهى لنا عن أن ننهى من ضلّ عن ضلالة، ولكن فيها تطييب لأنفسنا عن غيرنا ولا يضرنا من ضل إذا اهتدينا .

وقد جاء فى بعض الآثار أن المنكر إذا خفى لم يؤخذ به إلا أهله ، وأنه إذا

أعلن فلم ينكره أخذ فاعله وشاهده الذى لا يقره. فإنما فى هذه الآية إعلام لنا أننا لا نضر بإضلال من ضل إذا اهتدينا ومن اهتدى بنا أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأما الآية الثانية فلم ينكر فيها الأمر بالبر، وإنما أنكر استضافة إتيان النكر إليه ونعم معترفون لها بذنو بنا منكرون على أنفسنا وعلى غيرنا ، راجون الأجر على إنكارنا ، خائفون العقاب على مايأتى مما ندرى أنه لا يحل . ولعل أمرنا بالمعروف وتعليمنا الخير ونهينا عن المنكر ، يحط به ربنا تعالى عنا ما نأتى من الذنوب ، فقد أخبرنا تعالى أنه لا يضيع عمل عامل منا . وأما الحديث المذكور فهو رجل غلبت معاصيه على حسناته ، فإن كان مستحلاً للمنكر الذى كان يأتى ومرائياً بما يأتى به ، فهذا كافر مخلد فى نار جهنم ، ويكفى من بيان هذا قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨] ، فمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وعصى مع ذلك ، فوالله لا ضاع له ما أسلف من خير ولا ضاع عنده ما أسلف من شر ، وليوضعن كل ما عمله يوم القيامة فى ميزان يرجحه مثقال ذرة ، ثم ليجازين بأيهما غلب . هذا وعد الله الذى لا يخلف الميعاد ، وقد أمر تعالى فقال : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٤] ، وقال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [سورة التوبة : ١٢٢] ، فأمر الله تعالى من نفر ليتفقه فى الدين بأن ينذر قومه ، ولم ينهه عن ذلك إن عصا ، بل أطلق الأمر عاماً ، وقال تعالى : ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ [سورة آل عمران : ١١٥] ، فمن رام أن يصدَّ عن هذه السبيل بالاعتراض الذى قدمنا ، فهو فاسق صادٌّ عن سبيل الله ، داعية من دواعى النار ، ناطق بلسان الشيطان ، عون لإبليس على ما يحب أن لا ينهى عن باطل ولا يأمر بالمعروف ولا يعمل

خيراً . وقد بلغنا عن مالك أنه سئل عن مسألة فأجاب فيها ، فقال له قائل : يا أبا عبد الله ، وأنت لا تفعل ذلك . فقال : يا ابن أخى ليس [٢٥٢ و] فى السر قدرة : ورحم الله الخليل بن أحمد الرجل الصالح حيث يقول :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

وذكرت هذه المسألة يوماً بحضرة الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : ودَّ إبليس لو ظفر منا بهذه ، فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر . وصدق الحسن ، لأنه لو لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يذنب ، لما أمر به أحد من خلق الله تعالى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، فكل منهم قد أذنب وفى هذا هدم للإسلام جملة . فقد صحّ عن النبى عليه السلام أنه قال : ما من أحد إلا وقد ألمَّ ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا ، أو كلام هذا معناه . فخذوا حذركم من إبليس وأتباعه فى هذا الباب ، ولا تدعوا الأمر بالمعروف وإن قصرتم فى بعضه ، ولا تدعوا النهى عن منكر وإن كنتم تواقعون بعضه ، واعلموا الخير وإن كنتم لا تأتونه كله ، واعترفوا بينكم وبين ربكم بما تعملونه بخلاف ما تعلمونه واستغفروا الله تعالى من دون أن تعلنوا بذكر فاحشة وقعت منكم ، فإن الإعلان بذلك من الكبائر ؛ صح ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . فلعل أحدنا يستحيى من ربه تعالى إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو يعلم من نفسه خلاف ما يقول يكون ذلك سبب إقلاعه ومقته لنفسه ، ولعل الاعتراف لله تعالى والاستغفار المردد له يوازى ما يقصر فيه ، فيحط عنا تعالى ربنا ذو الجلال وقد قال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ [سورة النساء : ١٠٨] . وقد أمرنا الله على لسان نبيه بالاستخفاء بالمعاصى إذا وقعت ، ونهينا عن الإعلان بها أشد النهى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً معناه : كل الناس معافى إلا المجاهر ،

---

٤ ـ اعمل بعلمى ... الحديث فى عنوان الأخبار ٢ : ١٢٥

والإجهار، الشك منى، ومن الإجهار أن يبيت المرء يعمل عملاً فيستره الله عليه، ثم يصبح فيفضح نفسه أو كما قال عليه السلام . فإنما أنكر فعل المعصية نفسها ثم وصف عز وجل أنهم مع ذلك يستخفون من الناس وأنه معهم . فلا يمكنهم الاستخفاء منه بل هو عالم بذلك كله . و إذا رأيتم من يعتقد أنه لاذنب له فاعلموا أنه قد هلك ؛ وأن العجب من أعظم الذنوب وأمحقها للأعمال . فتحفظوا حفظنا الله و إياكم من العجب والرياء ، فمن امتحن بالعجب فى علمه فليفتكر فيمن هو أفضل عملاً منه ، وليعلم أنه لا حول ولا قوة له فيما يفعل من الخير ، وأن ذلك إنما [٢٥٢ ظ] هو هبة من الله تعالى ، فلا يتلقاها بما يوجب أن يسلبها ولا يفخر بما حصله له فيه ، لكن ليعجبه فضل ربه تعالى عليه ، ليعلم أنه لو وكل إلى نفسه طرفة عين لهلك . وأما الرياء فلا يمنعكم خوف أن يطريكم الرياء فى فعل الخير ، لأن لإبليس فى ذم الرياء حبالة ومصيدة ، فكم رأيت من ممتنع من فعل الخير خوف أن يظن به الرياء ، ولعلكم قد امتحنتم بهذا ، ولكن أصفوا نياتكم لله تعالى ، ثم لا تبالوا من كلام الناس فإنما هو ريح وهواء منبثّ ، وقلّ والله ضرر كلامهم وكثر نفعه لكم ، فعليكم بما تنتفعون به فى دار قراركم وعند من يعلم سركم وجهركم وعند من يملك ضركم ونفعكم وحده لا شريك له .

واعلموا أن كل حديث ذكرته لكم فى رسالتى هذه فليس شىء منه إلا صحيح السند متصل ثابت بنقل الثقات مبلغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن الحديث الذى من طريق ابن أبى أويس عن أخيه ، ذكرناه قبل ، قد أنشأ الثنا على أبى لكراهته بعض أئمة الحديث ، وحديث الإجهار لم يأت إلا من طريق ابن أخى الزهرى ، وقد تكلم فيه ، إلا أن معنى الحديث صحيح مخرج متمماً من سائر الأحاديث الثابتة . لكنى أضربت عن الأسانيد خوف التطويل ورجاء الاختصار ، مع أن أكثرها أوكلها مشهورة فى المصنفات

المشهورة من روايتنا ، والحمد لله رب العالمين .

واعلموا أن كل ما اخترت فيها من صفة ذكر أو كيفية عمل ، فليس من رأيي، وأعوذ بالله العظيم ، ولـكنه كله إما اختيار مروى عن النبي و إما عمل ، ولا بد ، وكل ذلك منقول بالأسانيد الصحاح ولله الحمد .

٩ — ومضى فى كلامنا ذكر التوبة ، فأردت أن أبين لـكم وجوهها ، و إن كانت ليست مما سألتم عنه باسمه ، لـكن نسق الـكلام اقتضى ثباتها ، لأنها دخلت فيما سألتم مما يحط الـكبائر . فاعلموا أن التوبة على أربعة أضرب :

أحدها : مابين المرء و بين ربه تعالى من أعمال سوء عملها كالـكبائر من الزنا وشرب الخمر وفعل قوم لوط والشرك وما أشبه ذلك ، فالتوبة من هذا تـكون بالإقلاع والندم والاستغفار وترك المعاودة بفعله وإضمار أن لا يعود بنيته . فإن فعل التائب من هذا الوجوه هذا الفعل سقط عنه بإجماع الأمة كلها مافعل من ذلك بينه و بين ربه تعالى ، وأيضاً فيمن أقيم عليه الحد مما ذكرنا ومات مسلماً كان ذلك كفارة لما فعل بنص حديث النبي صلى الله عليه وسلم .

والضرب الثانى : من عطل فرائض الله عمداً حتى فات وقتها ، فقد اختلف الناس ، فقوم قالوا : يقضيها ، وقوم قالوا : لاسبيل إلى قضائها ، وبهذا نأخذ ، لأن من فعل الشيء فى غير الوقت الذى أمره الله تعالى أن يفعله فيه ، فلم يفعل الشيء الذى أمره الله تعالى أن يفعله ، و إنما فعل شيئاً آخر [٢٥٣ و] . و إذا لم يفعل ما أمر به فهو باق ، وتوبة هـذا عندنا بالندم والإقلاع والإكثار من النوافل وفعل الخير ، كما جاء فى الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن من لم يوف فرض صلاته جُبِرَ من تطوع إن وجد له . فأما ما كان من هـذا فرضاً فى المال فليؤده متى أمكنه كالزكاة والـكفارات ، لأن الله عز وجل لم يحدّ لأحد وقت

أداء الزكاة والكفارات حداً لا يتعدّى ، كما حد عز وجل للصلاة حداً وللصيام وقتاً محدود الطرفين معلوم الأول والآخر ينقضى وقت كل ذلك بخروج أوله .

والضرب الثالث : من امتحن بمظالم العباد، من أخذ أموالهم وضرب أبشارهم وقذف أعراضهم و إخافتهم ظلماً والإفساد عليهم ، فالتوبة من هذه الخروج عن المال المأخوذ بغير حقه ورده إلى أصحابه أو إلى ورثتهم ، فإما أن يردها إلى الذين غصبها منهم بأعيانهم فقد سقط الإثم عنه يقيناً ، وأما إن ردها إلى ورثتهم فقد سقط عنه إثم غصبه ما غصب عن الورثة أيضاً و بقى حق الموتى قِبَلَهُ ، لأنه فعل ثانٍ . فليكثر من فعل الخير ما أمكنه ، فإن جُهِلُوا فإلى إمام المسلمين إن كان لهم إمام عدل و يجب طاعته ، و إن لم يكن فلابد من صرف المال إلى مصالح المسلمين ، لأنه مال لا يعرف ربه ، وليكثر مع ذلك من الخير ليجد أرباب المتاع ما يأخذون منه يوم القيامة فليس إنصافه عمرا بمسقط عنه ظلم زيد . وأما من تاب بزعمه وهو زامٌّ يديه على ما ظلم فيه أو على ما يدرى أنه ظلم بعينه بين ، فهذا مصر لا تائب ، ولكنه ممسك عن الازدياد من الظلم ، كإنسانٍ مصرٍّ على الزنا إلا أنه لا يزنى . وأما التوبة من ضرب إنسان ، فهو بأن يمكن الإنسان من نفسه ليقتص منه أو ليعفو ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اقتص من نفسه فى ضربة بقضيب ، فإن مات المضروب فموعدهما يوم يقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء ، ولكن ليستكثر من فعل الخير ليجد من ظلم ما يأخذ وما يترك ، وكذلك القول فى سب الأعراض والإخافة. وأما الإفساد فالتوبة منه بالإقلاع والندم والإصلاح.

والضرب الرابع : من امتحن بقتل النفس التى حرم الله تعالى ، وهذا أصعب الذنوب مخرجاً ، فقد جاء عن النبى من استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة [٢٥٣ ظ] وقد عاينها وشم ريحها ملء محجم من دم امرىء مسلم فليفعل ، أو كلاماً هذا معناه . فمن ابتلى بهذه العظيمة ، فتوبته أن يمكن ولى المقتول من دمه ، فإن

قتله فقد اقتص منه وانتصف ، وإن عفا أو كثر قتلاه ، فليلزم الجهاد ، وليتعرض للشهادة جهده ، فما أرجو أن يكفر عنه فعل شيء غيرها . فإن اعترض معترض بالحديث الذى فيه أن رجلاً قتل مائة ثم تاب أدخله الجنة ، فلا حجة له فيه ، لأن ذلك كان فى الأمم الذى قبلنا ، هكذا نص الحديث المذكور ، وكانت أحكام تلك الأمم بخلاف أحكامنا ، قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ﴾ [المائدة : ٤٨] ، ومنها ماجاء فى الحديث نفسه أن توبة ذلك القاتل كانت بأن خرج من قريته قرية السوء إلى قرية قوم صالحين . وهذا لا معنى له عندنا ولا فى ديننا بإجماع الأمة ، وقد كانت توبة بنى إسرائيل بقتل أنفسهم ، وهذا حرام عندنا وفى ديننا لا يحل ألبتة ، ولعل ذلك القاتل المائة كان كافراً فآمن ، فمحا إيمانه كل ماسلف له فى كفره ، فهذا أيضاً وجه ظاهر .

وأما التوبة فى شريعتنا فإنما هو التبرؤ من الذنب والخروج عنه بما أمكن ، إلا الكافر والحربى فإن توبته من كفره ومن كل ما قتل من المسلمين فى حال كفره إذا أسلم وسدد وأصلح . والحمد لله رب العالمين .

فهذا جواب ما سألتم عنه وفقنا الله وإياكم للخير وجعلنا فى ديننا إخواناً على سرر متقابلين ، آمين . والحمد لله عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المسلمين وسلم تسليما كثيراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تمت رسالة التلخيص لوجوه التخليص

— ٤ —

الرد على الكندي الفيلسوف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد وعترته

١ ــ قال الكندى : اعلم ، أسعدك الله ، أن أعلى الصناعات الإنسانية درجة ، وأشرفها مرتبة ، صناعة الفلسفة التى حدُّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان . ولا نجد مطلوباً من الحق من غير علة ، وعلة كل شىء وثباته الحق ، لأن كل ماله إنية له حقيقة ، فالحق اضطراراً موجود ، إذ الإنيات موجودة .

٢ ــ قال : وإنما نعلم كل معلوم إذا نحن أحطنا بعلم علته ، لأن كل علة إما أن تكون عنصراً ، وإما صورة ، وإما فاعلة ، أعنى مامنه مبدأ الحركة ، وإما متممة ، أعنى ما من أجله كان الشىء . والمطالب العامة أربعة : هل ، وما ، وأى ، ولم . فهل باحثة عن الأنية ، وما فبحث عن الجنس فى كل ماله جنس ؛ وأى فبحث عن الفصل ، وما وأى جميعاً عن النوع ؛ ولم عن العلة التمامية . وبيّن أنا متى أحطنا بعلم عنصرها فقد أحطنا بعلم نوعها ، وفى علم النوع علم الفصل ، فإذا أحطنا بعلم العنصر والصورة والعلة التمامية ، فقد أحطنا بعلم حدها ؛ وكل محدود فحقيقته فى حده .

٣ ــ قال محمد : اختصار هذا ، أنا متى أحطنا بعلم الأصل أحطنا بعلم مابعده.

٤ ــ وذكر أهل الرياسة فقال : نصبوا كراسيهم المزوَّرة التى نصبوها عن

---

٣ ــ أسعدك الله : غير موجودة فى ر // درجة : منزلة فى ر

٥ ــ ولا نجد : ولسنا نجد فى ر

٦ ــ اضطراراً : اضطرار // إذ : إذن فى ر

١٠ ــ العامة : العلمية فى ر

١٤ ــ العنصر والصورة والعلة التمامية : عنصرها وصورتها وعلتها التمامية ، فى ر

غير استحقاق بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين ، لأن من تجر بشيء باعه ، ومن باع شيئاً لم يكن له ، ومن تجر بالدين لم يكن له دين ، وحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفراً ، لأن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلية ، وجملة علم كل نافع والسبيل إليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعاً هو الدين الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ، فإن الرسل صلوات الله عليهم إنما أتت بالإقرار بربوبية الله تعالى وحده، ولزوم القضايا المرتضاة عنده ، ورفض الرذائل المضادة للفضائل فى ذاتها وعواقبها .

ما فى الفن الثانى

٥ ــ الوجود الإنسانى وجودان : أحدهما : وجود الحواس الذى هو لجميع الحيوان معنا منذ نشوئه ، وهذا الوجود الذى ثبتت صورته فى المصور فأداها الحس إلى الحفظ ، فتصور وتمثل فيه النفس، والحس يباشرها بلا زمان ولا مؤونة والمحسوس كله ذو هيولى فكله ذو جرم .

والوجود الثانى أقرب من الطبيعة وأبعد عنا ، وهو وجود العقل . وبحق كان الوجود وجودين ، إذ الأشياء كلية وجزئية ، أعنى بالكلية الأجناس [٩٣ ظ] لكل الأنواع والأنواع لكل الأجناس ، والجزئية للأشخاص

---

٢ ــ وحق : ويحق ؛ ر
٤ ــ الفضيلية : الفضيلة ؛ ر
٥ ــ الدين : سقطت من ر
١١ ــ المصور : المصورة ؛ ر // فأداها : فوداها وفى ر : فتؤديها ؛ مع سقوط كلمة « الحس » .
١٣ ــ كله : كلها .
١٤ ــ وبحق : غير واضحة فى ص .
١٦ ــ الأجناس : الأشخاص فى ر .

أجزاء من النوع ، والأنواع أجزاء من الجنس . فالأشخاص الجزئية الهيولانية واقعة تحت الحواس ، والأجناس والأنواع لا توجد إلا بقوة من قوى النفس التامة ، وتلك القوة هى العقل

٦ ــ قال محمد : اختصار هذا أن الحواس تجد الأشخاص وأن العقل يجد المعانى .

٧ ــ قال : وكل متمثل نوعى جزئى ، وما فوق النوعى لا يتمثل للنفوس ، لأن المثل كلها « محسوسة »، ولـكنه مصدق ومحقق ، متيقن اضطراراً ، كقولك هو لا هو غير صادقتين فى شىء بعينه . وهذا وجود للنفس لا يحتاج إلى متوسط ولا مثال له فى النفس ، لأنه لا لون ولا صوت ولا رائحة ولا طعم ولا ملموس . ومثله لو قال لنا : إن جسم الـكل ليس خارجاً منه لا خلاء ولا ملاء ، وهذا لا يتمثل لأن « لا خلاء ولا ملاء » لم يدركه الحس ولا لحقته النفس ، فيكون له فيها مثال ، و إنما هو شىء يجده العقل اضطراراً . فاحفظ ، حفظ الله عليك جميع الفضائل ، وصانك من جميع الرذائل ، هذه المقدمة لتـكون لك دليلاً قاصداً إلى الحقائق ، فان بهاتين السبيلين كان الحق من جهة سهلاً ، ومن جهة عسراً ، لأن من طلب تمثيل مالا يتمثل عشى عنه ، كعشا أعين الوطاوط عن درك الأشخاص الواضحة لنا فى شعاع الشمس .

٨ ــ قال : والهيولى موضوعة الانفعال فهى متحركة ، والطبيعة علة أولية لـكل متحرك وساكن .

---

٤ ــ تجد : تحد .

٧ ــ كقولك : لا كقولك فى ص ؛ وفى ر ساقطة .

٨ ــ صادقتين : صادقين فى ر .

١١ ــ ولا لحقته النفس : ولا الحق الحسن فى ر .

١٤ ــ إلى الحقائق : سواء الحقائق فى ر .

١٥ ــ : أعين الوطاوط عن درع : عين الوطواط عن نيل فى ر .

٩ ــ قال محمد : يقول فالطبيعة فوق الهيولى ، والهيولى هى حدّ التمثيل والإدراك بالحس ، فكيف يدرك ما فوقها بالتمثيل لايدرك إلا بعلته وفى الطبيعة .

١٠ ــ (قال) : وعلم الطبيعة علم كل متحرك ، فما فوق الطبيعة من المحدثات أيضاً (هو) لا متحرك لأنه (ليس) يمكن أن يكون الشىء علة كونه ، فليس علة الحركة حركة ، ولا علة المتحرك متحركاً ، فما فوق الطبيعة ليس متحركاً .

وهذا القول صواب ، إن شاء الله ، لأنه ليس فوق الطبيعة من المحدثات إلا العدم ، والله عز وجل فوق الحركات والسكون ، لاتأخذه صفة حركة ولا سكون. فهذا صواب من الوجهين .

١١ ــ قال : وقد ينبغى أن لايطلب فى إدراك كل مطلوب الوجود البرهانى ، لأنه ليس كل مطلوب عقلى موجوداً بالبرهان ، لأنه ليس لكل شىء برهان ، إذ البرهان بعض الأشياء ، ولو كان للبرهان برهان لكان هذا بلا نهاية ولم يكن لشىء وجود بتةً ، لأنَّ مالا ينتهى إلى علم أوائله فليس بمعلوم ، فلا يكون علم بتة (٩٤ و) .

١٢ ــ (قال) محمد : هذا كقوله لاينبغى أن يطلب مافوق الهيولى بالتمثيل . ونعم ماقال إن شاء الله ، لأن البرهان هو النور فى نفس اللفظة، فإدراك هو كإدراك البصر نور واضح لا يحتاج إلى برهان . فلو قال قائل : ما البرهان أن هذه السماء وهذه الأرض ؟ قيل له : لو أجبناك على ذلك ببرهان طلبت على البرهان برهاناً

---

٣ ــ وعلم الطبيعة : فاذن علم الطبيعيات فى ر .
٤ ــ كونه : كون ذاته فى ر .
٥ ــ الطبيعة : الطبيعيات .
١٠ ــ ١١ : إذا البرهان بعض الأشياء : هكذا أيضا فى أصل ر . وزاد المحقق كلمة (فى) بعد كلمة البرهان ، وإسقاطها أصح .
١١ ــ ولو كان أبرهان . . . الخ : وليس للبرهان برهان لأن هذا يكون بلا نهاية ؛ ر

إلى ما لا نهاية له ، ولـكن هـذا برهانه ، لأن ما ذهب فى إدراك البرهان إلى إدراك الطبيعة و إدراك الحواس نسميه إقناعاً .

١٣ ــ قال الـكندى : فلا ينبغى أن يطلب الإقناع فى العلوم الرياضية ، بل البرهان ، لأنا إن استعملنا الإقناع فى العلم الرياضى كانت إحاطتنا به ظنية .

١٤ ــ (قال) محمد : ثم خلط أنواع المطلوبات خلطاً ما هو بمحصل لأنه قال : فلا يطلب فى العلم الرياضى إقناع ، ولا فى العلم الإلاهى حس ولا تمثيل ، ولا فى أوائل العلم الطبيعى الجوامع الفـكرية ولا فى الإقناعية برهاناً ، ولا فى أوائل البرهان برهاناً .

١٥ ــ أوائل العلم الطبيعى هو الهيولانى عنده الآن .

والجوامع الفـكرية عنده البرهان .

وأوائل البرهان ما فوق الطبيعة والفطرة من أوائل الأمر بلا تعريف .

وكيف يكون هذا محصلاً والعلم الإلاهى وأوائل الطبيعى واحد فى الإدراك لا يتمثل ، فهلا جمعهما وقال : حساً ولا تمثيلاً ؛ وفى الآخر الجوامع الفـكرية ، والجوامع الفكرية هى المتمثلات ، وهو قد قال : كهو لا هو لا يدرك إلا إضطراراً .

١٦ ــ قال محمد : صحته عندى أن لا يطلب فى العلم الرياضى علم الربوبية ؛ وما كان فوق الهيولى إقناعاً ، ولـكن اضطراراً ، ولا يطلب فى أوائل البرهان ، وهو علم الحس ، برهان ، كما ذكرنا فى أمر السماء والأرض .

١٧ ــ ثم ذكر حقيقة معنى الأزلية فقال : ينبغى أن نقدم القرائن التى نحتاج إلى استعمالها .

---

٤ ــ ظنية : ظنية لا علمية فى ر .

٧ ــ الإقناعية : البلاغة فى ر .

١٧ ــ ذكر : بذكر // القرائن : الفوائد فى ر وعلق المحقق بأنها قد تـكون مصححة وما فى هذا الـكتاب أصح .

فنقول : إن الأزلى هو الذى لم يجب لشىء هو مطلق ، أى بل هو مطلق فالأزلى لا قبل لهويته ، فالأزلى هو لا قوامه من غيره ، هو لا علة له ولا موضوع ولا محمول ولا فاعل له ولا سبب ، أعنى ما من أجله كان ، فلا جنس له ، لأنه إن كان له جنس فهو نوع ، والنوع مركب من جنسه العام له ولغيره ، ومن فصل ليس فى غيره ، فله موضوع هو الجنس القابل لصورته وصورة غيره ، ومحمول هو الصورة الخاصية له دون غيره ، فالنوع كله موضوع ومحمول . فالأزلى لا يفسد ، لأن الفساد إنما هو تبدل المحمول لا الحامل الأول ، فأما الحامل الأول الذى هو الأيس فليس يتبدل ، لأن الفاسد ليس تتباين إنيته بتباين أبنيته ، وكل متبدل فإنما يتبدل بضده الأقرب معه فى جنس واحد كالحرارة (٩٤ ظ) إلى البرودة ، لا بالأبعد من المقابلة كالحرارة باليبس أو بالحلاوة أو بالطول ، والأضواء المتقاربة هى فى جنس واحد ، فالفاسد جنس ، والأزلى لا جنس له ، فهو لا يتبدل ولا ينتقل من نقص إلى تمام ، لأن الانتقال استحالة ، وهو لا يستحيل . والتام هو الذى ليست له حالة ثابتة يكون بها فاضلاً ، والناقص هو الذى له حال أخرى يكون بها فاضلاً ، والأزلى لا يمكن أن يكون ناقصاً ، لأنه لا يمكن أن ينتقل إلى حال يكون بها فاضلاً ، لأنه لا يمكن أن يستحيل بتة ، فالأزلى تام اضطراراً ، وإذا كان الأزلى لا جنس له ، فماله جنس وأنواع غير أزلى ، فالجرم لا أزلى .

---

١ ــ لشىء . ليس فى ر .

٢ ــ لا قبل : لا قبل كونياً فى ر // من غيره : هو غير فى ص والتصويب من ر .

٧ ــ الفساد : الفاسد فى ص .

٨ ــ الأيس : غير منقوطة فى ص // .

٨ ــ ليس تتباين .... أبنيته : لأن الفاسد ليس فساده بتأييس أيسيته ، فى .

٩ ــ يتبدل : تبدله فى ر // الأقرب معه : الأقرب أعنى الذى معه فى ر .

١٠ ــ لا بالأبعد : لأنا لا نعد فى ر .

١١ ــ فى جنس : جنس ؛ ر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم

١٨ ـ قال الموحد : هـذا قولنا والرد على من جهل ربه وسماه بغير أسمائه التى سمى بها نفسه ، ووصفه بغير صفاته ، سبحانه وتعالى عن ذلك ، لا نقول البارى عز وجل ، كما قال يعقوب بن إسحاق : إنه علة ، فنقض توحيده وهدم بنائه وكذب نفسه فى المقدمات التى برهنها فى بدء أقاويله وزلت قدمه فهوى ، فلا نقول فى البارى عز وجل إنه علة لما بعده إذا نحن أردنا كشف العلل والبلوغ إلى حقائقها فى ذواتها والإبانة عنها ، لأنا نوهم السامع أنه من جهة المعلول وجب أن نسميه بعلة ، إذ ليست العلة علة معقولة إلا المعلول ، ولا المعلول معلول إلا لعلة بالقول إلى مضاف اضطراراً ، فتوهم إذن السامع أن خالقه مضاف إلى كل معلول بغير إطلاق ، تعالى ربنا عن ذلك وتقدس .

١٩ ـ والكندى يقولنا بما قلنا بلسانه وينطق به كتابه عنه ويشهد به عليه ، فقد كرر القول وبرهنه أنه عز وجل لا يلحقه المضاف ولا ما شاكل المضاف ، وإن رام أحد بعد أن يخطىء على نفسه فيسميه بعلة (على) ألا يكون حينئذ من المضاف فى عقله بكل جهده ، لم يجد ذلك ولم يقدر أن ينفى عنه الإضافة من بعد أبداً ، بل أوجب بذلك التبعيض والنهاية ، وكل ما نفى عنه الكندى وغيره إذ سماه علة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلذلك لا نقول نحن إنه علة أفعال المعلولات ، ولا علة المعلولات ، ولا علة العلة ، فى مطلبنا هذا الذى نريد به قصد الواحد الصمد جل ثناؤه ، بل نقول : هو الأحد الأول الصمد مبدع العلل ، وهو الذى (٩٥ و) ابتدع جميع المعلولات لأجل تلك العلل التى سبقت

---

٥ ـ فنقض : فنقص ؟ ص .

منه ، فوجب أن يكون الإبداع من أجلها كائناً ما متقناً على ما هو عليه من التضديد والإتقان .

٢٠ ـ فإن سأل سائل عن تلك العلل الأول : هل هى غيره بذواتها وغير الإبداع الكائن منها ؟ قيل له : نعم ، ومن أجل تلك العلل الأول البسيطة الانهمال كانت المهويات المركبة فى أنفسها حقائق ؛ والعلل الأول هى التى تسمى بالحقيقة عللاً ، لأنها وضعت لتكون معلولاتها المتهوية منها بفعال فاعلها عز وجل ، ولا نقول إن العلل كانت لأجل واضعها المخرج لها من عدم ،لأنه الغنى عن ذلك والمتعالى عنه عز وجل ، ليس كمثله شىء ، فهو لا من أجله وجب أن يكون شىء ، لأنه هولاموضوع لشىء يجب ، فيقال لذلك الشىء إنه من أجله كان ، كما يقال ذلك فى العلل الموضوعة ، سبحانه وتعالى عن ذلك .

٢١ ـ فإن قال قائل : فلولاه لم تكن العلل ولا المعلولات . قيل له : نعم ، لولاه لم تكن ، ولكن ليس علة لذلك ، لأن اسم العلة فيه معنى الضرورة إلى معلولها، وفى المعلول معنى الضرورة إلى علته ، لأن العلة موضوعة للمعلول ، والمعلول محمول على العلة ، فهما مضافان مضطران متصلان غير مفترقين ولا غنيين ، لحاجة كل واحد منهما إلى صاحبه . وليست هذه صفة الخالق الأول الذى كان قبل أن يبدع شيئاً غنياً عن كل شىء ، ثم لم يحل به حال لأنه لا تأخذه الاستحالة فيعود من غنى إلى احتياج ، أو من انفراده إلى اتصال ، أو من وحدانية إلى تكثير . وفرقان صفته من صفة العلة ، أن العلة منساقة إلى معلولها ، كما ذكرنا ، وهو عز وجل ليس بأولى أن يكون واضعاً لها منه بأن لايكون ، سبحانه وتعالى عن أن يكون أولى بالترك ، لا بإيجاد معرفته منه لإيجادها ، كمثل مايلزم العقل من ضد هذا القول ،

---

١٠ ـ كما : فما ؛ س .
١٧ ـ انفراده : // وحدانية : وحدانيته .

بل هو المختار الذى لا يلزمه فى أحد المعنيين ولا فى شىء منها اضطرار ، لا يلزمه فعل شىء ولا يلزمه ترك شىء ، كلا الحالتين معتدلتان فى اختياره . والعلل الموضوعة ليست بأولى بالترك لمعلولاتها و إعدامهـا منها إلا بترك ما قد جعل لها فى قوتها أن تفعله و يوجد منها ، لأنها مضطرة إلى فعل ما جعل فيها فعله .

٢٢ ـ فالأول الغنى المتعال جل جلاله برىء مما يلزم الموضوعات من الضرورة لإيجاد مالها فى القوة إيجاده ، ليس كمثله شىء ، هو الخالق وما سواه مخلوق (٩٥ ظ) ، وهو المختار وما سواه مضطر ، ولذلك لا تلحقه الأسماء المجازية ولا الخفية لحوق اللزوم والتطرد فى العقول العالمة به عز وجل ، إنما الأسماء والصفات موضوعة على معنى هى له بدائع ، لا لتلحقه ، كما هى لاحقة الذى هو مركب منها معار جوهرها ، لأنا نقول فى الصفات : إنها لاحقة المركبات بجوهرها، و إن المركبات مركبات من جوهرها مكسبة إياه ، وهذا اللحاق اللاحق الذى لا يلحق بارينا تعالى من صفاته وأسمائه ، و إنما هى دلالات دالة للعقول ، دالة عليه سبحانه و بحمده الواحد الصمد . ونقول إنها ليست بخالقة ولا نقول مخلوقة ، بل هى صفات مجعولة موضوعة، والخلق مركب منها ، أعنى من جوهرها البسيط. وأقول فى الأسماء الصوتية : إنها للصفات مثالات باتفاق المعارف ، كائنة ما كانت تلك الأصوات ، كانت من صنع الله تعالى أو من صنع الآدميين ؛ وأقول ذلك فى الأسماء المرقومة كائنة ما كانت من لون مداد أو غير ذلك .

٢٣ ـ فإن سأل سائل عن تلك العلل الموصوفة البيسطة السابقة لتهوية المهويات ، قيل له : الاسطقسات الأربع الخارجة من عنده التى هى للخلق موضوعة منفعلة ، بعد إذ هى لا كائنة ولا موجودة ، فهى الاسطقصات الأربع

---

١٨ ـ البيسطة السابقة : البسيط والسبق .

المتهوية المتأيسة فى المكان الجامع لها ، وهى الطبائع الأربع المتأيسة السابقة للخلق من ربها عز وجل : الأرض والماء والنار والهواء ، هى العلل الموضوعات لتهوية جميع المهويات فى المكان الجامع .

٢٤ ــ فإن قال قائل: فهل من علة أوجبت هذه العلل، فكانت العلل لأجلها ؟ قيل له : العلل ليست بلا نهاية ، لأن هـذا الاسم الذى هو لها جامع يحصرها فى الحال للذى له صارت عللاً ، فتقصر إليه ضرورة بلا زيادة دائمة . فإن وجد واجد علةً داخلة فى الحال سوى ما ذكرنا فليأت على ذلك بسلطان بين : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام : ١٤٤ الأعراف : ٣٧ يونس : ١٧ الكهف : ١٥] بأن سماه علة فأدخله بزعمه فى حال العلل التى هو عنها متعال فى وجود كل ذى عقل ، وهو محدث العلل وواضعها ومدخلها بالاسم والحال ، بلا تبديل لها ما دامت كائنة ، كما وضعها عليه فى البدء ، إقامةً لدلائل الضرورة فيها ، وإبانة لنفسه عنها بالارتفاع عليها سبحانه وبحمده عما يقول المبطلون علواً كبيراً .

٢٥ ــ ثم يقال له : هل هى علل إلا لأنهـا بحال هى به للمعلولات علل (٩٦ و) موضوعة بذلك بتة ، وأن ذلك حالها الفاصل لها من كل معلول خرج منها ويكون من أجلها ، وأنها ليست بأولى بأنفسها منها بإخراج المعلول بتة ؟ فهذا بيان الضرورة فيها إن أقررت ، وإن أنكرت جحدت العلل والمعلولات والتعارف المعقول منها .

٢٦ ــ فإن قال : سماه علة عز وجل ، لأنه للعلل بحالها هى لغيرها على مثل سواء ، فهذا الكذب الصراح ، فليأت عليه بسلطان بين ، لأن الحال

---

١ ــ المتأيسة : المتباينة .

٥ ــ هذا : بهذا .

لا تلزمه ولا تستطيع أن تلحقه صفتها من جهة من الجهات أبداً .

٢٧ ـ فإن قال : فهل هو للعلل ببعض ما هى لغيرها . قيل له : سبحان الله عن التبعيض والتجزئة ، أو أن يكون نفسه لغيره لا لنفسه ، فإن ظهر له نفى جميع ذلك عنه ، كما هو أهله عز وجل ، بالحقيقة الظاهر نورها لكل ذى هدى وإنصاف ، فما سبيله إذن إلى أن يسميه علة يجب لإيجابه شىء سواه ، كما وجبت أن تكون المعلولات لأجل العلل ، وأن تكون العلل لأجل المعلولات الواجبة منها ضرورة، وانعطف بعض الخلق على بعض وانحصر فى نفسه بما حده له خالقه ، ولم يكن له أن يجاوز الحادث إلى القدم ، ولا المحصور إلى المطلق ، ولا المخلوق إلى الخالق ، إنما نفع اسم من كتب نبوة أو حجة فطرة ، فإن أقر بالنبوة فليس هذا الاسم منها، وإن ذهب إلى حجة العقول ، فقد ظهر به نفى ذلك عنه سبحانه .

٢٨ ـ وإن سأل السائل عن حال العلل فقال : وما الحال التى من أجلها صارت عللاً ، فلا يجب لتلك الحال أن يكون البارى علة المعلول ؟ قيل له : الاشتراك فى حال العلل ، لأن تلك الحال جامعها معاً لكون كل معلول يكون من أجلها ، كالاشتراك بحالها الجامع لها . فالبارى تعالى لا علة ، إذ ليس مشتركاً معها فى الاسم ولا فى المعنى ، وإذ هى بالفصل بائنة عنه ، لأن الفصل غاية لها ، وهو لا غاية له عز وجل .

٢٩ ـ فإن قال : فلم صارت هى عللاً سابقة دون أن تكون هى المعلولات المسبوقة ؟ قيل له : لأنها بالفصل الأكبر فى بسطها أحق من المعلولات ، وإذ هى بالفصل الأكبر أحق ، وجب لها السبق قبل كل معلول ، لأنه محال أن تكون هى فى بسطها وعظم أقدارها فى الفصل الأصغر الذى هو أحق المعلولات من بعدها،

---

٤ ـ الظاهر : الظاهرة .

فلأجل (٩٦ ظ) صغر الفصل صارت معلولات من غيرها اضطراراً ، ولأجل عظم الفصول العظام صارت عللاً لغيرها واستحقت السبق لها ، وهو أصغر قدراً منها . ثم هي لا تعود بتلك الفصول العظام إلى أن تكون معلولات لغيرها أبداً إلا أن يكون قبلها ذو فصل أعظم منها . ولو كان قبل كل عظيم أعظم منه ، كان هذا بلا غاية . والبارى عز وجل لا يقال فيه إنه ذو فصل ، أى يناله بذاته ، على معنى أن تكون المنْفصلات فيه كما هى فى العلل ، لأن الموضوع فى المحدود محدود ، والفاصل لذى الغاية ذو غاية ، والمحيط بذى النهاية إحاطة الاتصال ذو نهاية ، وهو الذى لا غاية له ، عز وجل عن ذلك .

٣٠ ـ فإن قال قائل : ولم كان هـذا كذا ؟ قيل له : لأنه لم يكن بد من أن يكون صغـير وكبير ، ليعقل الصغير والـكبير ، ولا يعقل الصغير إلا بالـكبير ، ولا الـكبير إلا بالصغير ، فلما لم يكن بد من أن يعقل وضع على المعنى الذى به يعقل ، فـكان الـكبير أحق بالسبق لـكبره وفضله عن الصغير وحمله له ، فـكان علة له ، وتأخر الصغير لصغره إذ حق ذلك له ، إذ لا يقوم إلا فى حامل قبله يسعه ، فالـكبير مكان ، والصغير متمكن .

٣٨ ـ فإن قال : ولم لم يكن المعلول بالفصل الأكبر أحق من العلة ؟ قيل له : فهذا تـكرير بعد الفصل ، ولـكنا نقول له : لأن الفصل الأكبر فاصلٌ عنه ، فالـكبير يفصل الصغير ، لا الصغير يحيط بالـكبير ، ولا يعقل المعقول إلا بفصله الأحق به ، فالصغير معقول بفصله الأصغر إذا أضيف إلى ما هو أكبر منه ، فإن لم يضف إلى ما هو أكبر منه لم يعقل أن فصله صغير أو كبير بتةً ، و إذا لم يعقل دثر بلا زمان عن المعقول ، لأن ما لا يعقل فصله داثر غير قائم ، لأن الفصل هو الحق المبين له فى العقول ، فإن لم يكن الحق فقد بطل ما قارنه الحق ، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال .

٣٢ ـ واعلم أن الحق الأول الرب الأعلى المحقق للحق ، الفاصل لـكل شيء مرتفع عن أن يقال بالحق حق ، كما حق بالحق غيره ، لأنه المحقق للحق الذى حقت به الأشياء ، ولو وجب أن يكون المحقق للحق بالحق حق ـ أعنى قبل الخلق ـ لوجب أن يكون المـكون للـكون بالـكون تـكون ، وهذا رأس المحال ، وهو الذى أحق الحق الأكبر وأحق به الأشياء ، فأثبتها وأبانها به ، فمحال أن تـكون حقت بالحق حقيقته ، بل (٩٧ و) يحق عندنا بالحق على معنى الدلالة عليه أنه الحق المبين ، لأن كل ما حقت إنيته بشيء ، فذلك الشيء قبل إنيته ، فافهم .

٣٣ ـ ومن الزيادة فى إيضاح قولنا فى العلة والمعلول أنا نقول : إن البارى عز وجل خلق المعلولات على ماهى عليه من الإتقان والأحكام والثبات باضطراره للعلل التى وجبت المعلولات من أجلها واضطراره إياها . وهـذا قول صحيح جداً . ألا ترى المركب المعلول المنضد ذا أجزاء لا محالة بعضها مخالف فى الطبع لبعض : حار وبارد، ورطب ويابس، وثقيل راسب، وخفيف طاف، ومتوسط بينهما شبيه بالطرفين كليهما ، وشديد غاية ضعيف بتة ، ومتوسط بينهما قد توسط بين طرفيهما مما يلى الشديد شديد ليس كشدة الأشد ، ومما يلى الضعيف ضعيف ليس كضعف الأضعف ؟ فأنت لو طلبت سوى الأربعة بجهدك وجهد غيرك لم تجده بتة فى شيء من العالم . فيحق ما قلنا على المعلولات إنها فعل الله تعالى باضطرار لعلل يفعلها ، لأنا نرى الأربعة فى المعلول المركب مبنية بوزن العدل ، قائمة بالإتقان لما يجب على ما يجب عند دفع العلل من أماكنها فى الفصل المراد للمعلول . فالأثقل الراسب منها تجده فى المعلول قد نزل فى الحضيض الأسفل حاملاً لسواها ، كالماء الذى هو فى الأسفل من العالم الأكبر ، وكذلك هو فى العالم الأصغر ، وكذلك هو فى النبات والحيوان الـكلى . والأخف الطافى تجده لا محالة فى الأعلى من العالم الأكبر وفى

سواه . والمتوسط بين الطرفين قائم لا محالة باعتدال موزون ، فإن نزل فيه الجزء حامت الأطراف عليه ليعتدل و يسكن ، ذلك تقدير العزيز العليم .

٣٤ ـ فالمعلول فرع لعلته بوصفنا هذا ، والعلة أصل لمعلولها ، وحركة التأليف لا يمكن أن يكون منها التضاد القائم بينهما ، فهى من محرك غيرها ليس مثلهما لا محالة . فالمعلولات ، كما فسرنا ، كناية لأجل العلل الأول التى اضطرت إلى فعل معلولها ، والعلل الأول الباعثة بما جعل فى طبعها لـكون كل معلول موضوعات لمنفعلاتهـا ، وليست العلل بعد ، إذ هى النهاية من كل شىء ، سوى العدم الذى هو اسم نافٍ لـكل شىء من وهم أو لفظ . ومن قال كقول يعقوب بن إسحاق إنها من أجل (٩٧ ظ) البارى ، تعالى عن ذلك ، فالبارى عز وجل ليس شىء أولى به من شىء ، إلا أن الأول لا يكون إلا عن سبب معلوم أنه لا موضوع هو لشىء يكون من أجله انفعال ذلك الشىء ، فقد نقض قوله إنه لا موضوع إذن ، والبارى عز وجل ليس شىء أولى به من شىء ، لأن الأولى لا يكون إلا عن سبب متقدم يوجب له أن يكون أولى ، فهو مطلق الاختيار عز وجل تام الغنى .

٣٥ — فرأس العلم وقطبه وذروته العليا أن تعلم أنه ليس شىء من المعلولات كائناً إلا لعلة موضوعة ، وضعها مَنْ تعالى عن أن يكون علة أو معلولاً ، ولـكن كل شىء كان فلعلة موضوعة كان ، وجب عند الله عز وجل أن يكون المعلول من أجلها كائناً ، لأن الله عز وجل تعالى وتقدس وتنزه وارتفع عن أن يضع نفسه ليـكون من أجله شىء ، لأن الخالق لا يعود مخلوقاً والموضوع مخلوق ، ولـكنه القادر على أن وضع مامن أجله كان كل شىء ، فتعالى ذو الـكبرياء والعزة والعظمة والجلال عما يقول المحلدون فى أسمائه ، خطأ وعمداً ، علواً كبيراً .

٣٦ — وإنما دخل الغلط على الـكندى على ما قال ، لأنه نزه البارى

ـ زعم ـ أن يكون خلق الخلق من أجل غيره ، فظن أنه إن أوجب ذلك وجب أن ذلك الغير سابق له ومستحق للقَبْل قبله ، فاعجبْ كيف طمس عليه عقله ؟ فإذا لم يجد صحيحاً أن يكون فعل من أجل إنيته ولا من أجل غيرٍ قبله، أن يقول فعل من أجل شيء بعده فيصيب ، فنعوذ بالله من العمى عن الهدى والضلال عن الحق والزيغ عن الطريق المستقيم .

٣٧ ـ أرأيت لو قال له قائل قولا مختصراً : يا أيها الكندى المنكشف المبهوت ، نحن نقول : إن البارى جل جلاله فعل ما فعل من أجل المفعول ، إذ لا يجوز أن يكون مفعوله تامًّا مفعولاً ، كائناً ذا أفعال وانطلاق وانتفاع إلا بفعل التمام الذى من أجله كان المفعول وتم ، وكان هو من أجل المفعول ، إذ لا يكون علة إلا لمعلول ، ولا معلول إلا لعلة متشاكلان . و إذ لا يجوز أن يعلمه المفعول إلا وهو منفعل و إرادته أن تعلمه هى علة انفعاله ، فللإرادة كان المفعول ، وللمفعول كانت الإرادة ، ليس لواحد منهما عن صاحبه مخرج . فإن قال : فهو إذن من [أجل] أن يعلمه فعله ؟ قيل له : نعم ، من أجل أن يعلمه ، وأن يعلمه هى إرادته التى من أجلها فعل ، لأن علم المفعول هى الإرادة التى من أجلها قام ، فافهم .

٣٨ ـ وقوله إن الإنية فعلت من أجل إنيتها فباطل محض ، لأنه لا يجوز أن يقال على الإنية الواحدة بقول متوسط ، إذ لا غاية لها فيدخلها توسط ، لأنه لو دخلها توسط كان لها إذن بعض يفعل من أجله ـ هذا قول لا يحمله العقل عن الله عز وجل ، تعالى الله عنه ، لأنه إن كان فاعلاً من أجل [٩٨ و] ذاته ، والذات وحدة لا غيرية فيها ، فهو لذاته فاعل ما فعل ، وذاته قبل ذلك وحدة لا علة فيها ، هذا من أشنع المحال والتناقض لمن عقله . وأيضاً إن كان فعل من أجل إنيته ، فالفعل لازمه ضرورة بما كانت الأنية علة للفعل ، لأن العلة والمعلول من المضاف ، لأن العلة علة المعلول ، والمعلول معلول العلة ، لا يجد العقل سوى هذا .

٣٩ ـ وأيضاً إن كانت الإنية فعلت من أجل ذاتها ، إذ الفعل ليس ضرورة ، فهى فاعلة لبعضها وما سواها معدوم ، لأن بعضها علة فعل ، و بعضها علة إيجاب فعل . فهذا كله يدخل على الكندى .

٤٠ ـ وأيضاً إن كان الفعل من أجل الأنية ، فالفعل لازمه ضرورة ، فالفعل إذن لم يزل والأنية متقدمة للفعل ، فهى إذن قبل الفعل ، فهى إذن أزلية والفعل حادث ، والفعل من أجل الانية ، فالفعل إذن لم يزل ، فالفعل إذن حادث والفعل لم يزل ، هذا خلف ، أراد شيئاً فكانت الإرادة السابقة علة موضوعة لما يكون ، ولا علة لها هى لأنه ليس قبلها مثلها ، والعلة والمعلول متشاكلان ، فمحال أن يكون لها علة ، إذ ليس قبلها شيء يشاكلها فيكون علة لها ، فالله تعالى محدثها و باعثها ، وهى علة بأن سبقت كل معلول بعدها . هذا عندى أصح من أن يكون من أجل المعلول .

٤١ـ تفسير الإرادة : الإرادة فى الفصل الأكبر وهى الحد الأول وهى النهاية القصوى وهى العلة الأولى ، فليس للفصل فصل ، ولا للحد حد، ولا للنهاية نهاية ، ولا للعلة علة . الفصل هو بنفسه فصل ، والحد هو بنفسه حد، والنهاية هى بنفسها نهاية ، والعلة هى بنفسها علة .

٤٢ ـ العلة والمعلول من المضاف الذى لا يكون بعضه إلا لبعض ، وهو يتسابق بالفعل ليس هو كالمكان والمتمكن ؛ المكان والمتمكن والحد والمحدود والفصل والمفصول لا يتسابق بتة ، وأما العلة والمعلول فيتسابق بالفصل ، وأظن القائلين إنه لايتسابق هم الدهرية ، لأن هذا اللفظ يعضد ضلالهم فيزيدهم ضلالاً .

والناقص والتام يتسابقان أيضاً ، فاحفظ إن شاء الله ما يتسابق مما لا يتسابق وتحفظ منه . و إنما يعنون بقولهم فى العلة والمعلول : مضاف لا يتسابق ، لأن العلة فيها معنى المعلول مضمر فى لفظها ، إذ لايكون علة إلا لمعلول فيها معنى المعلول قائم

لا تسبقه ، كما المعلول فيه معنى العلة لا يسبقها ، لأنه إذا ذكر فذكرها قائم فيه ، فهو لا يسبقها بزمان ، لغِنًى فى ذكره إذا ذكر ومعناه وصف ، وهى تسبق معلولها بالذات كالأب يسبق الابن ، والمالك يسبق المملوك [٩٨ ظ] .

٤٣ ــ تفسير الفصل الأول : الفصل الأول فصل العدم من الوجود ، فهو فصل للمفصول وحد للمحدود ، فالمحدود فيه عن العدم ، والمفصول فيه من العدم ، هو العلم . هى المقادير الأول التى عنها كان الكون كله ، هى مثال الكون كله ، ولا يمكن أن يكون هذا الفصل الأكبر إلا العدم ، والعدم لا يكون علة ولا معلولاً . فمن زعم أن العلة التى هى العدم علة ، قيل له : مشاكلة لها أو غير مشاكلة ؟ فإن قال : مشاكلة . قيل له : فهى إذن العلة الأولى حتى تنتهى إلى علة ليس بعدها علة مشاكلة ، فإذا لم يجد إلا الخالق والعدم ، قيل له : فالخالق ليس مشاكلاً للمعلول فيكون علة، والعدم لا يكون علة ولا معلولاً ، فإلى العلة إذن ، فهى إذن ضرورة بنفسها علة لا علة لها ، ولغيرها كانت علة ، وذلك الغير هو المحدث لها، والأول الذى ليس كمثله شىء .

٤٤ ــ مسئلة الإمكان: نقول قولا لا بد للكندى وأهل مذهبه وأشباههم من القول به ضرورة ، نقول : إن الفاعل الأول فعل فعلاً كان ممكناً أن يكونه قبل كونه ، فليس يقدر أن ينكر الإمكان لله تعالى فى ذلك أحد ، لأن الإمكان واجب قبل الفعل لا محالة ، فالإمكان الذى ظهر ضرورة بين الفاعل والفعل هو البون الأكبر بين الفاعل والمفعول ، ثم بينه بون آخر دونه فى القدر والعظم هو تحته حاجزاً أيضاً للمفعول أن يضاف إلى البون الأعلى ، فضلاً عن الفاعل الأول، جل وعز ، وهذا البون الثانى هو الانفعال الخارج من جهة البون الأعلى الذى هو الإمكان ، ولا يجوز أن يكون الإمكان هو الانفعال ، كما لا يجوز أن يكون الانفعال هو المفعول التام المقدر المفروغ منه ، لأن الانفعال عن إمكان يكون

ضرورة ، والمفعول القائم عن انفعال يكون ضرورة أيضاً متتابعاً . هكذا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بجميع ذلك لمن لقنه ، والحمد لله ، وليس لأحد من الملحدين عن هذا بحجة العقل مخرج أبداً ولا محيص .

٤٥ ـ تفسير الإمكان : فقل الآن للمتشاغل عن نور النبوة التى أبانت الألفاظ مع المعانى بوحى الله تعالى ونوره : فالإمكان هى الإرادة ، هى الملك ، هى العرش ، وهو الغاية القصوى والنهاية العظمى والفصل الأكبر ، وهو الحق المحيط بالكل ، وهو الأمر الأعلى ، والنور الأعظم ، والحجاب الأرفع المضروب بين الخالق وخلقه ، ثم دونه إلى الخلق حجاب آخر ، وهو مكان الانفعال ، وهو المثال الكائن [٩٩ و] من بعد الأمر الأول الجامع لأقدار المكونات كلها ، قدر كل ما يكون ، وزمام ما قد كان ؛ وهو العلم والكرسى القائم تحت عرش الرحمن ، فسبحان رب العالمين رب العرش العظيم .

٤٦ ـ فقل الآن على ترجمة ما قالت حكماء الفترة ولم يفصحوا بالتسمية إذ عدموا نور النبوة : الإمكان هى الإرادة الجامعة لكل مراد من المنفعل والمفعول ، والانفعال هو الطبيعة المتحركة تحت الإمكان ، فهو مدة خروج الأقدار المفعولة عنه ، فهو الزمان ، ونهاية حركة الانفعال إلى حد ؛ الإمكان الإرادة الجامعة لانفعال المنفعلات ؛ والإمكان نهاية للزمان (أى) الطبيعة المتحركة للانفعال ؛ فالإمكان هو العرش والذى تحته حركة انفعال الزمان ، والذى تحت الزمان حركة المفعولات المكونات التامة هى الأوقات والسنون والأيام ، والزمان نهاية السنين والأيام ، والدهر نهاية الزمان ، فالدهر جامع للزمان القائم بحركات الصور التى هى ذات الأقدار الثلاث ـ طول وعرض وعمق ـ التى هى للجرم ، وتلك الحركات التى هى حركات الأجرام هى المفصلة أوقات الانفصال أقدارها أجساماً تامة ، والدهر

---

١٢ ـ الفترة : العترة .

الجامع لذلك كله هو البون الأكبر والحد الأعظم والإرادة الدائمة الأبدية لخلود أهل الجنة والنار ، وربنا المحمود ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى لم يدعنا فى ضلال أهل الفترة ولا حيرة أهل الفتنة وسلم .

٤٧ ـ وقوله : اعلم أن الدهر هو بناء غاية الإمكان التى يقوم الإمكان بها دائماً ما بقيت تلك الغاية ساكنة فى حال واحدة أو حركة واحدة لا ضد لها ، واعلم أنهما غايتان : إحداهما ساكنة والأخرى متحركة ، فالمتحركة تحمل الساكنة، لأنا لا نجوِّز أن يكون ساكن قبل حركته،لأنه لا يكون قبل حركة إبداعه وكونه ولا قبل حركة انفعاله ، فالساكن من حركة فصل ، ولم تنفصل الحركة من ساكن كأنه يفسر الإرادة الأولى والحادثة ـ هذا الكلام مدخول لأن الذى قال فيه بإمكان لابد أن يجعله قديماً أو محدثاً . فإن جعله محدثاً زعم أنه لم يكن ممكناً له أن يفعل قبل ، فأوجب عارضاً فنفى الوحدة . و إن جعله قديماً أوجب الدهرَ قديماً شىء آخر ، فنفى الوحدة .

٤٨ ـ فإن تبلد ذهن سامع فازداد بياناً فقال : بين لى كيف امتنع ذلك بوجوب الإمكان والانفعال فصلان عظيمان ن [٩٩ ظ] والإضافة لاتقال إلا على اثنين لابون بينهما بمكان ولا بزمان ، بإجماع من الفلاسفة الذين خطوا لكم الطريق ، فالوجود الضرورى للفصلين العظيمين قطع الإضافة بين الخالق والمخلوق ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ومَنْ جهل مائية هذه الفصول ، و بإيجاب مائية الإضافة هلكت النصارى بدياً ، وعن إيجاب الإضافة هلكت الدهرية أيضاً والديصانية والمجوس كلها ، وعن جهل ذلك هلكت المنانية والمشبهة أيضاً ، و بجهل الكندى بها هلك فى كتابه ، فلم يجد علة للخلق إلا الخالق ، فسماه بغير اسمه ، إذ لم يجد إلا الخالق والخلق ولم يعرف الأمر . فوجود الإمكان والانفعال بحجة العقل وضرورته ، قيل : كون المعقول الخارج عنها من عدم ، وهما الدهر

والزمان الـكائنان بتعديهما بين المفعول والفاعل الأول ، جل ثناؤه ، فصل الإضافة ، لأنهما ليسا فعلا تاماً ، بل الفعل التام أعنى المفعول كائن لأجلهما ، ولذلك لا يمكن أن يقال : الانفعال والإمكان فعل ، إذ الفعل المفعول غيرهما لا محالة ، وهما الدهر والزمان المديران لذلك الفصل بين الفاعل الأول والفعل الـكائن القائم المحسوس فى مستقره .

٤٩ ـــ فإن قال : وما الذى منع أن يكون الدهر والزمان من المضاف إلى ربهما دون المفعول ؟ قيل له : منع من ذلك أنهما مضافان إلى مفعولهما الـكائن عنهما ، لأن الدهر هو غاية الزمان ، أعنى غاية مدة حركة الانفعال والمفعول ، والزمان مدة انفعال المفعول ، فلا يمكن أن يكون الزمان بلا غاية ، لأنه لا يكون شىء بلا غاية ، ولا يكون مفعول بلا مدة ، فالانفعال مدة المفعول ، فهما لا يصلان إلى غير ماهما مضافان إليه ، بل هما بائنان بالمفعول وزائلان به ، والمفعول ثابت بهما وزائل فيهما ، دون الوصول منه أو منهما إلى الفاعل الذى لا غاية له . والإضافة أيضاً لا تـكون إلا لذوى الغايات المتساوية الأبعاد والأوساط ، وإلا لم تـكن الإضافة بينهما حصة أصلاً ولا واجبة لها أبداً . ألا ترى أنه يمتنع أن يكون المفعول مضافاً إلى الزمان كله من قبل حدوث كلية المفعول المستقر فى الدهر بعد زمانه ، المنقضى الذى هو انفعاله المخرج له من عدم إلى وجود . والمفعول إنما يكون مضافاً إلى الانفعال بأول دقيقة منه ، يكون إذن مضافاً ، والإرادة الأولى المحيطة بالانفعال هى الفصل الجامع الفاصل فى الانفعال إلى مثلها من الانفعال فى الصغر من الزمان ضرورة ، وهكذا تقال الإضافة بينهما قولاً صادقاً بالتـكافؤ بالدقائق ، فـكيف تجب الإضافة لما لا أبعاد له [١٠٠ و] ولا أوساط إذن ؟

٥٠ ـــ فإن قال . فما منع أن يكون المفعول بدهره وزمانه مضافاً إلى الفاعل الأول فلا يتسابق ؟ قيل له : الزمان الذى هو انفعال المفعول إلى أن يستقر فى دهو

دهر لا يتخلق به فيه بعد التمام انفعاله ؛ قد أريناك فعل المفعول من فاعله ، لأنه مخرجه من عدم إلى وجود ، وموجب عليه الحدث ، ووجوب الحدث عليه موجب لقدمة خالقه قبله ، فإذا وجب التسابق بطلت الإضافة ، وإذا وجبت الإضافة بطل التسابق ، فافهمه .

٥١ — فإن تبلد فقال : فإن كان الانفعال قديماً ثم ظهر المفعول حديثاً ؟ قيل له : الانفعال حركة مّا ، والحركة بدء مّا ، وما كان له بدء فله قبل ، وما كان له قبل فهو حادث .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

وهذه زيادة تبيين على من ألحد فى أسماء الله فسمى ربه علة .

٥٢ ــ قال الموحد : نحن نقول إن الواحد الأول الذى لا مثل له يقول لأجل إرادته ، فيفعل بقوله الذى لا خلف فيه ، وهو جل وعز أبداً ، إن أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، قوله الحق وله الملك ، فقوله الحق وإرادته الحكم الفاصل ، جلّ ربنا وتقدس . فإن أراد ربنا شيئاً كان بقوله كن فيكون كائناً ، وإن لم يرد شيئاً لم يكن . فنقول : إن الله عز وجل فاعلٌ بالقول ، لأجل الإرادة التى سبقت منه قبل الفعل ، وهذا بين فى القرآن (مثل) قوله تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ [سورة البروج : ١٦] ، وهو بالقول فعّال ، قال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [سورة النحل : ٤٠] . ونقول : إنه لو لم يشأ أن تكون منه الإرادة لم تكن ، لأنه غير مضطر إلى الإرادة ، غير مضطر إلى أن يريد ، كيف وهو الأول قبل الإرادة سبحانه الواحد الصمد الفرد الأحد ؟ فنقول : لا كائن إلا بقوله ، ولا قول يسبق منه إلا بإرادته ، وهما يحدثان منه متى ما شاء قضاءهما بلا مانع له عنهما ، فإن أراد قولاً قال ، وإن لم يرد لم يقل ، فإذن لا قول يكون منه ولا إرادة إن لم يرد ، هو مالك الإرادة ومالك القول ، ومالك كل شىء سواه . فلأجل هاتين الصفتين كان المفعول مفعولاً بعد أن لم يكن ، وهما علتان لكل مفعول ، لا علة قبلهما من الله لكون الكائنات سواهما . فلا يقال فى البارى جل جلاله إنه علة الأكوان (١٠٠ ظ) بهذا

الاسم الذى لا يحسن ولا يحق أن يسمى به إن أراد مريد قصد الصمد بذلك دون الصفات، أعنى دون القول والإرادة ، لأن الصفات علل الـكائنات جميعاً ، وهو بوحدانيته غيرها لا محالة ، وهى محضة صمدة كما سمى نفسه ، متعال ، ووحدانيته قديمة بلا غاية لها ، ولـكل شىء من القول والإرادة غاية ، فليس الله تعالى يسمّى علة كما ظن الجاهلون الملحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون ، لأنه ليست العلة علة معقولة إلا لمعلول يكون المعلول من أجلها ضرورة ، أعنى بلا اختيار و بلا رجعة عمّا لها فى القوة أن يكون منها ، أعنى كون معلولها منها كالقول الذى هو للارادة بالقوة قبل خروجه منها بالفعل لـكون الـكائنات ، وكالـكائنات التى هى للقول فى القوة مكونة قبل الفعل ، وذلك من شأن العلل معقول أبداً عند أهل العلم ، أعنى لا شىء لها فى القوة إلا ولا بد أن يكون كائناً بالفعل ضرورة يلزمها طبع العلة مقدور على ذلك اضطراراً .

٥٣ — فالأول المبدع للعالم الذى لا مثل له ليس هو لشىء علة تعالى عن ذلك وارتفع ، إذ العلة فى العقول الصحيحة هى السبب المطبوع لـكون المسبب لا محالة ، فالأول جل وعز لا سبب ، تعالى عن ذلك ، فأنَّى يكون سبباً وهو محدث الأسباب وفاعلها ، وأنى يكون علة وهو محدث العلل وواضعها ، لا من سبب ولا من علة .

٥٤ — والذين قالوا إنه ليس علة الخالق شىء سوى القول والإرادة والقدرة ، وأنه إن كان جميع ذلك لم يزل بلا غاية ، فالخالق لم يزل بلا غاية ، فهو كما قالوا فى كلامهم ؛ غير أنهم ضلوا عن المبدع الأول ، لأنه ليس علة الخالق إلا الإرادة والقول والقدرة ، فأما محدث ذلك فليس علة ، ولا لأنه لو لم تزل هذه الصفات لم تزل الـكائنات واجبة ، لأن العلة فيها إيجاب معلولها ، ولـكن من لهم بدعواهم أن العلل لم تزل مع الأول الموصوف ، وأنها أزلية بلا غاية ، وهم لا يأتون عليه

بسلطان أبداً ، و إذا لم يجدوا به سلطاناً ولا برهاناً ، أليس القول به كفراً وشراً وطغياناً ؟ وهذا موضع خلاف النصارى والدهريين ، فسبحان الفرد الصمد الذى ليس كمثله شيء ، وهو الأول وحده ، وكل شيء سواه حادث بعده ، بائن منه ، مملوك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

٥٥ — ومن فقه الصفات أن الصفات علل بادية ، وهى قبل أن يكون الفعل التام لانفعالات بتركيب المفعول [١٠١ هـ] المفعول منها ، ولذلك لا يجب أن يقال : هى مفعولة ، أعنى العلل التى هى الاسطقسات الأربع ، لأن المفعول هو المركب ، وهى بسيطة لا مركبة . ولا يقال فى العلل إنها أفعال الله ما دامت متحركة لامستقرة ، بل هى انفعالات لله تعالى واجبة ، ولا يقال فى المعلولات إنها انفعالات إذا هى تمت مستقرة . وهكذا تنفصل فى الوهم الهوية من لا هوية ، لأن الموجب يبعث السالب .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم

٥٦ — كتب محمد ـ رحمه الله ـ فى جانب كتاب الكندى صاحب هذا الكتاب لمن فهمه عنه :

لا شك فيه أنه غير صحيح الإيمان ، غير عالم بربه ، غير ذى بصيرة فى شىء، لأنه تناقض فى كلامه واضطرب اضطراباً يخبر أنه لم يحصل ما يقول .

٥٧ — أول ذلك العلة والمعلول التى كفر فيهما فى كتابه فى التوحيد هو ما قد جاء بهما كما هنا ، فبعد أن أوجب الإيجاب التام الجيد ونفى عن التوحيد كل ما يُنقِّصه من المضاف والنوع والجنس وسائر المقولات، زعم أن الواحد علة ما خلق ، والعلة لا تكون إلا جنساً ، والعلة لا تكون إلا مضافة ، والعلة من كل جهة لا تكون مع الوحدة الصحيحة فى قوله و بما أوجب بلسانه ، فحسبه بهذا عياً وكفراً وضلالاً .

٥٨ ـ ثم جعل تناقص النبوة فى هذا الكتاب بما يدخل عليه ، أن جعل ربه علة ، دخولاً كدخوله عليهم أو أشد ، وكذلك الكفر ما نقص ضرباً منه نقص أجناسه كلها ، و إنما هلك المسكين لأنه بعد أن نفى عن الخالق شبه المخلوق فى شىء من صفاته ، جعل يطلب خالقه بما يتمثل لعقله كطلب المخلوق سواء سواء . ولو لم يعرف إذا بلغ الحد الذى وقفت الغايات إليه كيف ينفذ إلى إيجاب وجود الخالق بما يخالف وجود المخلوق ، وأراد أن يسلك فيها سبيلاً واحداً بعد أن أوجب فى مبادى كلامه أن سبيل وجودهما مختلف ، فلعمرى ما أرى الكلام الصحيح الذى قدمه فى كتاب «التوحيد» ، والذى يجرى فى داخل كلامه فى هذا الكتاب ، إلا ماحفظ من كلام غيره من الأوائل الموحدين : أرسطا طاليس وأفلاطون وابقراط

ومن وحّد منهم ، حتى إذا رجع إلى محصول نفسه جاء حينئذ بالاختلاط والضلال ، فليتق عبد على نفسه ، فإن النظر فى مثل [١٠١ ظ] هذه الكتب لمن لم يعرف الله معرفة تامة تهلكه وتكفره وتخسره آخرته وتوجب عليه عذاب الأبد السرمد ، وأين من يعرف ربه ؟ كانوا إذ كانوا ، وقد والله ذهبوا ، فإن كان قد بقى منهم فى الدنيا واحد أو اثنان فعلمه مخزون فى صدورهم مقصور على أنفسهم أو على خاصة يسلك بهم مثل سبيله فى طيه عن أهل زمانه ، إذ لا يرى مستحقاً ولا أميناً ولا لقِناً ولا صديقاً ولا مريداً صادقاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

٥٩ ــ قال الموحّد : من المسائل التى هى محاليةُ السؤالِ ، فلا أجوبة لها بالمقابلة لأنك إن قابلت المحال كنت محيلاً . لو سأل سائل عن الله عز وجل بإيقاع صفة التمام والكمال مثل ما هو تام كامل ، قيل له : أتسأل بصفة المخلوق عن الخالق ، تعالى الله عن هذه الصفة كما تعالى عن ضدها ، هو فوق ما يأخذه التمام والنقص ، عالٍ علواً كبيراً ، وهذا المحال من السؤال موجود مثاله فى المخلوقات وجوداً قريباً ظاهراً ، لو قال قائل : الأمير حاجبٌ أو وزير ؟ قيل له : منزلته فوق منزلة الحاجب والوزير . فلو قال القائل : اللؤلؤ أخضر هو أو أحمر ؟ قيل له : لاذا ولاذا . ومثل هذا يرد كثيراً فى مواضع مشبهة لا يظهر محالها إلا بالكشف . وكذلك لو سأل سائل ، وهى أغمض من التى قبلها : هل يحيط علم الله بذاته أم لا يحيط ؟ قيل له : لا تسأل عما لا يتناهى بصفة الإحاطة فليس لك جواب ، أرأيت لو قلت : أيحيط المحيط بما لا يحاط به ؟ ألم يكن محالاً كما لو قلت : هل لما لا حدَّ له حدٌّ ، وهل لما لا نهايةَ له نهايةٌ ، وهل يخلو الذهب أن يكون أسود أو أخضر ؟ قلنا : لا يقع عليه واحدة من هاتين الحالتين ، فكذلك بمن سأل عن متقابلين فى المخلوقات ليس واحد منهما فيه ، نُفيا جميعاً .

---

٩ ــ بالمقابلة : بالمقالة .

ومن سأل عن الخالق تعالى عز وجل بما يقع على المخلوقات من الصفة ، ومن جهة الضد والند ، ومن جهة الكم والكيف ، كل هـذا لا يجاب فيه حتى يسأل غير سؤال المخلوق ، كما لا يشبه خلقه فى صفة من صفاته ، كذلك لا يمكن أن يسأل عنه بصفة من صفات خلقه ، فافهم ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ [سورة البقرة : ٤٢] ؛ الذين قالوا بالكون جهلوا المكان والمتمكن ، فحسبوا أن المتمكن يكون فى المتمكن ولا يكون المتمكن إلا فى مكان ، والمكان لا يأخذ منه الجسم إلا قدره وحده ، فلا يمكن أن يكون جسم آخر معه فى مكان لا فضل فيه ، والمكان [١٠٢ و] الهواء والأجسام المتمكنات فيه ، فبؤساً لهم ما أبلدهم .

٦٠ ـ قال : أخشى أن يكون هذا الكندى الشقى كان زنديقاً ، فعمل على أن يوقع غيره فيما وقع هو فيه ، ويرى مثله ممن أراد الله تعالى هلاكه أن البراهين تتناقض فى إثبات التوحيد ، كيف هى ؟ وكيف ثثبت ، وأنها لا تصح إلا بهذه الشرائط . ثم أتبع ذلك بأنه لابد للعالم من علة ، وأنه لا علة إلا خالقه ، لينقض بذلك الصفة التى هى التوحيد ، فيرى أن الوحدة غير موجودة وغير قائمة . فإن كانت هذه بصيرته وإياها قصد ، فما أرى فى جهنم أسفل درجة منه . وإن لم يكن قصدها ، فالشيخ دبرها على لسانه ، فهو معه فى أسفل السافلين ، إذ مكنه الله تعالى من أن أجرى على لسانه الكفر بهذا اللبس من حيلهِ ، ليصد عن سبيل الله . وربما ظننت أن طويته قول الدهرية لأنه رجع قوله إلى أن كل شىء معلول وعلة فأثبت العالم ونفى غير ذلك . فلعمرى إذْ خشيت هذا من كيده إنه ليجب أن يوضع شىء يبين به عليه ، ويقابل به ضلالُهُ ، لتمحى ظلمته بنور الهدى إن شاء الله . ألا ترى كلامه كله كلام الحيران معرفته بأزمة الكلام من جهة

صناعة المنطق ، فهو يرد على المنانية والدهرية ويخلط القول صحيحاً بمريض ، كما كان فى قلبه سواء ، والله أعلم .

٦١ ـ قال : إن الكندى وإن ناظر هؤلاء المبطلين ، فقوله ظنين غير مأمون لنقضه على نفسه التوحيد جهاراً ، إذ أقر أن العلة والمعلول من المضاف ، وأن الوحدانية لا يقال عليها بالمضاف ، ثم زعم أن ربه علة ، فأوجب المضاف ، فكأنه تعمد النقض ، فنقول : إن ردّه على المنانية ومناقضته إياهم صحيحة ، كما ناقض ، إلا مواضع زلّ فيها . وأصل مناظرته صحيحة ، غير أنه كثر فيما يستغنى فيه بالقليل ، إنما هى عقدة واحدة ، فلينظر إليها من أراد الحق ويجعلها لنفسه أصلاً يغنيه عمن زال عن قوله : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [سورة الشورى : ١١] . فكل مناظرة تلحقه وكل ، مناقضة تدخل عليه من شبه إلٰهه بشىء من المخلوقات من جهة من الجهات ، فجعله جرماً أو محدوداً أو متناهياً أو أى صفة من صفات المخلوق كانت ، دقت أو جلت ، دخل عليه سائر الصفات كلها ، وناقضته المعانى كلها فى السموات والأرض حتى تخرجه عن المِثْل بكل جهة مقولة ومتوهمة ، وإلا فهو مبطل ملحد فى الدنيا والآخرة ، وصلى الله على سيدنا محمد .

كما أن الكندى إذ سمّى ربه علة ، يدخل عليه كل ما أدخله على المنانية [١٠٢ ظ] فيسأله عما كان خطأً أو عمداً .

تم الكتاب بحمد الله وعونه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم

٦٢ ـ من المقلوب قياس أمور خالقنا على قياس أنفسنا فنخرّ ولا نشعر ، ٣
و إنما منع الإضافة عدم المشاكلة ، هى فصل ، لا فصل مسافة مانعة من الإضافة ؛
و إن زاغ المعنى عن هذا إلى توهم المسافة ووضع الكلام عليه ، دخل الباطل والزيغ
لا محالة ، فاشعر إن كنت تشعر . ٦

٦٣ ـ الأنية والذات : الشىء بعينه .

٦٤ ـ الأشخاص الجزئية : كل ما تدركه بالحواس الخمس .

٦٥ ـ والأجناس والأنواع : كل ما يدركه الوهم ـ وهو العقل ـ و إنما يدرك ٩
العقل المعانى والجواهر البسيطة التى هى الأمر .

٦٦ ـ المركبات : المخلوقات .

٦٧ ـ والصفات : العلل . ١٢

٦٨ ـ « الحكمة » : هى الفصل الأكبر ؛ « رب احكم » أى افصل ؛
« حاكم » : فاصل ، « وهو خير الفاصلين » أى خير الحاكمين .

٦٩ ـ العلل التى هى رءوس بادية أربع : العنصر والصورة والفاعلة والمتممة . ١٥
فأما العنصر فمثل الذهب والنحاس والفضة ؛ وأما الصورة فما صوّر منها مثل :
الأباريق والكؤوس والحلى ؛ وأما الفاعلة فمثل الصانع الذى منه ابتدأت الحركة
لفعل هذه الأشياء من العنصر ؛ وأما المتممة فإنها التى من أجلها فعل الفاعل ١٨
مفعوله من العنصر ، مثل أن يقال : لم عمل الكأس ، فقيل : عمل لأجل الشرب به ،
ومثل البيت الذى بناه البناء ، فيقال : لم بنى البيت ؟ قيل : للسكنى فيه ، فكأن

علة بنيان البيت السكنى الذى لأجله بنى البيت ، فهذه العلة التمامية التى تمّ بها المفعول .

٧٠ ـ ومما يحق على من أراد أن يقضى بالحق ألا يكون مماديًا لمن خالفه ، بل يجب عليه أن يكون رفيقًا محسنًا منصفًا ، ومن إحسانه أن يجيز له مثل الذى يجيز لنفسه من الصواب ، والوقوف عند حدود البراهين ، وكل حجة بلا برهان خرافة .

٧١ ـ العلة العنصرية تنقسم ضربين : روحانى وجسمانى ، فأما الروحانى فمثل إرادة البارى جل ثناؤه ، والجسمانى مثل الأسطقسات الأربع .

والعلة الصورية تنقسم قسمين : روحانى وجسمانى ، فأما الروحانى فمثل الأرواح والملائكة التى قامت من العلة الروحانية العنصرية وهى إرادة البارى ، وأما الجسمانية فمثل أجسام بنى آدم وأجسام البهائم والنبات التى قامت من العلة العنصرية الجسمانية وهى [١٠٣ و] الأسطقسات الأربع .

والعلة الفاعلة تنقسم قسمين : روحانى وجسمانى ، فأما الروحانى فمثل كلمة البارى التى فصلت الأرواح والملائكة من إرادة البارى ، وأما الجسمانية فمثل الطبيعة المتحركة لفعل أجسامنا وأجسام البهائم والنبات من العلة العنصرية التى هى الاسطقصات الأربع .

وأما العلة المتممة فتنقسم قسمين : روحانية وجسمانية ، فالجسمانية مثل تحرك الأجسام أجمع ، وأما الروحانية فمثل علوم الإلهية وأفراد الوحدة .

٧٢ ـ قال أفلاطون : الأفعال ثلاثة : فعل اختراعى وطبيعى وصناعى . فأما الاختراعى فهو المخصوص بفعل البارى ، وهو تأسيس أيس من ليس . وأما الطبيعى فهو تأسيس أيس من أيس ، مع فساد صورة ذلك الشىء وطبيعته إلى صورة أخرى وطبيعة أخرى ، المخصوص بفعل العلل بإذن الله تعالى .

وأما الصناعى فهو أيس من أيس بغير فساد صورة ذلك الأيس ، وهذا المخصوص بفعل المعلولات بإرادة البارى ومشيئته تعالى .

٧٣ ـ الجوهر ينقسم قسمين : روحانى وجسمانى ، فأما الروحانى مثل العقل والنفس ، والجسمانى مثل الطويل والعريض والعميق .

والعرض ينقسم قسمين : روحانى وجسمانى ، فالروحانى مثل الحلم والعلم والأدب المحمولة فى النفس ، وأما الجسمانى فمثل السواد والبياض المحمولة على الجسم ، فافهم .

٧٤ ـ قال محمد : قال أفلاطون : كلُّ ما وقعت حركته تحت الزمان محدود معدود ، وكل محدود معدود فأوله التفريق ، ثم ألفة بعد التفريق ، لأن كل شىء له طرفان ، والزمان والمكان معاًمعاً ، فإذا فنى المكان فنى معه الزمان لا محالة ، والحمد لله رب العالمين .

٧٥ ـ صفة الله تعالى : الله تعالى نفى صفات البشر عنه ، وقد جعل لذلك اعتباراً ، وهو المريد المحدد ، فإن صفته عدم صفته ، فنقول : هو خير مجرد لم ير قبله مثله ، كذلك نقول : هو رب ليس كمثله شىء .

٧٦ ـ قال : سألتنى أكرمك الله عن قول داود القياسى فى الله تعالى : إنه لم يزل متكلماً ، وأن أكتب إليك بما يوجبه عليه مذهبه فيه ، فمذهبه أعزك الله مدخول ، ولا أدرى من أين أخذه ، ولا على أى شىء حمله ، ولا معنى له فى القرآن ، ولا فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون الكلام إلا عن سبب وعلة توجب الكلام [١٠٣ ظ] ، ولولا العلة لم يكن كلام ، ولكن نقول : إنه لم يزل متكلماً منذ خلق القلم ، ولا يزال إلى يوم القيامة لقوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : ٨٢] . وإنما كان هذا من حيث ابتدأ خلق ما خلق ، فلم يتكون شىء من ملكوته كله إلا بهذه

الـكلمة ، وفيها زم قدرته على كل ما خلق ، فإنما أوجب كلمته هذه خلق الأشياء كلها لما أراده من المحنة عز وجل .

٧٧ ـ محمد رحمه الله قال : كلمت رجلاً على قول الدهرية فقلت له : هل تعرف شيئاً إلا ما يعرفه عقلك ، أو عندك شيء آخر تعرف به وتنكر ؟

قال : ما أعرف إلا ما عرفه عقلي .

قلت : فما عرفه العقل فهو المعروف المقرّ به ؟

قال : نعم .

قلت : فما لم يعرفه العقل إذن فهو المنكر ، والمنكر أصل الذى لا برهان عليه ؟

قال : نعم .

قلت : والمنكر باطل ؟

قال : نعم .

قلت له . فهل يعرف العقل شيئاً لا نهاية له ؟

قال : لا يعرف العقل إلا ما له نهاية فى جسمه .

قلت : فإنى أجمع لك كل مضى : لا يخلو قولك وقول أصحابك من أن نقول : إن الفلك هو الغاية أو أن فوقه غاية . فإن قلت : هو الغاية قلت لك : فهو متحرك ، والحركة لا تـكون إلا فى مكان ، والمكان لا يكون إلا فى مكان إلى ما لا نهاية له ؛ فالعقل ينكر هذا . و إن قلت: هو فى متحرك ، فإنه جسم ، والجسم لا يكون إلا فى جسم إلى ما لا نهاية له . و إن قلت : فوقه غاية ، قلت لك : ما تلك الغاية التى فوقه ؟ أتشبهه أم لا تشبهه ؟ فإن قلت : تشبهه . قلت لك : فهى جسم ، فهى إذن فى جسم ، فرجعت إلى سيرتك الأولى . وإن قلت : لا تشبهه . قلت لك : فإن العقل لا يجد مثالاً إلا ما يشاهده ، ولم يشاهد

إلا الأجسام . فإذا أجبت بشيء تزعم أنك تجد مثاله وهو خلاف المثال أنكره العقل ، وما أنكر العقل فهو باطل .

قال : أقول : فوقه شيء يشبهه فى الجسم ، وليس يدور عليه زمان ، لأنه فوق الزمان .

قلت له : فهو جسم أو غير جسم ؟

قال : جسم .

قلت له : قد رجعت إلى الجسم ، ولا يكون الجسم إلا فى جسم إلى غير نهاية ، وهذا باطل .

قال : ليس بجسم ولكنه الدهر .

قلت : وما هو ؟

قال : لا هو الدهر .

قلت : اسم بلا معنى .

قال : اسم له معنى .

قلت : فإنى أسمعك تأتى بالاسم فرداً .

قال : اسم أشار إلى معنى .

قلت : فصف لى المعنى .

قال : هو الذى تنتهى إليه الحركات [١٠٤ و] .

قلت : وما ذلك الذى تنتهى إليه الحركات ؟ ما مائيته ؟ عن ذلك أسألك .

قال : هو الدهر .

قلت : إن الاسم لا يتوهمه العقل إنما يتوهم المعنى ، فما معناه ؟ أهو مكان ؟

قال : لا

قلت : فكيف يكون جسم الفلك فى غير مكان ؟ ثم قلت : ويحك إنه ينكر عليك هذا القول من جهات كثيرة أن الذى يقول فوق الزمان إن كان متوهماً فهو جسم ، و إن كان غير متوهم أنكره العقل على أصلك . ولا يخلو شىء من أن يكون زماناً أو مكاناً ، لأن الزمان لا يكون إلا مع المكان ، والمكان لا يسبق الزمان . فإذا كان زماناً أو مكاناً فهو مؤلف متحرك . والمتحرك ذو آخر لأنه ذو نقلة . فإن كان ذا أجزاء فهو مؤلف من تفرقة ، والتفرقة نهايته الأولى .

قال : فأقول : إن له نهاية أولى من التفرقة تأتلف .

قلت : وقبل أن تأتلف ، ما كان ؟

قال : مفرقاً .

قلت : عدماً ؟

قال : لا .

قلت : فكان أجزاء متفرقة إذن ، والأجزاء أمكنة ، فمعها زمان بلا نهاية تأليف .

قال : بل للتأليف نهاية أولى .

قلت : فمن عدم إذن ؟

قال : من عدم .

قلت : فى العدم لا شىء ، فلا شىء يؤلف شيئاً إذن ، وهذا ما يحده العقل ، لأن الشىء لا يؤلف نفسه ، لأنه قبل أن يؤلف نفسه عدم ، والعدم لا شىء ، ولا شىء لا يكون منه شىء من ذاته ، لأنه لا ذات له ، إلا أن يكون منشىء ينشىء شيئاً من لا شىء ، وهو الله رب العالمين .

قال: فلو سامحتنى أولاً فى النهاية الأولى ، كيف كنت تصنع فى آخر الامر ؟

قلت له : إذا كان لشيء طرف أول لم يكن له بد من طرف ثان ، وإلا لم يكن بذى نهاية ، والعقل لا يحد ما لا نهاية له ممثلاً ، ولا يحد ما ليس له طرف ممثلاً . فإن كان له طرف ، فطرفه الفناء، لأنه منه بدأ و إليه يعود ، كما أن كل شيء له طرفان من ضده لا محالة ؛ هكذا نجد ونرى فى الممتثلات كلها .

قال : فما أرانى أجد إلا أحد أمرين : إما مكاناً فوق المثلات يكون جسماً فيلزمنى فقد النهاية ، أو أقول : ليس جسماً فينكره العقل .

قلت له : كذلك تجد فى قولك .

قال : فما تقول أنت ؟

قلت : أقول : فوق الزمان والمكان خالقهما ومؤلفهما وهو خلافهما وغيرهما من كل جهة ، فلا يحيط به العقل من جهة التمثيل و يدركه من جهة الدليل ، ومن قولك آخذه ، لأنك أنت وكل من يفهم من أصحابك وغيرهم لا يحدون فى البدء إلا الزمان والمكان معاً ، لا يسبق بعضه بعضاً ، ولا يكون المكان إلا من [١٠٤ ظ] تأليف ، ولا يقوم التأليف إلا من عدم ، فمخرجه من عدم هو الله الذى لا إله إلا هو ، تعالى الله الأول الخالق . ولا يكون المكان أيضاً إلا لمتمسك ، فلو كان مثله كان بلا نهاية ، غير محدود لا محالة ، ولكنه ممسك خلافه من كل جهة ، فذلك الله رب العالمين .

قال : والله ما أجد بعقلى إلا ما تقول ، غير أن قوماً قالوا : جوهر بسيط .

قلت : يلزمهم فى الجوهر البسيط ما لزمك ، لأن الجوهر البسيط شيء قالوه لا يتمثل . فإن قالوا إنه لا يتمثل وهو جسم كذبوا وجاءوا بما لا يعرفه العقل . و إن قالوا : هو غير جسم ، قلت لهم : هو مقيم الأجسام ومدبر الكل ، وليس يشبهه شيء ، تعالى الله رب العالمين .

قال : كذلك لعمرى يلزمهم ولابد من هذا .

قلت : فاعلم أنه لما نظروا وجدوا بعد المكان والزمان غيرهما ، فلما قالوا مِثْلٌ ، بطل عليهم فى فكرهم ، ولما قالوا خلافه لم يحسنوا الصفة ؛ لأنهم حسبوا أن العقل لا يجد خالقاً مرتفعاً فوق العقل يدركه بالدليل بلا تمثيل ، لأنه لا شبه له ولا ند ، ويوجد مخلوقاً يتمثل ، لأنهم وجدوا له أمثلة وأشباهاً . فلما أرادوا أن يرفعوه فوق العقل لم يهتدوا إلى الدليل عليه فأنكروه . ولما أرادوا أن يتمثلوه وجدوه من المخلوقات بلا نهاية ، فأنكروه بين الحيزتين على ثالثة لا يعرفونها ، وجعلوها حيلة يختصمون بها فى المناظرة ، اسماً بلا معنى ، صفة بلا كيفية ، فقالوا : جوهر بسيط ، ففرّوا من الحيرة إلى الضلال ، ومن العشى إلى العمى ، ومن الحرّ إلى النار ، فنعوذ بالله من العمى ونحمده على الهدى ، ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

فاعلم الآن بما هداك الله موقع الكفر وفظاعته وعظم خطره فى الشر والخسران من كل من ألحد فى توحيد الله تعالى ، وأنه إذا أخذ توحيده ممن ليس يقر بربه ولا خالقه ، بأن تعلم أن كل من لم يصح توحيده ويخلص لله فيه حق إخلاصه ، وزعم أن ربه غير واحد بوحدانيته الحقيقية من كل جهة ، فهو كعابد وثن ، لأن العباد إنما يتوجهون إلى عبادة ربهم ، ويصفون خالقهم بتصحيح الصفة فى العقل ، فإذا لم يصب وصف صفة الخالق ، فإنما يصيب صفة المخلوق ، لأنه ليس إلا الله تعالى خالقاً ، فمن زال عن صفة خالقه ربه زال إلى صفة خلقه [١٠٥ و] . فإذا قصد بعبادته صفة الخلق ، فهو كعابد الوثن ، قد تبرأ من الله عز وجل وكفر وجحد نعمته كلها من الدنيا والآخرة ، ونسبها إلى غيره ، وتعبد ورجا وخاف غير الله ، فلم يوجه إلى الله تعالى بشىء من حقوقه ، ولا أقرّ له بشىء من نعمته ، ولا أعلق به شيئاً من رجائه ولا خوفه ، ولا أسند إليه شيئاً من دنياه وآخرته ، ولا أقرّ بخالق ، ولا أثبت رباً ولا إلهاً ، تعالى الله علواً كبيراً ، والحمد لله على

الهدى كثيراً حمداً يرضاه ويتقبله ، ويوجب الثبات به حتى نلقاه عليه، ويوجب الزلفى لديه والسكون فى جواره وظل عرشه ، برحمته آمين .

فصل

٧٨ — قال محمد رحمه الله :

كل مكون معلول ، وكل كائن فله علة ، وما لا علة له فلا كون له ، فالعلة العليا علة العلل وجنس الأجناس وطبيعة كل طبيعة وجنس كل نوع . فالعلة العليا لكل شىء هى مشيئة الله تعالى لكون الأشياء كلها ، فهى شاملة عامة ، ثم انفصل منها لكل شىء علة خاصة لاصقة بالشىء قريبة منه ، والعلة الكبرى فوقها أمٌّ لها ، لا مقصر لشىء من العلل دونها ، لأن منها فصلها ، ولا أم لها بعدها لأنها غايتها ، فالعلم معرفة العلل ، والرسوخ فيه بقدر الرسوخ فيها .

٧٩ — وإن الله عز وجل لما خلق الدنيا دار محنة وبلوى ، خلقها أضداداً وأزواجاً ، لتقع المحنة وتتم الدلالة . فتمام الدلالة بذلك لأنه لايعرف الشىء بحقيقته إلا من قبل ضده ، فبالظلمة تعرف النور ، وبالمكروه يعرف المحبوب ، وبالشر يعرف الخير ، وبالبرد يعرف الحر ، وبالتحت يعرف الفوق ، وبالظاهر يعرف الباطن ، كل واحد منها يعرف بصاحبه ، ويهتدى إليه بزوجه وضده ، ويهتدى بالأضداد كلها إلى وحدانية الخالق لها . وأما وقوع المحنة من جهة الأزواج ، فإن الله تعالى جعل الدنيا امتزاجاً وانفصالاً روحين أيضاً ضدين ، ليعرف هذا بهذا. فما فصله الله تعالى بأمره ولم يكن إلى المخلوق لعلة قامت حقيقتة ، وارتفعت الشبهة عنه ، كانفصال الأرض من السماء ، والماء من الثرى ، والنار من الرطوبة ، والأجسام بعضها من بعض ، وما مرجه وامتحن المخلوق بفصله جعل بين حديه البينين ،

وهما معظم الشيئين ، شبهة مشبهة بالشك واليقين ، فالشبهة واقعة بين الحق [١٠٥ ظ] والباطل ، كالغبش بين النور والظلمة ، وكالدكنة بين البياض والسواد ، وكالحامض بين الحلو والمر ، والسنة بين النوم واليقظة ، فكل شىء فى الدنيا من المتصل والمنفصل زوجان ، والشبه واقع بين حدى المتصل عند وقت الانفصال . فانفرد الله تعالى بالوحدانية وحده ، وجعل الأشياء كلها زوجين بعده ، والعلم هو معرفة العلل ، ومعرفة العلل هى معرفة الحدود ، والحدود زوجان : حد إحاطة وحد مقاربة ، والشبهة زوجان : أحدهما يقع فى حد الإحاطة بأن يشابه أعيان الشيئين ، كاشتباه الشبه بالذهب والقزدير بالفضة ونحو ذلك . والثانى فى حدّ المقاربة حيث تقع الشبهة بين المنفصلين ، كحد ما بين الجبل والسهل والحلو والمر والقوة والوهن.

فالأزواج والأضداد الجارية فى كل موضوع ومخلوق من أمور الدنيا والدين هى علة الاختلاف الكبرى التى من جهتها وجب النظر ، وبعث كلفة التدبر والتثبت والاشتباه . وكل خطأ وقع فى بنى آدم فمن هذه الجهة يقع ، ومن هذا الأصل ينبعث .

٨٠ — وأمثلة العلم أمثلة باطنة مفصولة من الذكر الباطن فى الذكر المفصول للإنسان فى الباطن ، فهى لا ترى إلا بالبصر الباطن ، وهو العقل ، فتمييز الناظر فيها على قدر حدة بصره ، وقوة نور باطن عقله ، كما يتميز الناظر فى دقائق الاشخاص بحسب قوة بصر عينه وحدة حاسة حدقته ونوره ، وقوة البصر الباطن ونوره بحسب بعده من الشهوات التى هى تكدره وتطمس عليه وتحجبه عن الاتصال بمادته ، ومادته علم الله الأعلى الذى يمد به من يشاء ، فافهم . ومن ارتفع بنظره إلى العلل العليا فأصاب وجه ما طلب ، جرى صوابه فى كل ما تحت ذلك من العلل ، فعظم صوابه . ومن أخطأ فى تلك المنزلة العليا ، جرى خطأه فيما تحت ذلك فعظم خطأه . ومن أخطأ فيما دون ذلك ، فخطأه بقدر درجته من النظر ، فافهم .

٨١ — تكلمت النصارى فى الله فأخطأت الوحدانية فكفروا ، وتكلمت اليهود فى النبوة فأخطأوا فيها فكفروا ، لأن الكلام فى النبوة هو من الكلام فى الصفات العلى . وتكلم الفقهاء فى فروع الأحكام ، فلم يكن خطأهم كفراً ، لبعد الكلام من الأصل . وتكلمت الفرق المبتدعة فى الأصول العليا بعد أن اعتصموا بالإقرار بالوحدانية والنبوة ، فمنعهم أن يكون كلامهم كفراً اعتصامهم بجملة الإقرار ، وارتفعوا فى القدر عن الخطأ فى فروع الأحكام ، ولم يبلغ بهم الخروج عن حد الإسلام [١٠٦ و] لاعتصامهم بعقدة الإقرار ، وكان خطأهم كأنه خطأ تأويل ، وهو بين الحدين فى موقف الشبهة لأنه يقول : أنا مؤمن بما جاء به النبى على ماجاء به ، لا أنكر شيئاً منه ، ولا أخرج نفسى عنه . ثم يتأول فيخرج عنه ، وهو يرى أنه يوافقه ، وكأنه إنما يطلب موضع الحق منه ، فهو خارج من جهة النظر ، معتصم من جهة النية والإقرار ، فبيان الحكم فيهم غيب ، ولله عليهم الحجة إن عذب ، ولهم وسيلة إلى العفو إن عفا ، ونستعصم الله من الخطأ والزيغ فى رفيع الأمور وقريبها برحمته .

٨٢ — جملة المختلفين من أمتنا : المرجئة والخوارج والجهمية ، من هذه الثلاث طوائف انفصلت الفرق بأجمعها ، وأعظم فرقة انفصلت منها حتى صارت كأنها رابعة معها فرقة الشيعة ، ولكنها منفصلة من الخوارج ، ثم تليها فرقة القدرية الذين جملتهم المعتزلة ، وهى منفصلة من الجهمية ، وانفصلت المرجئة على كل فرقة فرقة منها ، لم يغلب عليها اسم يمحو عنها اسمها الأعظم ، كلهم يسمون مرجئة .

فأما المرجئة والخوارج فإنهم يختلفون أن الإيمان روحانى كشىء له طرفان، ابتداء وغاية ؛ ونشوء وكمال ، وأنه فى ذاته درجات منفصلات ومراتب متفاوتات . فقالت المرجئة : الإيمان هو الاقرار بالله تعالى ، فكل من أقر بالله فهو مؤمن فى

٦ — وارتفعوا . وارتفع

الجنة ، فحكموا فى الإيمان بأحد طرفيه، وهو أوله ومدخله، فضاهوا اليهود . وقالت الخوارج بالطرف الآخر فقالت: المؤمن من لا ذنب له بتة ، ومادون ذلك فكافر فى النار فحكموا فى الإيمان بأحد الطرفين، وهو طرف الكمال وأعلاه وغايته ، وتركوا الحق وسطاً، ومشت الطائفتان من جانبيه تعسفاً، وركبت الجماعة الوسط، فأصابوا الجادة ولزموا القصد وأم الطريق ، والحمد لله .

وأما الجهمية فأنهم تكلموا فيما لم يبح الكلام فيه للعامة ،وأرادوا أن يكيفوا علم الله تعالى ، فضاهوا النصارى . ونحن لا نتمكن من صفة العلة التى من جهتها أخطأت الجهمية ، لأنه من الكلام فى الصفات العلى التى لم يبح لنا نبينا صلى الله عليه وسلم الكلام فيها ولا يتجاوزها علم القلوب ، ولكننا نقصد من ذلك إلى ما نرى أنه يجوز لنا الكلام فيه ، فمن لقنه انتفع به ، ومن لم يلقنه فقد قدمنا إليه العذر المانع من التفصيل له .

أصل الخطأ فى القدر [١٠٦ ظ] والعلم أن المتكلف له أراد أن يقترن القدر بالعدل ، فتنافرا فى نظره ، وقصر عن كيفية اقترانهما فهمه . فقال قوم فأثبتوا العدل ونفوا القدر ، وهم المعتزلة ، فضاهوا المجوس. وقال قوم فارتفعوا فوقهم وانحرفوا إلى الكلام فى العلم ، فهم الجهمية ، فضاهوا ضروباً من الكفر كثيراً . وقوم أقروا بعدل الله وقدره مذعنين لما ذكر فى كتابه ، واقفين عند ما لم يستبن لهم علمه ، وهم الجماعة ، فثبتوا على إيمانهم ولم ينقضوا عقدة إقرارهم . ومن تكلم من كلا الفريقين فى ذلك غوى وهوى ، ونعوذ بالله من الضلال بعد الهدى .

وأما المعتزلة فأنهم كالجهمية ، اتفقوا فى أمر ضاهوا به الدهرية ، وذلك أنهم أرادوا أن لا يقروا إلا بما يتمثل فى عقولهم وما قصّر عنه فهمهم ردوه ، وزعموا أن الله لم ينزله ، وأن الرسول عليه السلام لم يقله ، فحسبوا أن الدين وضع ، وأن القضايا العليا قضيت على مقدار الأفهام الخسيسة وفطر القلوب القاسية التى

نشأت فى عصر الفتنة ، والتبست برين الظلمة ، وأصغت إلى كدر الشهوات المعشية ، فكذبوا من ذلك بفتنة القبر ، وحياة الأرواح فى البرزخ ، و بخلق الجنة والنار ، و بحقيقة العرش والكرسى ، وغير ذلك من أنباء النبوة . فنعوذ بالله من الجرأة على الله والرد لأمر الله تعالى ، ومن جهل المخلوق بقدرته وتخطيه إلى غير حده ، وصلى الله على جميع أنبيائه ورسله .

فصل

٨٣ — رسالة اتفاق العدل بالقدر .

قال محمد رحمة الله عليه :

أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله فإن العاقبة للتقوى ، وأوصيك فيما أردت علمه من جهة القدر والعدل وتصاحبهما بأن تقف حيث وقفت منه ، وتؤمن بما عليك أن تؤمن به ، وتنتهى إلى ما انتهى سلفك إليه .

فأما قولك : قد نزلت البلية فيه ، والتبس بالقلوب داء مخامر منه لا غناء به عن الدواء ، وصدىء ولا بد له من الجلاء ، فإنى واعظك بمثالك الذى مثلت ، وعاطف بك إلى أصلك الذى أصلت :

فاعلم أن من الدواء نفعاً عاجلاً ، ومنه سم قاتل ، ومهما قصر عن الحتف بقى له دواء مداخل ، وكذلك الكلام فى القدر إذا وقف به على حده ولم يتعد به إلى مالايجوز ، فهو دواء غير داء . و إذا جووز به الكفاية ، وابتغى فيه التطلع من الغاية ، فهو داء لا دواء . وسألقى إليك إن شاء الله فى ذلك مقداراً يسعنى و يسعك و ينفعنى و ينفعك ، إن وفقت القدر إليك إن جمحت . فمهما شككت فيه أو [١٠٧و] اشتبه عليك منه ، فاعلم أن الله تعالى خالق جميع خلقه على ماسبق فى علمه

---

١٧ ــ جووز : جوز .

١٨ ــ مقداراً : مقدار .

المخطوط فى أم الكتاب الذى لا تبديل له ، فمضى عليه خلقهم وجرت عليه سائر أمورهم دقيقها وجليلها وخيرها وشرها وعامها وخاصها و باطنها وظاهرها ومكروهها ومحبوبها ، لا يزيغ أحد عما سبق فى مقاديره ونفذ من مشيئته ، وقضى فى أم الكتاب عنده ، ولا يعدوه فى لفظة ولا لحظة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر فى دنيا ولا آخرة ، بل جارون على ما علم وكتب وقضى وقدر وشاء وأراد قبل أن يخلق السموات والأرض ، إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير .

ومن قضائه فى أم الكتاب أن كتب على نفسه الرحمة ، ومن الرحمة العدل والفضل ، ومن العدل والفضل أنه لا يظلم الناس شيئاً ، ولا يكلف فوق طاقته أحداً ، وأن له الحجة البالغة ، وأن له الحمد فى الأولى والآخرة ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون فمن زعم أنه يخرج من قدر الله فى شىء من أمره كائناً ما كان : عمل أو جل ، أو سراء أو ضراء فقد نقص توحيده وأشرك بربه . ومن ادعى على الله مالا برهان له به ، فزعم أن الضرورة لزمته من قبل ربه ، وأنه معذور بذنبه ، مكلف فوق وسعه ، غير محجوج فى معصية الله ، فقد كفر وجحد عدله وفضله ، ورد كتابه وكذب رسله . وكلا الفريقين قد جاءته الفتنة المتخوفة التى أنذرها سلفنا خلفهم : أن المرء يسلب إيمانه وهو لا يشعر ، ويصبح مؤمناً ويمسى كافراً ، ونعوذ بالله من الزيغ بعد الهدى والضلال بعد البيان . ومن سلك الواسطة ولزم الجادة واتبع آثار السلف الراشدين ، فآمن بالقدر كله خيره وشره ، موقناً بعدل الله تعالى وصدق وعده ، وأنه أهل العفو والفضل ، وأن ابن آدم أهل الخطأ والذنب ، وأن لله الحجة البالغة ، ثم لم يكذب بما آمن به من ذلك بلفظ غيره نصاً ، ولا تعريضاً ، فقد نجا إن شاء الله ولم يسأله الله عما وراء ذلك .

---

١٤ : جاءته ، غير واضحة فى ص .

١٦ : البيان : كذا فى ص ولعلها الثبات .

فقد رأينا من يقر بهذا الإقرار ، ثم يعود عليه بلفظ آخر فينقضه نقضاً وهو لا يشعر ، فأخشى أن يكون سلب إيمانه وهو لا يشعر .

فاجعل وفقك الله مع الإيمان بالقدر الإيمان بالعدل غير زائغ عنه بلفظة ولا لحظة ، وداو وساوس الشيطان الباطنة بما تشاهده من أحكام الله الظاهرة التى تشهد أن عدله فيها أرفع العدل ، وفضله فيها أعظم الفضل ، فاستشهد الظاهر على الباطن ، والمحكم على المتشابه ، وما اتضح لك على ما خفى عليك [١٠٧ ظ] ، ليقه يك على ذلك ثبات علمك بأن الله ذو القدرة التامة والحكمة البالغة قادرٌ على كل شيء ، مالك لكل شيء ، لم تلزمه ضرورة فى أول تدبيره ولا آخره ، ولا لحقه ضيق ولا حرج فى عدله وقدره وفى نظامهما ووضعهما و إمضائهما ، وأن أحكامه كلها لمن عقل موقعها ، وعاين بعين عقله حكمة تطلبها، قائمة على غاية الإتقان والإحسان ، لا جور فيها يضاد العدل والخير ، ظاهرها كباطنها وواضحها كغامضها ومجهولها كمعلومها لا دخل فيها ولا غاية ، و إنما النقص فى درك ذلك من بعضها على نظر المخلوق وقصر فهمه لا عليها . من ظن غير ذلك فقد ظن عجزاً ، وأضمر إلحاداً وكفراً .

واعلم فيما تعلم من ذلك أن كل قدرة لمخلوق أو مشيئة أو إرادة فالله مالكها ، كما هو خالقها ، لم ينفرد المخلوق بحال يملكه ، ولا أمر يقدره ، ولا قوة يبطش بها ، ولا مشيئة ينفذها ، أمر الله عز وجل فوق أمره ، ويد الله فوق يده ، ومشيئته ماضية عليه ولازمة له نافذة فيه : ﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله ﴾ [سورة يونس : ٤٩] ، وما كسب ابن آدم من خير وشر فهو عامله وكاسبه ، له النية فيه والمباشرة بفعله .

فاجعل مع الإقرار بلزوم مشيئة الله تعالى لك وفيك ، الإقرار بأن الذنب

---

١٢ : دخل : دحل .

لك ومنك ، وانسب إلى الله عز وجل العدل والفضل والإحسان الذى هو أهله ، والذى لست ترى عندك من الله غيره ، وَبُؤْ على نفسك بالخطأ والزلل واللوم والذنب الذى أنت أهله وجانِيه ، والذى لست ترى مع نفسك شريكاً فيه ، ونزه الله تعالى وبَرِّئْهُ مما يعمل الظالمون ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

ثم اعلم مع ذلك أنه قضى عليك ولك إن عملت خيراً أصبت خيراً ، وإن عملت شراً أصبت شراً ، وتركك للخير هو من عملك للشر ، وعملك للشر هو من تركك للخير ، ذلك كله عمل ، ولا ينال شىء من الثواب إلا بالعمل ، ولا يدرك إلا بالسعى ، كالثمرة لا تجتنى إلا من غراس الشجرة . هكذا قضى الله تعالى أمر الدنيا ودبرها ، وأن الاجتهاد وسيلتك ، والعمل مبلغك ، وأن الله معين المريدين ومؤيد الصالحين ومثبت الصابرين ، و ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [سورة النحل : ١٢٨] .

ثم اعلم أن مما قد نزل من فتنة هـذا الأمر أن لا أزال أسمع موعوظاً يوعظ أو غافلاً يذكر ، فيلجأ إلى الاعتذار بالقدر ، فيتخذه عذراً مانعاً ، ومخطئاً يخطىء ، وآثماً [١٠٨ و] يأثم ، فيعتذر بالقدر ، فيجعله لنفسه براءة من الذنب ، كالمقيم لنفسه الحجة والعذر . أفلا تتقى الله يا ابن آدم فتعلم من خاصمت ومن حاددت وعلى من احتججت ؟ أما إنك إذا قصدت وطر شهوتك التى سخطها الله تعالى منك راكباً لبعض محارم ربك ، فإنك تنهض إليه بأيد أيدٍّ وبطش شديد ، غير متوهم حينئذ لمانع يمنعك ، أو حاجز يحجزك عنه ، حتى إذا أنت هممت بالخير الذى رضيه الله تعالى منك ، تلكأت وتثاقلت وأخلدت إلى الأرض وتربعت ، ثم افتعلت الحجج وألقيت : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾ [سورة القيامة : ١٤] .

---

٣ : وجانيه : وجانبه .

أحين نهضت إلى الشيء فعلمت أن الله خاذلك ومعرض عنك ووا كلك إلى نفسك ، لم تخف عجزاً عنه حتى بلغت غاية ما تريد منه ، فلما هممت بالخير فعلمت أن الله تعالى معك ولك ومؤيدك ومثبتك ، خفت العجز والنكول وافتعلت المعاذير ؟ كذلك لما أخطأت زعمت أن القدر قوّاك ، فإذا هممت بالخير تزعم أن القدر خذلك ؟ لم لا تعدل وقد عدل الله عليك ؟ ولكنك تتخير على القدر بهواك ، فتزعم أن القدر ينهضك إلى الخطأ ، وأن القدر يثبطك عن الصواب ، فلم لا إذ تكلفت ما ليس عليك وازنت ببصيرتك فقلت : و بالقدر أيضاً أثبطك عن الخطأ . و بالقدر أنهض إلى الصواب؟ أو لعلك تزعم أن القدر معك إذا أردت الشر ، وليس معك إذا أردت الخير ؟ كلا ، لئن قلت ذلك، لقد ضللت وكفرت ، مافارقك القدر فى حالٍ من حالاتك ، ولقد عدل ربك عليك فى جميع أوقاتك ، وفى قدر الله كنت ، وفى قدر الله عز وجل أنت ، وفى قدر الله تكون ، و إنما عليك أن تعمل ولا تطالب ربك بما تعمل ، فاكلف بما كلفت ، ودع عنك أن تحاجَّ الله عز وجل ، فإنك متى خاصمته خُصِمت .

فلا تكونن أخى ممن يتخذ الإقرار بالقدر سبباً للكسل والوهن فى العمل ، ولا تحسب أن عملك مخرجك من قدر الله الذى قدر لك ، ولا أن القدر ، كيف تصرفتْ بك الحال ، يزايلك . بل اعلم أن عملك من قدرك ، وأن عجزك إن عجزت من قدرك ، وأنك فى القدر كنت وفى القدر تكون و إليه تصير ، كيف تصرفت بك الحال ، فمن قدر الله إلى قدر الله ، لا زائغاً عنه ولا خارجاً منه . فارغب وارهب وجدّ واعمل ، فليس تسأل عما قضى عليك ، ولكن عما عهد إليك، ولن تجازى إلا بعملك، ولن تحاسب إلا بسعيك ، ولن تجد محضراً إلا ماقدّمتْ ، ولن ترد إحدى المنزلتين إلا بما كسبت [١٠٨ ظ] ، ولا تلزم الشر إذا تركته وفررت إلى الله تعالى منه ، ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا

مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ [سورة الذاريات : ٥١] ، والسلام عليك ، وصلى الله على سيدنا محمد .

فصل

٨٤ ـ قال محمد : أما الروح فليس يخلو من إحدى منزلتين عند القبض : أن يكون يقبض ، ثم يرد إلى فناء المضجع ، و يكون متصلاً إلى أعلى منزلته بقدر ما يجعل له فى الأولى والثانية أو حيث كان . فإن جاوز السماء وفتحت له ، فهو إن شاء الله ممن يرى الجنة من موضعه ذلك من أعلاه ، وكلما قرب إليها كان أبين له وأروح حتى إلى منزلة من الشهداء الذى يشاهدون الملكوت رؤية مشاهدة ومداخلة فى الروضة والفناء والساحة .

وتذكر أن الله لا يسمى ما كان من ابن آدم روحاً ، وإنما يسمى الروح الملائكة والقرآن ونحو ذلك ، لأن الروح الذى فى ابن آدم لا يستحق ـ أظن ـ الثناء حتى يختم له بالسعادة وتسميته روحاً فهو ثناء ، فإن لم يكن من أهل السعادة سمى نفساً ، قال الله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [سورة الزمر : ٤٢] فهذا يجمع أنفس المؤمنين والكافرين ، « والتى لم تمت فى منامها » أيضاً يجمع الطائفتين . وقال فى الكفار : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ [سورة الأنعام : ٩٣] ، ومن العجب أنه لم يقل فى الشهداء أرواحاً ، قال : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٩] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نسمة المؤمن ـ ولم يقل روحه ؛ فلعل هذا الفصل بين أرواح الملائكة صلى الله عليهم و بين هذه الأرواح الأرضية ، أو لما الله به أعلم أن الروح تحفظ كلّ مافعل ابن آدم ، و إنما النسيان آفات من آفات النفس أو الجسد ، فإذا كشفت الآفات ذكر الروح كل ما شاهد فى الدنيا ، ذكره الآخرة ألا تراه فى الدنيا ينسى ، ثم يذكر ، وهذا دليل بيِّن .

فصل

وأما الروح المرسل إلى مريم ، و ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ [سورة النبأ : ٣٨] هـذا جبريل . وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] هذا هو العلم ، ﴿وروح منه﴾ [سورة النساء : ١٧١] هو الروح المنفوخ فى عيسى ، كالذى نفخ فى آدم ، وهو قدس لم تتناتجه الأصلاب . كل هذا أصله من الروح الأعلى ، إن ألقى فى القلوب فهو علم ، و إن كان نسيما فهو روح ، و إن كان شديد الحركة فهو ريح ، و إن كان قوياً فى القلب مفصلا راسخاً فهو يقين ، و إن كان حياة للجسم فهو روح للجسم ، وأصله كله الروح الأعلى ، ثم تختلف أسماؤه باختلاف صفاته وحركاته .

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه وصلى الله

على سيد الأولين والآخرين

محمد وعلى آل محمد

وصحابته والتابعين

المراجـــع

ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة (١ - ٢) ، ط . مصر ١٩٥٦

ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، مطبعة لجنة التأليف ، ١٩٣٩ .

ابن مشكوابى : كتاب الصلة (١ - ٢) ، ط . مصر ، ١٩٥٥

ابن الجوزى : الحسن البصرى ، ط . الخانجى ، ١٩٣١

ابن حزم : الأحكام فى أصول الأحكام (١ - ٨) ، ط . الخانجى ١٣٤٥ - ١٣٤٨

« « : التقريب لحد المنطق ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩ .

« « : كتاب الجمهرة فى الأنساب ، تحقيق ل . بروفنسال ، ط . دار المعارف بمصر .

« « : كتاب فى أصول وفروع شتى (مخطوط شهيدعلى: ٢٧٠٤) .

« « : طوق الحمامة فى الألفة والآلاف ، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، ط . القاهرة ١٩٥٠

« « : الفصل فى الملل والأهواء والنحل (١-٥) ط. مصر ١٣١٧

« « : رسائل ابن حزم الأندلسى ، تحقيق إحسان عباس ، ط . مصر ١٩٥٤

ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ١ ، نشر محمد عبد الله عنان ، ط . دار المعارف بمصر .

ابن خير : الفهرسة ، ط . مدريد

ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، ط. دار صادر وبيروت .

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (١-٢) ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ط . دار المعارف بمصر .

ابن عبد البر	:	تجريد التمهيد ، ط. القدسى ١٣٥٠
ابن قتيبة	:	عيون الأخبار « جـ ٢ » ، ط دار الكتب المصرية
أبو حيان التوحيدى	:	الإمتاع والمؤانسة ، ط. لجنة التأليف والترجمة
أبو نعيم الأصفهانى	:	حلية الأولياء ، ط. الخانجى
الألبيرى أبو إسحاق	:	ديوان أبى إسحاق الألبيرى ، تحقيق الأستاذ غرسية غومس ، مدريد ـ غرناطة ١٩٤٤ .
بالنثيا ، خو نثالث	:	تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥
الحميدى أبو عبد الله	:	جـــذوة المقتبس ، تحقيق ابن تاويت الطنجى ، ط . مصر ١٣٧٢ .
—	:	ديوان الهذليين « ج ٢ » ط . دار الكتب المصرية .
دوزى	:	*Spanish Islam, Frans by R. G. Strokes, London 1913*
الذهبي	:	تذكرة الحفاظ « ج ٣ » ، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥٧.
الزمخشرى	:	الفائق فى غريب الحديث « ١ - ٣ »
صاعد القاضى أبو القاسم	:	طبقات الأمم ، ط. مصر
الطبرى محمد بن جرير	:	كتاب تفسير الطبرى ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ط . دار المعارف بمصر .
عبد الله بن بلكين	:	مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق ل . بروفنسال ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ .
—	:	الكتاب المقدس .
الكندى	:	رسائل الكندى الفلسفية ، تحقيق الدكتور عبد الهادى أبو ريدة ، مطبعة الاعتماد بمصر .
الكندى	:	كتاب الكندى إلى المعتصم بالله ، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، القاهرة ١٩٤٨ .

كراوس : رسائل فلسفية للرازى «ج ١» ، مصر ١٩٣٩ ؛ (مطبوعات كلية الآداب ـ جامعة فؤاد) .

الكمشخانوى أحمد ضياء الدين: راموز الأحاديث ، ط. ١٣٢٦ .

مؤنس ، الدكتور حسين : فجر الأندلس ، ط. القاهرة ١٩٥٩ .

المتنبى ، أبو الطيب : ديوان المتنبى

المراكشى عبد الواحد بن على : المعجب فى تلخيص أخبـــار المغرب ، ط. مصر ١٣٢٤ .

المقرى : نفخ الطيب ، ط. بولاق .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط. دار بيروت .

الفهرس

الصفحة — الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٦٦	تقليد الآراء لم يكن فى قرن الصحابة ، ولا قرن التابعين ، ولاقرن تابعيهم ، وإنما حدثت بدعة تقليد الآراء فى القرن الرابع المذموم .
١٦٨	قارىء العلم إذا حضر بباله الاشتغال بها طلباً للرئاسة فى الدنيا .
١٧٢	سؤالهم عن النوافل أيها أفضل .
١٧٣	سؤالهم عن حديث التنزل ، وهل الإجابة مضمونة فى تلك الساعة .
	سؤالهم عن الفتن .
١٧٥	سؤالهم عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب ، وفيه ذكر أخبار الأندلس .
١٧٨	سؤالهم عن تفاضل الكبائر .
١٨٣	بيان وجوه التوبة . وتمت الرسالة .

* * *

١٨٧	**الرسالة الرابعة** : رسالة الرد على الكندى الفيلسوف .
١٨٩	بيان وجوه العلة ، وبيان المطالب الأربعة : هل ، ما ، أى ، لم ؟
١٩٠	الوجود الإنسانى وجودان : وجود الحواس ، ووجود العقل .
١٩٥	الامتناع عن أن نقول إن البارى عز وجل علة .
١٩٦	القول فى العلل وفى المعلول .
٢٠٥	فصل العدم من الوجود .
٢٠٥	مسألة الإمكان ، وتفسيره .
٢١٠	الرد على من ألحد فى أسمائه سبحانه ، وسمى ربه علة .
٢١٧	من المقلوب قياس أمور خالقنا على قياس أنفسنا .
٢٢٠	مناظرة رجل من الدهرية .
٢٢٧	المرجئة والخوارج والجهمية ، ومنها انفصلت الفرق بأجمعها .
٢٢٩	رسالة اتفاق العدل بالقدر .
٢٣٤	الكلام فى الروح .
٢٣٧	مراجع المحقق .
٢٤١	فهرس الرسائل الأربع .

١٧٢٠